Shortlisted
The
2020
International
Booker
Prize

يوكو أوغاوا

شُرطة الذّاكِرة

ترجمة : محمد آيت حنا

دار الآداب

يوكو أوغاوا

شرطة الذاكرة

ترجمة : محمد آيت حنا

دار الآداب

Teleg



كلمة الغلاف

عالمٌ بأكمله شيّدتْه هنا يوكو أوغاوا قطعةً قطعةً:جزيرة تختفي منها الأشياءُ والمخلوقات، وتتلاشى فيها العواطف. نساء ورجال يتخلّون عن ذكرياتهم أو يحتفظون بها سرًّا. أجهزةٌ وتنظيماتٌ تتعقّب الذكريات وتحرص على اختفائها. إنّها روايةٌ باهرةٌ نجحتْ في خلق المفارقة: بِناءُ عالمٍ قوامُه الاختفاءُ والامّحاء.

–

أُدرجتْ رواية "شُرطة الذاكرة" ضمن اللائحة القصيرة لجائزة Booker العالميّة للعام 2020.

–

يوكو أوغاوا: روائية يابانية حصدت كلّ الجوائز الأدبيّة اليابانيّة الكبرى.

صدر لها عن دار الآداب: "حوض السباحة"، و "غرفة بيضاء مثاليّة لرجل مريض"، و"حذاءٌ لك

١

أتساءلُ، من حينٍ إلى آخر، ما أوَّلُ ما اختفى من هذه الجزيرة.

ـ فيما مضى، بزمنٍ طويلٍ قبل ولادتكِ، كانت هنا أشياءُ وافرةٌ. أشياءُ شفَّافةٌ، عطرةٌ، مرفرفةٌ، برّاقة... أشياءُ مذهلةٌ، لا يَسَعك تصوُّرها، أشياءُ حكت لي عنها أمِّي حين كنت طفلةً.

ـ مؤسفٌ ألَّا يكون سكَّانُ هذه الجزيرة قادرين على أن يحفظوا في قلوبهم إلى الأبد أشياءَ بهذه الرَّوعة. بما أنَّهم يعيشون في الجزيرة، فلا مهربَ لهم من هذه الاختفاءات المتعاقبة. قطعًا لن يطول بكِ الأمرُ قبل أن تفقدي شيئًا لأوَّل مرَّة.

سألتها قلقةً:

ـ هل الأمرُ مخيفٌ؟

- كلَّا. اطمئنِّي، فلا هو بالمؤلم ولا بالمحزن. تفتحين عينيْكِ صباحًا في سريرك، فيكون ثمَّة شيءٌ قد اختفى، من غير أن تلحظي اختفاءَه. حاولي البقاءَ ساكنةً، عيناك مغمضتان، وأذُنك متيقِّظةٌ، لكي تستشعري انسيابَ هواء الصباح. ستشعرين أنَّ شيئًا ما تغيَّر بين عشيَّةٍ وضحاها. ستكتشفين أنَّكِ قد أضعت الشيء الذي اختفى من الجزيرة.

كانت أمِّي تحدِّثني على هذا النحو فقط حين نكون في المشغل بالقبو. كان القبو فضاءً رحبًا تكفي مساحتُه عشرين حصيرًا، وكان مُغبرًّا وأرضيَّتُه خشنة. شمالًا كان ينفتحُ على قعر النهر، حتى إنَّنا كنَّا نسمَع صوت جَريان الماء. كنتُ أنا جالسةً على مقعدي الصغير، وأمِّي تسنُّ إزميلها أو تشحذُ مبردَها. إذ كانت نحَّاتةً. وهي تتحدَّثُ بصوتٍ هادئ.

- عقبَ حدوثِ اختفاء، تضطربُ الجزيرةُ مُدَّةً. فيحتشدُ الناسُ هنا وهناكَ في الأزقَّة ليخوضوا في الذكريات المرتبطة بالشيء الذي ضاع.

نتأسَّفُ، نحزنُ، يُواسي بعضنا بعضًا. حين يتعلَّقُ الأمرُ بأشياء مادِّيَّة، فإنَّنا نجمع البقايا لنحرقها، أو ندفنَها، أو نُلقي بها إلى النهر يجرفُها. غير أنَّ ذاك الاضطرابَ لا يدومُ أكثر من يوميْن أو ثلاثة. ثم ما يلبث كلٌّ منَّا أن يستعيد حياته اليوميَّة ويواصلها كما كانت من قبلُ. لا يستطيعُ الواحدُ منّا حتى أن يتذكَّرَ ما كان ذاك الشيء الذي أضعناه.

ثم تتوقَّفُ أمِّي لتسحبني خلف الدَّرَج. هناك كان صوانٌ قديمٌ مليء بأدراج صغيرة.

- هيَّا، اختاري أيّ دُرجٍ شئتِ وافتحيه.

فكَّرتُ طويلًا في الدُّرج الذي ينبغي عليَّ فتحُه، متأمِّلةً، واحدًا بعدَ آخرَ، المقابضَ البيضاويَّةَ الشكلِ الصدئةَ المسمَّرَةَ إلى الأدراج.

وما زلتُ متردِّدةً، إذ كنتُ أعلم علم اليقين مدى فرادة وروعة ما تحويه تلك الأدراج. كانت أمِّي تخبِّئ في ذلك المكان الأشياءَ التي اختفت حتى تلك اللحظة من الجزيرة.

وحين حسمتُ أمري وسحبتُ مقبض دُرجٍ من الأدراج، وضعَت أمِّي باسمةً محتواهُ في راحة يدي.

. أترين هذا؟ إنَّه قطعةٌ من ثوبٍ تُسمَّى «شريطًا»، وقد اختفى حين كنتُ في السابعة من عمري. كنَّا نزيِّن به الشَّعرَ، أو نخيطُه في ملابسَ.

. وهذا «جرسٌ زلق». حرِّكيه في راحتك. هل سمعت الصوت، كم هو جميل؟

. آااه، اختيارُك اليومَ موفَّقٌ جدًّا. هذه «زمرّدة»، إنَّها من أَنْفَس الأشياء. هي ذكرى خلَّفتها لي المرحومةُ جدَّتي. إنَّها ثمينةٌ جدًّا،

جميلةٌ وأنيقة، وقد نسي الجميع جمالها، مع أنَّها كانت تُعتبر من أَنْفَس ما تحويه الجزيرة.

. وما ترينَه هنا، صغيرٌ ودقيقٌ، لكنَّهُ مهمّ. حين نريد أن نُخبر أحدًا ما بخبرٍ، نكتُب له على ورقةٍ، ثم نلصقُ بالورقة «طابعًا». هكذا يوصلون مكتوبكِ إلى أيِّ مكانٍ تشائين. كان ذلك، في ماضٍ سحيقٍ.

شريط، جرس زلق، زمرّدة، طابع... كانت الكلمات في فم أمّي تهيّجُني، كأنّني أسمع أسماءَ طفلاتٍ غريباتٍ أو أنواعَ نباتاتٍ جديدة. ولما كنت أصغي إليها تتحدّثُ، كنت أسعدُ بتخيّل العصر الذي كانت فيه كلّ تلك الأشياء تحتلُّ موضعها على الجزيرة.

لكنَّ تخيُّلَ ذلك كان أمرًا شاقًّا. كانت الأشياءُ تتجمَّعُ في راحتيَّ، ساكنةً، كأنَّها حيواناتٌ في حالِ سُباتٍ، ولا تتفضَّلُ عليَّ

بأيِّ إشارةٍ. كثيرًا ما يلتبسُ ذهني، كأنَّما أحاول أن أُشكِّل في عجينِ الغيومَ العابرة في السماء. أمام الأدراج السرِّيَّة، يكون عليَّ أن أركِّز ذهني في كلِّ كلمةٍ تنطق بها أمِّي.

قصَّةُ «العطر» كانت هي المفضَّلة عندي. حُقٌّ صغيرٌ من زجاجٍ، مملوءٌ بسائلٍ شفيف. حين وضعَته في راحتي أوَّلَ مرَّةٍ، حسبتُه ماءً مُحلًّى، وكدتُ أشربُه.

سارعتْ تمنعني، وهي تصيحُ بي ضاحكةً:

ـ آه، هذا لا يُشرب. إنَّما نضعُ منه نقطةً فقط.. هكذا، على الجيدِ.

رفعت الحُقَّ كي تضع منه باحترازٍ قطراتٍ خلف الأذن.

ـ لمَ تفعلين هكذا؟

. إنَّ العطرَ، في الواقع، شيءٌ لا يُرى. ومع أنَّه خفيٌّ، لكن نستطيع مع ذلك سجنَه في حُقٍّ.

ركَّزتُ بصري على محتوى الحُقِّ.

. إن وضعنا قليلًا من العطر على أجسادنا، فإنَّها تضوع برائحةٍ طيِّبةٍ. ويصير بإمكانِنا إغواءُ أحدِهم. أيَّامَ شبابي، كانت جميع الصبايا يتعطَّرن قبل الذهاب في مواعيدَ. اختيارُ العطر لا يقلّ أهمِّيَّةً عن اختيار الملابس، لكي نُغويَ الرجلَ الذي نحبُّه. هذا هو العطرُ الذي كنتُ أضع منه في كلِّ مرَّةٍ أواعدُ فيها والدك. كثيرًا ما كنَّا نلتقي في منتزه الورد عند منتصف منحدر التلّ جنوبًا، ولم يكن من السهل اختيارُ عطرٍ يستطيع منافسة عطر الورود. حين كانت الريحُ تُماوجُ شَعري، كنتُ أختلسُ إليه نظرةً. أحاولُ أن أرى هل شمَّ عطري.

كانت أمّي تشعُّ، ما إن تبدأ في الحديث عن العطر.

. في ذلك الزمن، لو تعلمين، كان الجميع يعرفون تمييزَ عطرٍ جيِّد. كانوا يقدِّرونَه حقَّ التقدير. أمَّا الآن، فما عاد الأمرُ ممكنًا. ما عادت العطور تُباعُ في أيِّ مكانٍ. ولا أحدٌ يرغبُ فيها. انتهى المطافُ بالعطر إلى أن اختفى خريفَ السنة التي تزوَّجتُ فيها والدك. احتشد الجميعُ عند ضفَّة النهر. وفتحَ كلّ واحدٍ قارورةَ عطره، وهَرق محتواها في الماء. ولما فرغوا، قرَّبَ بعضهم القارورة من أنفه؛ لكنْ لم يعد بمقدور أحدٍ منهم إدراكُ الرائحة. وباختفاء كلّ عطرٍ، تبدَّدت الذكريات المرتبطة برائحته. كانت قد ذابت في الماء، وما عادت تصلحُ لشيء. وليوميْن أو ثلاثة، ظلَّ النهرُ يفوح برائحةٍ قويَّة، خانقة. ومات قدْرٌ لا بأس به من الأسماك، لكنْ لا أحد اهتمّ بالأمر، إذ إنَّ العطر في جميع الأحوال كان قد اختفى من قلوب الجميع.

تلبَّست أمِّي نظرةٌ حزينةٌ، ثم أجلستني على رُكبتيْها لتجعلني أشتَمُّ عطرها في رقبتها.

سألتني:

. وإذن؟

لم أعرف ماذا أردُّ. كانت بالفعل ثمَّة رائحةٌ. حضورٌ فضفاضٌ، مختلفٌ عن ذاك الذي يصدر عن الخبز المحمَّص أو حوض الغسيل. لكنَّني عبثًا حاولتُ أن أركِّز: لم يستحضر ذهني أيَّ فكرةٍ أخرى.

وكنتُ على صمتي حين قالت أمِّي مطلقةً تنهيدةً قصيرةً:

. لا بأس. بالنسبة إليكِ، ليس هذا سوى القليل من سائل. لا فائدة. من الصعبِ أن يتذكَّرَ المرءُ شيئًا أضاعه على هذه الجزيرة.

ثم أعادت أمِّي الحُقَّ في دُرْجه.

حين دقَّت الساعةُ التاسعة في بندول القبو، كان عليَّ أن أقصد غرفتي لأنام. تناولتْ أمِّي إزميلَها ومطرقتها، وعادت إلى العمل. وعبر نافذة الطابق السفليّ، كان يطلُّ رُبع القمر.

وحين أتت لحظةُ القُبلة المسائيَّة، صار بوسعي أخيرًا أن أطرح السؤال الذي ظلّ يحيِّرني مدَّةً:

ـ ماما، لمَ تتذكَّرين جيِّدًا الأشياء التي اختفت؟ لمَ ما زلتِ تستطيعين شمَّ العطور التي نسيَها الجميع؟

تأمَّلَتِ القمرَ لحظةً من خلال النافذة، ثم مسحتْ بطرف إصبعها بعض ما علق بوزرتها من غُبار الحَجَر.

ـ أفكِّر فيها على الدوام، لو تعلمين!

صار صوتُها أجشَّ بعضَ الشيء.

ـ لكنَّني لا أفهم. لمَ أنتِ الوحيدةُ التي لم تُضِع شيئًا؟ كلّ شيءٍ خالدٌ في ذاكرتك؟...

خفضت عينيْها، كأنَّما هو أمرٌ يدعو إلى الحزن. قبّلتُها مرَّةً أخرى، مواساةً.

٢

ماتت أمّي، ثم لحقها أبي، فوجدتُني أعيش بمفردي في المنزل. ومنذ سنتيْن، ماتت إثر نوبةٍ قلبيَّةٍ المربِّية التي اعتنت بي مُذ كنتُ رضيعةً.

أحسب أنَّ لي أبناء عمٍّ يعيشون بقريةٍ قربَ نبع النهر، هناك، شمالًا فيما وراء الجبال، لكنَّني لم أرَهم أبدًا. وبما أنَّ على تلك الجبال ينمو كثيرٌ من الأشجارِ الشائكة، والضبابُ يغطِّي دائمًا القمَّة، فإنِّي لا أتوغَّل فيها. ثم ما دمنا لم نعرف قطّ للجزيرة خريطةً... فلا أحد يعرف شكلها الفعليّ، ولا السبيل إلى بلوغ الجهة الأخرى من الجبل.

والدي كان عالِمَ طيور. كان يعمل في مرصد الطيور البرِّيَّة على قمَّة التلّ الجنوبيّ. كان يقيم هناك ثُلثَ السنة، ليجمع معطياتٍ، ويلتقط صورًا، ويسهر على تفقيس البيض. كثيرًا ما كنت أذهب

هناك لأمرح، بدعوى حمْلِ الطعام إليه. وكان الباحثون الشبابُ جميعًا لطفاء، كانوا يعطونني بسكويتًا وكاكاو.

جالسةً على ركبتَيْ أبي، كنت أنظر من منظارِه. شكلُ المنقار، لونُ حوافّ العين، طريقةُ فرد الجناحيْن، لم يكن أبي يُفلت أيّ تفصيلٍ قد يمكِّنه من تسمية الطائرِ بِاسمٍ. كان المنظار ثقيلًا جدًّا قياسًا إلى طفلةٍ في سنِّي، حتى إنَّ ذراعيَّ سرعان ما كان يصيبهما الخَدَر. وإذّاك كان والدي يسندهما برفقٍ بيده اليُسرى.

وساعةَ نكون معًا على ذاك النحو، الخدّ على الخدّ، منخرطَيْن في مراقبة الطيور، كانت تنتابني على الدوام الرغبةُ في أن أسأله:

ـ هل تعرفُ ما تحويه الأدراجُ في صِوان أمِّي العتيق؟

لكنْ في اللحظة التي كنت أوشك فيها على أن أسأله، كانت تتراءى لي صورةُ أمِّي وهي ترقبُ رُبع القمر عبر نافذة الطابق السفليّ، أعجز عن صياغة السؤال.

وبدلًا من ذلك، أنقل إليه رسالة أمِّي التافهة: «كُل سريعًا كي لا يفسد الطعام».

وساعة عودتي، كان يرافقني حتى الباص. وفي طريقنا، كنت أفتِّت بسكويتًا ممَّا أُهْديَ إليَّ، عند الموضع الذي تقصده الطيور للطعام.

أسأله:

ـ متى تعود إلى المنزل؟

يقول بارتباكٍ:

ـ السبت، بلا شكّ... بلِّغي تحيَّتي لماما.

مودِّعًا، كان يحرِّك يدَه بقوَّةٍ حتى تكاد تتناثرُ من جيب قميصه الأقلامُ الحمراء، أو الفراجير، أو الأقلام المعلِّمة، أو المساطير، أو الملاقط الصغيرة.

* * *

أحسبُ من حسن الحظّ أنَّ اختفاءَ الطيور لم يحدث إلَّا بعد وفاة أبي. أغلب سكَّان الجزيرة، حتى إن أدَّى اختفاءُ شيءٍ ما إلى فقدانهم وظائفَهم، فإنَّهم سرعان ما يجدون عملًا آخر بغير تعقيداتٍ، لكنْ قطعًا لم يكن الأمر ليحدث مع أبي على هذا النحو. لم يُخلق أبي إلَّا ليمنح الطيورَ أسماءً.

جارنا المقابلُ، صانعُ القبّعات، تحوَّل إلى صناعة المظلَّات. وبدَّلَ زوجُ مربِّيتي عملَه من ميكانيكيّ على العَبَّارة، إلى حارس مستودع. وإحدى زميلاتي بالمدرسة، تكبرني سنًّا، صارت مولِّدة، بعدما كانت مختصَّة في التجميل. لم يعترض أحد. حتى وإن تقلَّص الراتبُ، فلا أحد كان يتحسَّر على عمله السابق. ثم لو أنَّهم أبدوا ممانعةً، لخاطروا بأن ترصدهم شرطةُ الذاكرة.

إنَّ الناس ـ وأنا منهم ـ يسهل عليهم نسيانُ أيِّ شيء. وكأنَّما الجزيرةُ لا يمكن أن تطفو إلَّا على بحرٍ فارغٍ تمامًا.

اختفاء الطيور، كما جميع حالات الاختفاء، حدث فجأةً، ذات صباحٍ.

حين فتحتُ عينيَّ في فراشي، كانت بالجوِّ حَرافَةٌ. وكانت تلك إشارة اختفاء. متلفِّعةً بغطائي، تفحَّصت غرفتي بعناية. موادّ التجميل على منضدة الزينة، مشابك الورق، أوراقُ المفكِّرةِ المتناثرةُ على المكتب، دانتيلَّا الستائر، أرفف الأسطوانات... كان كلّ شيءٍ واردًا. ولكي تجد ما ضاع، ينبغي أن تتحلَّى بالصبر والتركيز.

غادرت فراشي، ووضعت على كتفيّ سترةً، ثم خرجتُ أتقصَّى الحديقة. كان الجيرانُ جميعًا في الخارج ينظرون حولهم، وعلى وجوههم تعبيرُ قلق. وكلبُ المنزل المجاور يَهِرُّ هريرًا مكتومًا.

لمحتُ إذّاك طائرًا صغيرًا بُنِّيًّا يحلِّقُ في السماء. كان محيطُه أَمْيلَ إلى الاستدارة وزغبُ بطنه يخالطُه بياضٌ خفيف.

وفي اللحظة التي كنت أتساءل فيها عمَّا إذا كان ذاك أحد الطيور التي لاحظتُها مع أبي، انتبهت إلى أنَّ كلّ ما كان يتعلَّق بتلك الطيور قد امَّحى من قلبي. اختفت دلالة كلمة «طائر»، وكذلك اختفى ما أحمله لها من مشاعر، وما يجمعني بها من ذكريات. باختصار، اختفى كلُّ شيء.

قال جاري صانع القبَّعات ـ سابقًا: ـ هذه المرَّة، الطيور.

ـ الطيور، لا بأس! ليس ثمَّة الكثير من الناس ممَّن سيفتقدونها. فهي لا تفعل شيئًا سوى التحليق كما يطيب لها في السماء.

لفَّ الرجلُ وشاحه حول عنقه، وعَطَس عطسةً مكتومة. ولا بدَّ أنَّه حين التقت عيناايَ بعينيْه، تذكَّرَ أنَّ والدي كان عالِم طيور، إذ ابتسم لي مُحرَجًا، قبل أن ينصرف إلى أشغاله.

بدا الاطمئنان على الآخرين أيضًا، حين علموا أنَّ الطيور هي ما اختفى. وتفرَّقوا جميعًا إلى أشغالهم الصباحيَّة. وحدي ظلَّت عينايَ معلَّقتيْن بالسماء.

وبعدما رسمَ دائرةً كبيرةً في السماء، ابتعد الطائرُ البنِّيُّ صوبَ الشمال. لم أستطع تذكُّر فصيلته. أسِفتُ لأنِّي لم آخذ على محمل الجدّ بما يكفي حفظَ اسمه، لما أبصرته عبر المنظار صحبة أبي.

وددتُ لو أحفظ في نفسي، على الأقلِّ، طريقته في التحليق، أو زقزقته، أو ألوانَه، لكنْ سدًى. إنَّ الطائر المفترَضَ به أن يكون مُشبعًا بذكرياتي عن أبي، قد صار لا يثير في نفسي أيَّ شعورٍ بالعطف. لم يعد سوى مخلوقٍ حيٍّ يحلِّقُ في الفضاء بفضل جناحيْن يتحرَّكان رأسيًّا.

وفي طريقي إلى السوق عند الظهيرة، صادفتُ أُناسًا مجتمعين هنا وهناك، وفي أيديهم أقفاصٌ. وداخل الأقفاص، كانت ببّغاواتٌ

وعصافيرُ جاوة، وطيور كاناري تتقافزُ كأنَّما استشعرت وقوعَ شيءٍ. أمَّا أصحابها فكانوا جميعًا صامتين مذهولين، كأنَّما لم يعتادوا بعدُ هذا الاختفاءَ.

كان كلّ واحدٍ منهم يودِّع طائره بطريقته الخاصَّة: بعضهم يناديه باسمه، وبعضهم يحكّ خدَّه بخدِّه، وآخرون يطعمونها من الفم إلى المنقار. وما إن انتهت مراسيم الوداع حتى فتحوا جميعًا أبوابَ أقفاصهم مُستقبلةً السماءَ. في البداية، ظلَّت الطيور قلقةً تحوم حول أصحابها، لكنْ ما لبثت أن طلبَتِ العُلوَّ، وانتهى بها المطافُ إلى أن اختفت.

ولما غادرت الطيور الصغيرةُ جميعًا، صار المكانُ هادئًا كأنَّما الجوُّ يلتقط أنفاسَه. وعاد أصحاب الطيور إلى منازلهم بأقفاص خاوية.

كذلك كان اختفاءُ الطيور.

* * *

غِبَّ ذلك، حدث أمرٌ مذهلٌ.

بينما كنتُ أفطرُ وأنا أشاهدُ التلفازَ، قُرِع جرسُ الباب. ومن شدَّة القَرْعِ أدركتُ أنَّ الأمرَ خطيرٌ.

- خُذينا إلى مكتب والدك.

بباب المنزل، كانت شرطةُ الذاكرة. كانوا خمسةً في المحصِّلة. يرتدون ستراتٍ وسراويلَ خضراء داكنة، مع أحزمةٍ عريضةٍ وأحذيةٍ طويلةٍ سوداء، وقفَّازاتٍ سوداء، وأسلحتهم نصف مخفيَّةٍ في تجاويف خصورهم. كانوا متشابهين. بدا لي أنَّ وحدها الشّاراتُ الثلاثُ المتباينةُ الأحجام، التي يضعها كلّ واحدٍ منهم على ياقته، كانت مختلفةً، لكنَّني لم أُمهَل الوقت لتفحُّص ذلك.

- خُذينا إلى مكتب والدك.

كَرَّر الأمرَ بالنبرة نفسها الرجلُ الذي كان يرأسُهم، وعلى كتفه ثلاثُ شاراتٍ، واحدةٌ في شكلِ ماسةٍ، وأخرى كحبَّة فاصوليا، والثالثة في شكل شبه منحرف.

أجبتهم ببطءٍ حفاظًا على هدوئي:

ـ أبي توفِّي منذ خمس سنوات.

أجاب صاحب الشارات على هيئة وتدٍ، وسُداسيٍّ، وحرف T .

ـ نعلم ذلك.

ثم، كأنَّما تلقُّوا إشارةً، اقتحم الرجالُ الثلاثة المنزل من غير أن ينزعوا أحذيتهم.

امتلأ البهو فجأةً بضجيج خمسة أزواجٍ من الأحذية الطويلة، وقعقعة الأسلحة وهي تتصادم بينها.

- للتوّ نظّفنا البساط، انزعوا أحذيتكم من فضلكم.

كنت أعرف أنَّه كان ينبغي عليَّ قول شيءٍ أشدّ أهمِّيَّةً، لكنَّ ذهني لم يستحضر إلَّا تلك الجملة البليدة. على أيِّ حالٍ، كانوا قد شرعوا في ارتقاء الدرج المفضي إلى الطابق، وقد تجاهلوني كلّ التجاهل.

أحسب أنَّهم يعرفون تصميم المنزل حقَّ المعرفة. بلغوا، بلا تردُّد، مكتب والدي الواقع جهة الشرق، وانخرطوا على الفور في العمل بمهارةٍ لافتة.

بدْءًا، فتح أحدُهم النوافذ التي ظلَّت مغلقةً منذ وفاة والدي، بينما آخرُ يكسرُ أقفال الخزانة وأدراج المكتب بواسطة أداةٍ طويلةٍ ودقيقةٍ تُشبه مِشرطًا، بينما يجوسُ باقي أعضاء الفرقة الجدرانَ باحثين عن خزنةٍ سرِّيَّة.

ثم جعلوا جميعًا يفلُون الكتابات والتدوينات، والمسوّدات، والكتب والصور التي خلّفها والدي. وكلّما اكتشفوا شيئًا ما يعتبرونه خطيرًا ـ تحديدًا كلّما وجدوا كلمة «طائر» ـ يرمونه بفظاظةٍ أرضًا. وكنت أنا أتابعهم يعملون، مستندةً إلى هيكل الباب، أحرِّك مقبضَه.

الحقّ أنَّهم، مثلما قيل لي، متمرِّسون. كانوا يحترمون المهمَّة التي اقتسموها بأكثر الطُّرُق عقلانيَّة، بحيث يشتغلون خمستهم، صامتين، بنظراتٍ حادَّةٍ، وبغير حركةٍ زائدةٍ. وحده صوتُ تكرُّش الأوراق كان متواصلًا كأنَّه حفيفُ أجنحةٍ!

وفي رمشةِ عينٍ، تشكَّلت على الأرض كومةٌ من أوارق. تقريبًا كلّ ما في تلك الغرفة كان يتعلَّق بالطيور. الأوراق الممتلئةُ بالكتابة المألوفة عندي التي خطَّتها يدُ والدي من أسفل إلى أعلى(1) ، والصورُ التي التقطها أيَّامَ إقامته بالمرصد، كلّها كانت تسقط من بين أيديهم مرفرِفةً.

صحيحٌ أنَّ عملهم كان فوضويًّا، لكنَّ طريقتهم في الاشتغال كانت من الرهافة بحيث توهمُ بأنَّهم يقومون بعملٍ منظَّم. فكَّرتُ في أنَّ الوقت قد حانَ لأُبديَ اعتراضًا، لكنَّ قلبي كان يخفق بعنفٍ، وما كنت أدري ما أفعل.

قلتُ محاولةً:

ـ قليلًا من العناية رجاءً!

لكنَّ محاولتي ذهبت سدًى.

ـ هذا كلّ ما بقي لي من أبي.

لم يُولني أحدٌ منهم حتى التفاتةً. ضاع صوتي في كومة الذكريات المتراكمة.

وضع أحدُهم يَده على الدُّرج الأخير أسفل المكتب.

هُرعتُ إليه صائحةً:

ـ إنَّ الأشياء الموجودة هنا لا علاقة لها بالطيور.

هناك كان أبي يحفظ رسائلنا وصورنا العائليَّة. من دون أن يُعير كلامي اهتمامًا، فتحَ الدُّرجَ الرجلُ الذي كانت على ياقته شاراتٌ في شكل دائرتيْن متراكزتيْن، ومستطيل، ودمعة، وواصلَ عمَله. انتزعوا صورةً واحدةً فقط، كنّا قد التقطناها معًا، تصوِّرُ طائرًا نادرًا زاهيَ الألوان ـ لا أذكر اسمَه ـ سهر أبي على تفقيس بيضته صناعيًّا. لَمَّ الرجلُ بعنايةٍ على المكتب الصورَ والرسائل الباقية، ثم أعادها إلى موضعها بدُرْج المكتب. كان ذاك الفعلَ الوحيدَ الخيِّرَ الذي أقدمت عليه شرطةُ الذاكرة يومها.

حين فرغوا من فَرز كلِّ شيء، حشروا كلّ ما تبقَّى على الأرض في أكياس بلاستيك سوداءِ أخرجوها من جيوب ستراتهم الداخليَّة. ومن طريقتهم في حشر كلّ شيءٍ بفوضويَّةٍ في الأكياس، عرفتُ أنَّهم ينوون رميَه. لم يضطرُّوا إلى المجيء هنا لأسبابٍ خطيرة، وإنَّما

فقط أتوا يتخلَّصون من كلّ ما يرتبط بذكرى الطيور. ذاك أنَّ أولى مهامّ شرطة الذاكرة، الحرص على إرساء الاختفاءات.

فكَّرتُ في أنَّ عمليَّتهم تلك كانت أبسط من الملابسات التي جعلتهم يعتقلون أمِّي. وإن كانوا قد أخذوا في أكياسهم كلّ ما يريدونه، فلا شكَّ في أنَّهم لن يعودوا. وبما أنَّ والدي كان قد مات، فإنَّ ذكرى الطيور التي كانت ما تزالُ تحوم في المنزل أخذت تتبدَّد تدريجيًّا.

أنهوا عملهم في نحو ساعةٍ، وكانت الحصيلةُ عشرةَ أكياسٍ ممتلئة. وكان الجوّ تقريبًا حارًّا في الغرفة التي تقتحمها أشعَّة الشمس الصباحيَّة. وشاراتٌ صقيلةٌ تلمع في ياقات الرجال. لكنْ لا أحدٌ منهم كان يتعرَّقُ أو يُبدي أدنى أثرٍ للإجهاد.

حمل كلٌّ منهم كيسيْن على كتفيْه، وقصدوا الشاحنة المركونة بالخارج.

في ساعةٍ تغيَّر مظهرُ الغرفة. ذاك الشعور بحضور أبي، الذي حافظتُ عليه بعناية، كان قد اختفى، مُخليًا مكانه لتجويفٍ يستحيل ملؤه. وقفتُ في مركزه. كان من العمق بحيث انتابني الإحساس بأنَّني أُشفَطُ صوبَ نقطةٍ غائرة.

(١) نظام الخطّ الياباني.

٣

اليومَ، أعيشُ ممَّا أكتبه من رواياتٍ. حتى الآن نشرتُ ثلاثة كتب. أوَّلها قصَّةُ مُدَوزِنِ آلاتٍ موسيقيَّة، يهيم بين صالات الحفلات ومتاجر الآلات الموسيقيَّة، متوكِّلًا على ما بقي في أذنه من رنَّةٍ موسيقيَّة، محاولًا العثور على عازفة البيانو التي اختفت، وكان مغرمًا بها. والثاني قصَّةُ بالرينا فقدت قدمها اليمنى في حادث، وتعيشُ في دفيئةٍ مع عالِمِ نباتاتٍ تحبّه. والثالث عن أختٍ كُبرى تسهر على أخيها الصغير الذي تتفكَّك كروموسوماته واحدًا بعد آخر.

إنَّها رواياتٌ يختفي فيها جميعًا شيءٌ ما. الجميعُ يعجبه هذا النوع من القصص.

لكنْ على الجزيرة، كتابةُ الروايات هي المهنةُ الأشدّ كآبةً وعزلة. يصعب القول إنَّ الكتب كثيرةٌ هنا. المكتبة المجاورة لمنتزه الورد ما هي إلَّا كوخٌ خشبيٌّ لا يُصادف المرء فيه أكثر من شخصيْن أو

ثلاثة، أيًّا كان الوقت من النهار. كتبٌ تهالكت حتى صارت توشك أن تتفتَّت غبارًا إن أقدم على فتحها أحدٌ، ترقدُ في زوايا الأرفف القصيَّة، ولا أحد يهتمّ بها.

سينتهي المطافُ بتلك الكتب في القمامة من دون أن تُجدَّدَ. لذلك لا يزدادُ عدد المجموعات بالمكتبة. لكنْ لا أحدٌ يهتمّ.

الأمر نفسه ينسحبُ على متاجر الكتب. في الأزقَّة التجاريَّة، لن تصادف مكانًا أفرَغ من متجر كتب. بائعُ الكتب، غير الودود، يبدو عليلًا، وأغلفةُ الكتب التي لم تُبَع تذوي بلا هوادة.

قلائلُ هنا من يحتاجون إلى الروايات.

عامَّةً، أجلسُ مواجهةً الورقَ من الثانية زوالًا حتى منتصف الليل تقريبًا. لكنَّني لا أستطيع أن أكتبَ أكثرَ من خمس صفحاتٍ من القطع العاديّ، نحو أربعمائة حرف، في اليوم. أحبُّ أن أملأ

مربَّعات الورقة على مَهَل. لا شيء يُجبرني على العَجَلة. آخذ وقتي الكافي لأختار الكلمة الملائمة لكلِّ مربَّع.

مكانُ عملي هو غرفةُ أبي سابقًا. لكنَّها، مقارنةً بالفترة التي كان يستغلّها فيها هو، تبدو اليوم أشدَّ تنظيمًا. ذاك أنَّ رواياتي لا تحتاجُ وثائقَ وتدوينات. على المكتب لا يوجد إلَّا ماعون من الأوراق، وقلمُ رصاصٍ، وشفرةٌ صغيرةٌ أبريه بها، وممحاةٌ. بذلتُ كلَّ الجهدِ، لكنِّي عجزتُ عن ملءِ الفراغ الذي خلَّفته شرطةُ الذاكرة.

مساءً، أخرج لأتنزَّه ما يقاربُ ساعةً. أمشي في الطريق الساحليَّة حتى أبلغ الرصيف حيث ترسو العبَّارة، فأسلك الدربَ عند سفح التلال، الدربَ الذي يخترق مرصد الطيور.

إنَّ العبَّارة التي طال بها الرسوُّ في الميناءِ قد اكتسحها الصدأ. لا أحد يستطيع أن يركبها ليقصدَ مكانًا ما. العبَّارةُ أيضًا من الأشياء التي اختفت من الجزيرة.

كان اسمها مرسومًا بالصباغة على بدنها، لكنَّ هواء البحر كشطه، وما عاد بالإمكان الآن قراءتُه. الزجاج علاه الغبار، والطحالبُ والأصدافُ قد غطَّت قعرَ الصهريج، والمرساةَ، والسلسلة، والمروحة الدائرة. تبدو العبَّارةُ كأنَّها وحشٌ بحريٌّ في طور التحوُّل إلى أحفورة.

كان زوج مربِّيتي فيما مضى ميكانيكيًّا على العبَّارة. وبعد اختفاءِ المراكب، صار يعملُ حارسَ مستودعاتٍ في الميناء؛ واليوم، هو متقاعدٌ ويسكن بمفرده على متن العبَّارة. أثناء نُزهتي، أعرِّجُ عليه لكي أثرثر معه برهةً.

يسألني وهو يقدِّم إليَّ مقعدًا:

. كيف الحال؟ هل تتقدَّمين في روايتك؟

وبما أنَّ كلّ مقاعد العبَّارة طوعُ أمرنا، ولنا أن نختار ما نشاءُ منها، بحسب الطقس ومزاجنا، فيحدثُ أن نتَّخذ موضعنا على

أحد مقاعد جسر المركب، أو نستقرّ على أرائكِ مقصورةٍ من مقصورات الدرجة الأولى.

أجبته:

ـ إنَّها تتقدَّم، لكنْ ببطء.

لا ينسى أن يقول لي في كلِّ مرَّة:

ـ على أيِّ حالٍ، ينبغي أن تهتمِّي لنفسك.

ثم يُضيف لنفسه وهو يهزّ رأسه:

ـ ليس بمُكنة أيٍّ كان أن يظلَّ جالسًا إلى مكتبه طيلةَ النهار، يتخيَّلُ في ذهنه أشياء معقَّدة. لو كان أبواكِ على قيد الحياة، لكانا فخوريْن بكِ.

ـ ليست الروايةُ شيئًا خارقًا إلى هذه الدرجة. أحسبُ أنَّ تفكيك محرِّك العبَّارة، وتغيير قِطَعِه، ثم إعادة تركيبه، أمرٌ أشقُّ وأعجبُ.

ـ كلَّا، كلَّا. بما أنَّ المراكب قد اختفت، فلا قيمة لذلك.

وهنا، خيَّم بيننا الصمتُ برهةً.

ـ آه، اليوم حصلتُ على خوْخٍ ممتاز. سأحضِّره لكِ.

ثم دخل المطبخ الصغير المجاور لصالة المكنات. وضع قِطَعَ الخوخ على فرشةٍ من ثلجٍ في طبقٍ، وزيَّنها بأوراق النعناع، ثم أعدَّ إبريقًا كبيرًا من الشاي. إنَّه حقًّا بارعٌ في إصلاح الآلات، وتحضير الأطعمة والنباتات.

إليه في المقام الأوَّل أحرصُ على إهداء نسخةٍ من الروايات التي كتبتُها حتى الآن.

يقول لي:

«ـ آه.. هذه إحدى روايات الآنسة؟» ناطقًا كلمة «روايات» بعنايةٍ وحذر.

ثم يحني رأسَه عميقًا، وبين يديْه المؤلَّفُ كأنَّما يمسكُ قربانًا مقدَّسًا.

ـ أنا ممتنٌّ. حقًّا ممتنٌّ.

صوتُه يُشحن بالشهقات، تدريجيًّا، بينما يردِّد عبارات الشكر، ملقيًا بي في غياهب الإحراج.

لكنَّه لم يقرأ قطُّ صفحةً.

حين أسأله رأيَه، يجيبني:
ـ مستحيلٌ بالمطلق. فإن قرأتُ الكتاب من أقصاه إلى أقصاه، سوف أنهيه. أليس كذلك؟ لا أريد أن أنخرط في تبديدٍ مماثل. أريد أن أحفظه بقربي هكذا، إلى نهاية العمر.

وفي مقصورة القبطان، كان يشبك ذراعيْه المتغضِّنتيْن أمام المذبح الذي نُصب لآلهة البحر، حيثُ وضع الكتابَ.

نتحدَّث في كلِّ شيءٍ بينما نتناول اللُّمجة(2) . في الغالب الأعمّ، يكون مدارُ حديثنا الذكريات: أبي، أمِّي، مربِّيتي، مرصد الطيور، النحت، الزمن الماضي الذي كان بوسعنا فيه أن ننتقل إلى أماكنَ أخرى على متن العبَّارة... بيد أنَّ ذكرياتنا لم تكن تزدادُ إلَّا نقصًا يومًا عن يوم، لأنَّ كلّ اختفاءٍ إلَّا ويحملُ معه قدْرًا منها. نتشاركُ ما بقي من لُمجةٍ، ونردِّدُ القصصَ نفسها تاركينها تذوب في شفتيْنا على مَهَلٍ.

وحين تجنحُ الشمسُ الغاربةُ نحو البحر، أنزل إلى البرِّ. وعلى الرَّغم من أنَّ الممشى ليس شديد الانحدار، إلَّا أنَّه كان يمسكني من يدي. كان يتصرَّف معي كأنَّني طفلةٌ صغيرة.

ـ انتبهي لنفسك في طريق العودة.

ـ حاضر. إلى الغد.

يظلُّ مسمَّرًا في مكانه يراقبني حتى أختفي عن ناظريْه.

بعد الميناء، أمرّ من أمام المرصد على قمَّة التلِّ. لكنَّني لا أُبطئُ هناك البتَّة. أهيم بنظري على البحر، وأعبُّ الهواء عميقًا مرَّاتٍ عديدة، قبل أن أعودَ من فوري.

مرَّت شرطة الذاكرة من هنا، مثلما مرَّت من غرفة أبي، فخلَّفت المكانَ خرابًا. لا شيء يدلُّ هنا على أنَّ المكان كان فيما مضى مركزًا لعلم الطيور. تفرَّقَ الباحثون.

حين أقف عند النافذة التي كنتُ أنظر منها عبر منظار أبي، ما تزالُ بعض الطيور الصغيرة تأتي من حينٍ إلى آخر، لكنَّها لا تأتي إلَّا لكي تبيِّن لي أنَّها ما عادت تعني لي شيئًا.

بينما أعبر المدينة بعد نزولي من التلّ، تغربُ الشمسُ سريعًا. مساءً تكون الجزيرة في أقصى حالات هدوئها. الناسُ العائدون من

أعمالهم، يمشون حاسري الرؤوس، والأطفال يعودون إلى بيوتهم راكضين، وشاحنة البائع الجائل، وقد باع كلَّ شيء، تتجاوزني مطلقةً قعقعةً من خُردة محرِّكها المتآكل.

يبسطُ الهدوء يديْه على الأرجاء، كأنَّما الجزيرةُ تتهيَّأ لأن تشهد اختفاءً جديدًا قد يحدُث في اليوم التالي.

هكذا تدنو الجزيرةُ من الليل.

(2) ما يُتعلَّل به من طعامٍ بين الغداء والعشاء.

٤

ظُهر الأربعاء، في طريقي لكي أضع المخطوط عند الناشر، التقيتُ ملاحقي الذكريات. هذه ثالثُ مرَّةٍ ألتقيهم فيها منذ بداية الشهر.

يومًا بعد آخرَ تصيرُ طرائقهُم أشدَّ تسلُّطًا وقسوةً. يخطر ببالي أنَّ بدايات ظهور ملاحقي الذكريات تعود إلى خمس عشرة سنةً خلت، تحديدًا عقب اقتياد أمِّي من طرف شرطة الذاكرة. ما انفكّ عددُ الأفراد ممَّن على شاكلة أمِّي، لم يفقدوا ذكرياتهم، يزدادُ اطِّرادًا؛ وانتهى المطافُ بشرطة الذاكرة إلى اعتقالهم جميعًا.

لحظةَ نزلتُ من الحافلة، ووقفت أنتظر إشارة المرور لأعبر الطريق، وصلتْ ثلاثٌ من شاحناتهم الخضراء الداكنة إلى مفترق الطرق، واحدةً خلف أخرى. خفَّفتْ باقي المركباتُ السرعةَ، والتزمتْ جانبَ الطريق مفسحةً للشاحنات السبيل. رُكنت الشاحناتُ أمام

عمارةٍ متعدِّدة الاستعمال، تأوي عيادةَ طبيب أسنان، وشركة تأمين، واستوديو رقص، ثم دخل العمارةَ عشرةٌ من شرطة الذاكرة بخطًى سريعة.

كان الناس في تلك الأنحاء صامتين. لا بل إنَّ بعضهم قد توارى في الأزقَّة الفرعيَّة. كان الجميع يرتجفُون، راجين أن ينتهي في أسرع وقتٍ المشهدُ المعروض أمام أعينهم، قبل أن تطولَهم تداعياتُه. غير أنَّ الجوّ العامّ الذي يغلِّف الشاحنات كان ساكنًا وصامتًا، كأنَّما هي تقفُ في عين إعصارٍ زمنيٍّ.

ضامَّةً مخطوطي إلى صدري، وقفت جامدةً منزويةً في ظلِّ عمود نور. انتقلتْ إشارة المرور من الأخضر إلى البرتقاليّ، ثم إلى الأحمر، قبل أن تعود إلى الأخضر. لم يعبر ممرّ الراجلين أحدٌ. ركَّابُ الترامواي يتأمَّلون المشهد من النوافذ. لم أنتبه إلى أنَّ مخطوطي قد تكرَّش تمامًا.

برهةً بعد ذلك، سمعنا وقعَ خطواتٍ ثقيلًا. كان وقعَ أحذيةِ شرطة الذاكرة الطويلةِ؛ وقعَها المهيب والمنتظم، وقد انضافَ إليه وقعُ أحذيةٍ أخرى واهنةٍ مرهقة. أناسٌ خرجوا من باب العمارة، واحدًا في إثر آخر.

سيِّدان في منتصف العمر، وسيِّدةٌ في الثلاثين من عمرها ـ شعرها مصبوغٌ بالكستنائيّ، ومراهقةٌ نحيلة. وعلى الرَّغم من أنَّ موسم ريح الشمال لم يحِن بعدُ، إلَّا أنَّهم كانوا أربعتُهم يرتدون قمصانًا عديدةً، قميصًا من فوق قميص، ومعاطفَ وشالاتٍ وإيشارباتٍ حول العنق. وفضلًا عن ذلك، كانوا يحملون بُقجاتٍ منفوخةً، وحقائبَ سفرٍ ممتلئةً. كان يبدو أنَّهم قد أُرغموا على أن يحملوا معهم كلّ ما يمكن أن ينفعهم.

ومن منظر الأزرار التي لم تُغلق، وأطراف الملابس الخارجة من الحقائب، والأحذية التي لم تُعقد سيورُها، كان واضحًا أنَّهم لم يُمنحوا الوقت لتحضير أمتعتهم أو توضيبها. كانت أسلحةٌ مسدَّدةٌ

نحوَ ظهورهم، لكنْ لم يبدُ عليهم الفزع. كانوا يواصلون التحديق في البعيد، بمُقَل هادئةٍ هدوءَ بحيرةٍ مهجورةٍ في عمق غابة. وفي قعر تلك المقَل، يتوارى كمٌّ من ذكرياتٍ لا علمَ لنا بها.

وكالمعتاد، أتمّ رجالُ شرطة الذاكرة، بالشارات البرّاقة في ياقاتهم، العمليَّةَ كما ينبغي، أيْ من دون هدرٍ للوقت. مرُّوا أربعتهم من أمامنا. انتابني الانطباع بأنّي قد شممتُ رائحةَ معقّمٍ مكتومة. ربَّما اعتُقل شخصٌ من عيادة الأسنان.

أُصعِدَ المعتقلون واحدًا تلو آخر إلى الشاحنة. وطيلة تلك المدَّة، لم تفارق البنادقُ ظهورَهم لحظةً. الفتاةُ التي كانت في مؤخّرة الموقوفين، ألقت إلى الشاحنة أوَّلًا بمحفظتها البرتقاليَّة المزيَّنة بصورة دبٍّ صغيرٍ، قبل أن تحاول الصعود، لكنْ كان واضحًا أنَّ الشاحنة شديدة الارتفاع بالنسبة إليها. انقلبت على ظهرها.

صحتُ، وأفلتُّ الظرْفَ من يدي. تناثرت أوراقُ مخطوطي على الرصيف. استدار الناس نحوي بنظراتٍ عاتبة. كانوا جميعًا يخشونَ تصرُّفًا غير لائقٍ تغتنمُه شرطةُ الذاكرة لتزعجهم.

ساعدني الفتى الواقفُ بجانبي في لمّ أوراقي. بعض الأوراق سقط في بِرك ماءٍ فتبلَّل، وبعضها الآخر داسهُ السابلةُ، لكنَّنا لممناها جميعًا على الرَّغم من ذلك.

همس في أذني:
- هل أوراقك كلّها هنا؟

أومأت برأسي موافقة، وأنا أرمقه بنظرةٍ مفعمةٍ بالامتنان.

على أنَّ الحادث الذي تسبَّبتُ فيه لم يؤثِّر البتَّة في عمل رجال شرطة الذاكرة. لا أحدٌ منهم نظرَ ناحيتي.

مدّ شرطيٌّ على متن الشاحنة يدَه إلى الفتاة كي يرفعها. تنُّورتها تكشف عن ركبتيْها الصغيرتيْن القاسيتيْن اللتيْن ما تزالان تحملان آثار الطفولة. أنزلَ رجالُ الشرطة ستارَ الشاحنة، وأُديرَ المحرِّكُ.

على الرَّغم من رحيلهم، إلَّا أنَّ الزمان صَعُبَ عليه أن يستعيد مجراه الطبيعيّ. ابتعد هدير المحرِّكات، انصرفت الشاحنات، تحرَّك الترامواي، وأيقنت أنَّ الخطرَ قد زال، إذ اختفى ملاحقو الذكريات. بدأ الناس يتحرَّكون في كلِّ اتِّجاه منصرفين إلى مشاغلهم. عبَر الفتى ممرَّ الراجلين.

محدِّقةً في باب البناية المغلق، كنتُ أتساءَل: أيَّ إحساسٍ خلّفَتْه في نفس الطفلةِ يدُ الشرطيّ؟

* * *

قلت لـ ر، ناشري، في بهوِ دار النشر:

ـ لقد شهدتُ شيئًا فظيعًا في طريقي إلى هنا.

ـ ملاحقي ذكريات؟...

أشعل ر سيجارةً.

ـ أجل. يبدو أنَّهم عادوا للعمل مؤخّرًا.

ـ هذا وضعٌ لا نستطيع حياله شيئًا.

نفث دخان سيجارته على مَهَلٍ.

ـ لكنْ، هؤلاءِ الذي صادفتُهم اليومَ لا يشبهون ما اعتدنا عليه. لقد اقتحموا في عزِّ النّهار عمارةً وسط المدينة، فاعتقلوا أربعةَ أشخاصٍ دفعةً واحدة. كلّ من رأيتهم حتى اليوم، كانوا يأتون ليلًا،

يقصدون أحياءً سكنيَّة، ولا يعتقلون أكثر من شخصٍ واحدٍ كلَّ مرَّة.

ـ لا بدَّ من أنَّ أولئك الأربعة كانوا مختفين في مخبأ.

ـ مخبأ؟

بعد أن كرَّرت هذه الكلمة التي لم تكن مألوفةً عندي، صمتُّ فورًا. قيل لي إنَّ الأسلم عدم الخوض علانيةً في هذه الأمور الحسَّاسة. إذ يمكن أن يكون ثمَّة رجالٌ من شرطة الذاكرة متنكِّرين في زيٍّ مدنيّ. تسري في الجزيرة الكثير من الشائعات حولهم.

كان البهو خاليًا. وباستثناء ثلاثة رجالٍ في بذلاتٍ، يخوضون نقاشًا عاصفًا حول ملفٍّ سَميكٍ، كانت امرأةٌ واحدةٌ جالسةً في الاستقبال، يبدو عليها الضجر.

. أظنّ أنّهم قد حوّلوا موضعًا ما بالعمارة إلى مخبأ. لا وسيلة لديهم يحمون بها أنفسهم إلّا هذه! يبدو أنّ ثمّة منظّمةً سرّيّةً متخصّصةً في دعمهم وتوفيرِ مخابئَ لهم. يتوسّلون بمعارفهم جميعًا، لكي يجدوا أماكن آمنة، ويوفّروا المؤن والنقود. لكنْ ما دامت شرطة الذاكرة قد بدأت تقتحم هذه الأماكن، فمعنى ذلك أنّه لم يعد ثمّة من مكانٍ آمنٍ...

كان يبدو أنّ ر يريد أن يضيفَ شيئًا، لكنّه مدّ أصابعه إلى فنجان القهوة، ثم أدار عينيْه شطرَ البهو الداخليّ، فلزمَ الصمت.

في الردهة، كانت نافورةٌ صغيرةٌ محاطةٌ بلبناتٍ. نافورةٌ بسيطةٌ، ليس بها أيّ ميكانيزم مميّز. وحين كانت المحادثة تتوقّف، كان يتناهى إلى الأسماع صوتُ الماء عبر الزجاج. كان الأمرُ أشبهَ بهمسٍ عذبٍ تطلقه آلةٌ وتريّةٌ من بعيدٍ.

* * *

استعدت الحديث وأنا أنظر إليه بينما يتأمَّل النافورة:

ـ منذ زمنٍ وأنا أسأل نفسي هذا السؤال: كيف لشرطة الذاكرة أن تكشفَ أمرَهم؟ أقصد أولئك الذين لا تُحدث فيهم الاختفاءاتُ أثرها. لا أظنّ أنَّ ثمَّة نقاطًا مشتركةً بينهم من حيث المظهر. فهُم عيِّنةٌ غير متجانسة: من كلِّ جنسٍ وسنٍّ، ووظائفُهم وأسرُهم مختلفة. فلو أنَّهم احتاطوا، ولم يختلطوا بغيرهم، لاستطاعوا بسهولةٍ أن يعيشوا من دون أن يُكتشفَ أمرُهم؟ لا أظنُّ أنَّ من الصعب عليهم أن يتظاهروا بأنَّ الاختفاءات قد امتدَّت حتى وعيهم.

فكَّر برهةً، ثم قال:

ـ كلَّا، أتساءلُ... عمَّا إذا كان الأمر بالسهولة التي نتصوَّرها. إنَّ الوعي مغلَّفٌ بطبقةٍ من اللاوعي تفوقه قوَّةً بعشرة أضعافٍ. لذا ليس من السهل على المرء أن يتظاهرَ. إنَّهم لا يستطيعون حتى أن يتصوَّروا ما يعنيه اختفاءٌ. وإلَّا لما كانوا ليلتجئوا إلى مخابئ.

. أجل، أنت محقّ.

. تروِّج أيضًا شائعةٌ مفادُها أنَّ بالإمكان عبر تحليل الجِينات، معرفة من يمتلكون حالة وعيٍ مميَّزة. يُقال إنَّ تقنيِّين في تحليل الجينات يكوِّنون سرًّا في مختبراتٍ جامعيَّة.

. «تحليل» الجينات؟

. نعم. فحتى لو لم تكن بينهم نقاطٌ مشتركةٌ على مستوى المظهر، فالإمكان الوقوفُ على ما يجمعهم من مميِّزاتٍ عبر الرجوعِ إلى جيناتهم، وتحليلها تحليلًا معمَّقًا. ومن ملاحظة السلوك الصارم لملاحقي الذكريات مؤخّرًا، فيمكننا افتراض أنَّ الأبحاث قد تقدَّمت نسبيًّا.

سألته:

. لكن كيف يحصلون على الجينات؟

ـ شربتِ للتوّ قهوةً في هذا الفنجان، أليس كذلك؟

رفع ر، فنجاني إلى مستوى نظري، بعدما سحق عقب سيجارته في المنفضة. كانت أصابعه قريبةً منّي لدرجة أنّي كنت أستطيع أن أنفخ فيها. هززتُ رأسي زامَّةً شفتيَّ.

ـ بالنسبة إلى شرطة الذاكرة، لا أسهل من أخذ هذا الفنجان، واستخلاص اللعاب منه، ثم تحليل الجينات انطلاقًا من اللعاب. إنَّهم يتسلَّلون إلى كلِّ مكانٍ. ربَّما يصلون حتى الغرف في دور النشر حيثُ نغلي الماء لنعدَّ الشاي. إنَّ سكَّانَ الجزيرة كلَّهم، يحلَّلون، في غفلةٍ منهم، ويحوَّلون إلى معطياتٍ مسجَّلة. وإن لم يكن لي علمٌ بمدى تقدُّمهم في أبحاثهم. مهما احتاط الواحدُ منَّا، فلا بدَّ من أن يترك هنا أو هناك جزيئاتٍ من جسده، وبالتالي من جيناته. شَعرٌ، أو عرقٌ، أو أظافر، أو جلدٌ، أو دموعٌ... أيُّ شيءٍ يسقط عن أجسادنا. لذلك لا مفرَّ.

ببطءٍ، وضع الفنجان على الصحن، ونظرته مسمَّرةٌ في القهوة التي ما تزالُ تملأه إلى النصف.

لم نكن قد انتبهنا إلى أنَّ الرجال جوارَ شُجَيْرة التين قد أنهوا محادثتهم وانصرفوا. وقد خلَّفوا وراءهم ثلاثة فناجين قهوة. وكانت فتاةُ الاستقبال، بوجهٍ يخلو من أيِّ تعبيرٍ، قد شرعت في جمع الفناجين على صينيَّةٍ.

انتظرتُ إلى أن انصرفَتْ، ثم قلتُ:

ـ لكنْ، مع ذلك... لِمَ يأخذونهم؟ لم يرتكبوا أيّ جرم...

ـ بحسب وجهة النظر المسيطرة: في هذه الجزيرة، حيث يُفترض أن تختفي الأشياء كلّها، شيئًا بعد شيء، فإنَّ الأشياء التي لا تختفي، لا بدَّ من أن تبدو شاذَّةً وعبثيَّة. لذلك يحرصون على جعلها تختفي بأيديهم.

ـ هل تظنُّ أنَّ أمِّي قُتلت؟

كنت أعرف أنَّه سؤالٌ بليدٌ، لكنَّه قد خرج من شفتيَّ.

أجابني حريصًا على انتقاء كلماته:
ـ مؤكَّدٌ أنَّهم قد تحرُّوا عنها، وأنَّها كانت موضوعَ بحث.

خيَّم الصمتُ برهةً. ما عدتُ أسمع إلَّا ماءَ النافورة. كان الظرف المكرمش موضوعًا بيننا. سحبه إليه، وأخرج منه المخطوط.

قال وهو يمسح حبيبات الغبار عن الأوراق كأنَّما يداعب شيئًا عزيزًا:
ـ غريبٌ أن يستطيع المرء، في هذه الجزيرة حيث كلّ شيءٍ إلى زوال، أن يصنع شيئًا بالكلمات فقط!

انتبهتُ إذّاك إلى أنَّنا كنَّا نفكِّر على النحو نفسه. عيناي في عينيْه، شعرتُ مجدَّدًا بالقلق الذي غرس جذوره في قلبيْنا منذ مدَّةٍ غير يسيرة. كان النور المنعكس من ماء النافورة يُضيءُ وجهَ ر. وخوفًا من أن يتحقَّق ما أفكِّر فيه، إن أنا بحتُ به بأعلى صوتي، همستُ في نفسي:

«فإن اختفت الكلمات، ما الذي سيحدث؟»

٥

مرَّ الخريفُ سريعًا. بدأ هديرُ الأمواج يرتفع صاخبًا بلا هوادة، بينما الريحُ الموسميَّة آتيةٌ ممَّا وراء الجبالِ حاملةً غيوم الشتاء.

أتى الجدُّ، ساكنُ العبَّارة، يعينني في الاستعدادات للشتاء: تنظيفُ الموقد، وصيانة قنوات الماء، وحرق الأوراق الميِّتة.

قال وهو يعلِّقُ بصلًا في سقف المخزن بالفِناءِ الخلفيّ:

ـ لم يسقط الثلجُ منذ عشر سنواتٍ، لكنَّنا قد نشهد سقوطَه هذه السنة. الثلج يسقط في السنوات التي يصير فيها قشرُ البصل الذي نحصده صيفًا رقيقًا كأجنحة الفراشات، ويتَّخذ حين يجفُّ لون الكاراميل.

تناول قشرةً وسحقها في راحة يده، فأحدث صوتَ قرمشةٍ عذبًا.

سألته بشيءٍ من البهجة:

. سأشهد هذه السنة إذن تساقط الثلج للمرَّة الثالثة في حياتي؟ سيسعدني ذلك. وأنت، كم مرَّةً شهدت تساقط الثلج؟

أجابني قبل أن يعود إلى تعليق حِزَم البصل:

. لم أُحصِ عددَ المرَّات. حين كنتُ أعبر البحرَ إلى الشمال على ظهر العبَّارة، كنتُ أشهد الثلج حتى أشمئزّ منه. كان ذلك زمنًا طويلًا قبل ولادتك.

ما إن فرغنا من الاستعدادات حتى أوقدنا الموقد، وتناولنا فطائرَ في حجرةِ الطعام. كان الموقد الذي نُظِّفَ لتوِّه، وما يزال متردِّدًا في الاشتعال، يصدر شخيرًا صاخبًا. وعبر النافذة أبصرنا دُخانَ طائرةٍ، وخيطَ دخانٍ رفيعًا يرتفع من بقايا الأغصان المحروقة في الحديقة.

ـ أنتَ إنسانٌ خدومٌ، تأتي دومًا لمساعدتي. حين يوشك الشتاءُ على الوصول، وأكون وحيدةً، ينتابني القلق. بالمناسبة، لقد حُكت لك سترةً. أتمنَّى أن تروقك.

وبعد أن تناولتُ فطيرةً، أعطيتُه سترةً رماديَّةً حكتها لأجله. لدهشته، شرب شايَه مصدرًا غرغرةً؛ وكعادته حين أهديه كتابًا، تناول عطيَّتي بيديْه معًا، وأحنى رأسَه.

ـ أنا لا أخدمكِ إلَّا بما أقدر عليه من أعمالٍ بسيطة. أمَّا أنتِ، فتُعطيني الكثير.

ثم نزع سترته التي بدأ وبرها ينسلُّ، وكوَّرها ثم حشرها في كيسٍ كأنَّها منشفةٌ بالية، قبل أن يرتدي سترتَه الجديدة على مَهَلٍ، كأنَّما يغطِّي نفسه بشيءٍ هشٍّ يمكن أن يتمزَّق بسهولة.

ـ آه.. كم هي دافئةٌ ومريحة. أشعر كأنَّما جسدي يطفو بخفَّة.

كان الكُمَّانِ طويليْن والياقةُ ضيِّقةً قليلًا، لكنَّه لم يعر الأمر اهتمامًا. تناول فطيرةً ثانيةً، ولأنَّه كان مشغولًا بسترته الجديدة، لم ينتبه إلى لطخة القشدة التي انفلتت من شفتيْه وعلقت بخدِّه.

انصرف عائدًا إلى عبَّارته، بعدما ثبَّت في حامل الأمتعة بدرَّاجته، صندوقَ الأدوات المحتويَ على الكلَّاب، ومفكّ البراغي، وورق الصنفرة، وزيت التشحيم. وكان اليوم التالي هو اليوم الذي وصلَ فيه الشتاء بالفعل. ما عاد بالإمكان الخروج من المنزل من دون معطف. وصباحًا، تجمَّد جدول الماء خلف المنزل، وصارت أنواع الخضر المعروضة في السوق تتقلَّصُ.

حبستُ نفسي في البيت، مستغرقةً في كتابة روايتي الرابعة. كانت الحكاية هذه المرَّة عن طابعةٍ على الآلة الكاتبة، فقدت صوتَها. وانطلقت تبحث عنه رفقة حبيبها المعلِّم في معهد الطباعة على الآلة الكاتبة. استشارت معالجَ كلامٍ. يجسّ صاحبُها عنقها بيديْه، ويدفِّئُ لسانَها بشفتيْه، ويسمعان بلا توقُّفٍ أغانيَ كانا قد سجَّلاها

معًا فيما مضى. لكنَّها لا تستعيد صوتَها. تنقر على آلتها الكاتبة، كي توصل إليه ما تحسُّ به. بينهما دائمًا تلك التكتكة مثلَ موسيقى، ثم...

لم أكن أعلم ما ستؤول إليه القصَّة. كانت تبدو بسيطةً وهادئة، لكنَّ إحساسًا ينتابني بأنَّها ستصيرُ مأساةً.

* * *

كنتُ منهمكةً في الاشتغال، في قلب الليل، وإذا يُخيَّل إليَّ أنَّني سمعتُ نقرًا على نافذةٍ في البعيد، وضعت القلمَ، وأرخيتُ أذنيَّ، لكنَّني لم أسمع إلَّا صفيرَ الريح في الخارج. عدتُ إلى مخطوطي، وما إن أضفتُ سطرًا، حتى تهيَّأ لي أنَّني قد سمعتُ مجدَّدًا نقرًا على الزجاج. دقْ، دقْ، دقْ. صوتٌ رتيبٌ متحفِّظٌ.

سحبتُ الستار كي أنظرَ في الخارج. كانت أضواءُ المنازل المجاورة مطفأةً، ولم أميِّز أيَّ هيئةٍ بشريَّة. أغمضتُ عينيَّ، وركَّزتُ انتباهي لأتبيَّن من أين يأتي النداءُ. إذّاك، أدركت أنَّه لا محالةَ آتٍ من القبو.

وبما أنَّني، منذ وفاة أمِّي، ما عدتُ أنزل إلى القبو إلَّا لمامًا، فإنَّ بابَه ظلَّ مغلقًا بالمفتاح. واستغرقتُ وقتًا غير يسير كي أجد المفتاح، لأنَّني كنت قد خبَّأتُه بعناية. وقد أحدثتُ الكثير من الضجيج وأنا أبحث عن الصندوق المعدنيّ الذي يحوي سلك المفاتيح، ومن ثمَّة المفتاحَ الذي صار شبه صدِىءٍ. كان حدسي يُخبرني أنَّ الأسلم لي أن أتحرَّك بصمتٍ وهدوء، لكنّ صوت النقر ظلَّ محافظًا على صبره ورتابته، ممَّا اضطرَّني إلى التعجُّل.

وإذ فتحتُ البابَ، نزلتُ الدرجات، وبعدما أنرتُ المكانَ، أبصرتُ هيئاتٍ بشريَّةً تتشكَّل على الباب الزجاجيّ المفضي إلى المغسل على ضفَّة النهر.

كان المغسلُ يُستعملُ لتصبين الملابس أيَّامَ جدَّتي. وكانت أمِّي تغسل فيه أحيانًا إزميلها، لكنَّ ذلك كان لخمس عشرة سنة خلت.

والمغسلُ فضاءٌ، لا يتجاوز مساحةَ حصيرٍ، بُنِيَ من الآجُرِّ عند ضفَّة النهر، ويمكن النزول إليه عبر الباب الزجاجيّ. عرض المجرى المائيّ يقارب ثلاثة أمتارٍ، ويمكن العبور إلى الضفَّة الأخرى على جسرٍ خشبيٍّ صغير ـ بناه جدِّي ـ وقد صار الآن في حالٍ سيِّئة.

ما الذي يفعله أناسٌ هناك؟

كنت أقلِّب السؤال في نفسي، وأنا أفكِّر فيما عليَّ أن أفعله. هل هم لصوص؟ كلَّا، إنَّ اللصوص لا يطرقون الأبواب. هل هو أحد المجانين؟ لكنَّ الطرْق كان شديد الانتظام قياسًا إلى مجنونٍ.

تشجَّعتُ وسألت:

ـ مَنْ هناك؟

ـ أعذريني على طرْق بابك في هذا الوقت المتأخِّر. نحنُ آلُ إنوي.

* * *

ولما فتحت البابَ، وجدتُ أمامي البروفسور إنوي وأسرتَه. إنَّ السيِّد إنوي، وقد كان صديقًا قديمًا لوالديَّ، بروفسور في قسم الأمراض الجلديَّة بالمستشفى الجامعيّ.

ـ ما الخطبُ؟

قبل كلّ شيءٍ، دعوتُهم إلى الدخول. صوتُ الماء عند أقدامنا كان يُصيبني بالتجمُّد، ثم إنَّهم لم يكونوا يبدون في حالٍ عاديَّة.

ـ نحنُ آسفون. نعرفُ أنَّ هذا الأمر سوف يسبِّب لك الكثير من المتاعب، لكنْ...

غَرِق البروفسور في الاعتذارات. لم تكن زوجتُه قد اعتنت بزينتها، وكانت ملامحها مشدودةً وعيناها مبلَّلتين، ربَّما بسبب البرد، أو لأنَّها بكت. ابنتُهما التي تبلغ من العمر خمس عشرة سنةً تزمُّ شفتيْها، بينما أخوها الصغير البالغ ثماني سنواتٍ لم يتمالك نفسه، وأخذ يجيل النظر في المكان بفضولٍ. كانوا يقفون أربعتهم متماسكين. المرأةُ أمسكت بذراع البروفسور الذي أحاط بذراعه كتفَي ابنتهما، والطفلان يمسكان يدَ بعضهما بعضًا، والصبيّ متشبِّثٌ بمعطف أمّه.

. لا داعي إلى الاعتذار. لكنَّني أتساءل كيف استطعتم عبورَ الجسر. لا بدَّ من أنَّكم خفتُم، أليس كذلك؟ الجسر نصف متداعٍ. لِمَ لم تقصدوا الباب من المدخل؟ على أيِّ حالٍ، تعالوا لتستدفئوا في حُجرة المعيشة بالأعلى، تفضَّلوا. هنا لن أستطيع أن أقدِّم لكم شيئًا.

. أشكركِ. لكنْ لا وقت لدينا. ثم يُستحسنُ ألَّا نُثير الأنظار. ينبغي أن نتصرَّف بسرِّيَّة.

تنهَّد البروفسور. وكأنَّما أعطاهم إشارةً، فازدادوا التحامًا بعضهم ببعض. كانوا يرتدون جميعًا معاطفَ طويلةً رفيعةَ الجودة، مصنوعةً من الكاشمير. وكانت أعناقهم، وأياديهم، وأقدامهم ـ أيّ كلّ ما يتجاوز المعطف ـ مغطَّاةً بالصوف. وفي أيديهم يحملون حقائبَ بطول أجسادهم. وكانت تبدو ثقيلةً.

نظَّفتُ على عجلٍ الطاولة التي كانت تشتغل عليها أمِّي، وقرَّبت لهم مقاعد يجلسون عليها.

وضعوا أمتعتهم تحت الطاولة. وبدا أنَّ كلّ شيءٍ قد تمَّ، وصار الوضعُ جاهزًا لكي أسمع قصَّتهم.

قال البروفسور وقد شبك أصابع يديْه على الطاولة، وكأنَّما يدفن صوتَه في تجويف نصف الدائرة التي يرسمها بذراعيْه:

ـ أتى علينا الدَّوْر.

ولمّا أبطأَ في مواصلة الكلام، لم أستطع أن أمنع نفسي من سؤاله:

ـ ماذا؟

أجاب بصوتٍ هادئٍ متعقِّل:

ـ استدعاءٌ من شرطة الذاكرة.

ـ نعم، لكنْ لماذا؟

ـ استُدعيتُ إلى مركز فحص الجينات. يفترض أن يأتوا إليَّ غدًا.. كلَّا، أقصد اليومَ، هذا الصباح. لقد أُعفيتُ من منصبي الجامعيّ. وينبغي أن نترك السكنَ الوظيفيّ. تلقَّيت الأمرَ بأن أذهب وجميع أفراد عائلتي للعيش في مركز الأبحاث.

ـ أين يقع؟

- لا أعرف. لا أحد يعرف أين يقع، ولا أيّ نوعٍ من البنايات هو. لكنْ، عندي فكرةٌ عمَّا يجري بداخله. رسميًّا هو مركزٌ للأبحاث في العلاجات الطبِّيَّة، لكنَّه في الواقع مرصدٌ لملاحقي الذكريات. يريدون استغلال أبحاثي في العثور على الأشخاص الذين لا يفقدون الذاكرة.

تذكَّرتُ كلام ر في بهو دار النشر. لم تكن إذن مجرَّد إشاعة. لا بل إنَّ أُناسًا قريبين منِّي متورِّطون في الأمر.

- لم يصلني الاستدعاء إلَّا منذ ثلاثة أيَّامٍ. لم نجد ما يكفي من الوقت للتفكير في الوضع. سوف يتضاعف راتبي ثلاث مرَّاتٍ. كما أنَّهم يملكون مرافق لتعليم الأطفال. ويمنحوننا امتيازاتٍ كبيرةً في ما يخصّ الضرائب والتأمين والسيّارة والسكن. إنَّ الشروط مثاليَّةٌ لدرجة أنَّها مُفزعة!

. وصَلَنا المظروف نفسه الذي كان قد وصلنا منذ خمس عشرة سنةً.

كانت تلك المرَّة الأولى التي فتحت فيها زوجتُه فمها. عيناها وحنجرتها تغصّ بالدموع.

الأخت الكبرى تصغي صامتةً، ملتفتةً بوجهها كلّ مرَّةٍ صوب من يتحدَّث. وأخوها الصغير، من غير أن ينزع قفَّازيْه، كان يلمس بتردُّد أدواتِ النَّحت الباقية على الطاولة.

تذكَّرت يومَ ساقوا أمِّي، قبل خمسة عشر عامًا. كان آل إنوي هم من وجدتُ عندهم العزاء. وكنت أنا ما أزال طفلةً صغيرةً، والسيِّدة إنوي تمسك بين ذراعيْها طفلتها البكر التي وُلدت لتوِّها. كان الاستدعاءُ قد وصلنا في مظروفٍ بنفسجيٍّ خشن الملمس. لم يكن أحدٌ آنذاك يعرف عبارة «ملاحقي الذكريات»، ولم يكن والدايَ ولا آل إنوي يستشعرون بعدُ الخطرَ. كانوا فقط قلقين، إذ لم تكن

الرسالة تشير بوضوحٍ إلى سبب استدعاء أمِّي، ولا كم من الوقت ستبقى هناك. لكنَّني كنت أرجِّح أنَّ للأمر علاقةً بالأدراج في القبو. وبينما يتداول الكبارُ أمرَ المظروف، كنت أنا استحضرُ في ذهني وشوشاتِ أمِّي وهي تحكي لي قصَّة الأشياءِ السرِّيَّة، ثم تَكدُّرَ وجهها حين سألتها لما لم تنسَ هي تلك الأشياء. طال بهم النقاش، وما وصلوا إلى نتيجة. ثم ما كان ثمَّة من سببٍ للامتناع عن الذهاب، فلعلَّ الأمرَ تافهٌ!

. سيكون كلُّ شيءٍ على ما يرام؛ لا تقلقي.

. لا تخشيْ شيئًا، سوف نعتني بمنزلك وابنتك.

كذلك طمأنانا الزوجان إنوي.

وفي الصباح، أتت سيَّارةُ شرطة الذاكرة تأخذُ أمِّي، وكانت سيَّارةً فاخرةً لدرجة تبعث على الرعب. كبيرةً بحجم منزلٍ، وسوداءَ سوادًا

مهيبًا، وتبرق من كلِّ جانبٍ. العجلاتُ، ومقابض الأبواب، وشارة شرطة الذاكرة عند طرفِ غطاء المحرِّك، جميعها تبرقُ في شعاع الشمس الصباحيَّة. وكانت مقاعدُ الجلد المرن تبدو ناعمةً حتى لتصعبُ مقاومةُ الرغبةِ في الجلوس عليها.

فَتَحَ سائقٌ يرتدي قفَّازًا أبيضَ البابَ لأمِّي. طلبت أمِّي أمرًا آخر من آل إنوي، ومن مرضعتي، وقبَّلت أبي، ثم أخذت خدَّيَّ بين كفَّيْها باسمةً.

اطمأنَّ الجميع لفخامة السيَّارة وتذلُّل السائق. خلنا أنْ لا شيءَ يدعو إلى القلق، ما داموا قد عاملوها بهذا القَدْر من التهذيب.

غاصت أمِّي في غور المقاعد. لوَّحنا لها جميعًا كأنَّما هي في طريقها لتسلُّم جائزةٍ في مسابقةِ نحت.

لكنْ، كانت تلك المرَّة الأخيرة التي رأينا فيها أمِّي حيَّةً. أُرسل إلينا جُثمانُها أسبوعًا بعد ذلك، مشفوعًا بشهادة وفاة.

أُصيبت بسكتةٍ قلبيَّة. أُجريت كلّ الفحوصات في مصحَّة السيِّد إنوي، لكن لم يُعثر على أثرٍ لما يمكن أن يُثير شُبهة.

... ألمّ بها مرضٌ مفاجئٌ أثناء مشاركتها في أبحاثنا، ونسألكم قبولَ أصدقِ تعازينا في هذا المصاب الذي ألمَّ بكم...

قرأ عليَّ والدي بصوتٍ عالٍ الرسالة التي بعثت بها شرطةُ الذاكرة. انتابني الانطباعُ بأنَّني أسمع تعويذةً سحريَّةً في لغةٍ أجهلها كلّ الجهل. لزمتُ الصمتَ عاجزةً، لا أقدر أن أشيح بعينيَّ عن دموع أبي وهي تنهمر على المظروفِ البنفسجيّ مُشكِّلةً هالاتٍ صغيرة.

واصلتِ السيِّدة إنوي:

. جودةُ الورق، وحروف الآلة الكاتبة، والختمُ، كلّها مماثلةٌ لتلك التي كانت في رسالة والدتك.

كانت قد لفَّت شالَها حول عنقها لفَّتيْن، وعقدَته أمام صدرها. وكلَّما نطقت بكلمةٍ، ارتجفت رموشُها.

سألتهما:

. ألا تستطيعان الرفض؟

أجابني البروفسور فورًا:

. إن رفضنا، اقتادونا بالقوَّة. من لا يتعاون مع مُلاحقي الذكريات، فإنَّهم يلاحقونَه. وبالطبع يلاحقون كلّ عائلته.

ولا أحد يعرفُ إلى أين يقتادونَهم بعد الإمساكِ بهم. السجن؟ الأشغال الشاقَّة؟ الإعدام؟ على العموم، من يرى كيف يقتادون

الناس كأنَّهم كراتينُ ملاعقَ، يتأكَّد من أنَّهم لا يأخذونهم إلى مكانٍ جميل.

ـ ستذهبون إذن إلى مركز الأبحاث في الجينات المذكور؟

ـ كلَّا.

هزَّ البروفسور وزوجته رأسيْهما في الآن نفسه.

ـ سنذهب إلى مخبأ.

ـ مخبأ...

غمغمتُ مستذكرةً أنَّها المرَّة الثانية التي أسمع فيها هذه الكلمة.

ـ لحسن الحظّ، نعرف المنظّمة الداعمة، وقد ضمنت لنا مخبأً. سوف نذهب إليه.

ـ لكنَّكم ستخسرون كلّ شيء، عملكم، حياتكم. وعلى الرَّغم من كلِّ ما ستتكبَّدونَه، لن تكونوا في مأمنٍ. طفلاكما ما يزالان صغيريْن.

ـ لا نستطيع أن نقول إنَّنا سنكون في مأمنٍ، ونحنُ محتجزون في مركز الأبحاث. إنَّ شرطة الذاكرة هي من يُديره. لا ثقة فيهم. حين يفرغون من أمرنا ولا تبقى لهم فينا حاجةٌ، سيتخلَّصون منَّا بأقذر الطرق، حفاظًا على سرِّهم.

انتقى البروفسور كلماته بحيث لا يُرعب طفليْه. وكانا معًا هادئَيْن ومهذَّبيْن. الأخ الصغير يلعب بشظيَّةِ حجرٍ تافهة، يعبث بها كأنَّها لعبةٌ تنطوي على ميكانيزمٍ خفيّ. قفَّازاه الأزرقان السماويَّان، البسيطا الشكل، يبدو أنَّهما قد حيكا يدويًّا. كانا مربوطيْن أحدهما

إلى الآخر برباطٍ وعقافٍ، حتى لا يضيِّعهما. خطر ببالي أنَّني أنا أيضًا كنتُ أرتدي فيما مضى هذا النوع من القفَّازات.

في خضمِّ القلق الذي يرزح تحتَه جوُّ القبو، وحدهما ذانك القفّازان كانا ينشران بعض الارتياح.

أضافت زوجتُه هامسةً:

ـ ولن نفيد مُلاحقي الذكريات في شيء.

ـ لكن إن اختبأتُم، فكيف تتدبَّرون مسألة النقود، والطعام، والمدرسة، وماذا إن مرضتُم؟ أقصد كيف ستدبِّرون حياتكم الأُسريَّة؟ ليست الحياةُ وحدَها ما يهمُّ. ما سيكون مصيرُ وجودِكم نفسِه أنتم الأربعة؟

كانت ثمَّة بعدُ أشياءُ كثيرةٌ لا أفهمها جيِّدًا. الجينات، تحليل الجينات، مركز الأبحاث، المنظَّمةُ الداعمةُ، المخبأ... كان ينتابني

الإحساسُ بأنَّ تلك الكلمات لم تجد مكانًا تقصدُه، فظلَّت تتردَّدُ في تجويفِ أذنيَّ.

قالت:

. نحنُ أيضًا لا نعلم.

وكانت الدموع تسيل من عينيْها، لكنَّها لم تكن تبكي. فكَّرتُ: دموعٌ تسيلُ من دون بكاءٍ.. عجيب! كانت قد بلغت من الحزن مبلغًا لم تعُد تستطيعُ معه بكاءً؛ إنَّما هي فقط قطرةٌ من سائلٍ عضويٍّ شفيفٍ فاضت بها عينُها.

. لقد فاجأنا الأمرُ فلم نُمهَل وقتًا. لم أتبيَّن ما ينبغي أن آخذَه ممَّا ينبغي أن أتركه. كيف لنا إذن أن نتصوَّر ما ينتظرنا؟ بالكاد يستطيع المرءِ أن يتَّخذَ قراراتٍ على المدى القريب: هل يمكن أن ينفعنا دفتر التوفير في شيء؟ أليس الأفضلُ أن نحملَ المال نقدًا؟

هل نسحبه؟ أيّ ثيابٍ نحمل معنا؟ هل نأخذُ معنا أيضًا مؤونةً من طعامٍ؟ هل نتخلّى عن قطّنا ميزوري؟...

كانت القطراتُ الشفيفةُ تستدير ثم تتساقطُ أكثر فأكثر. أخرجتِ الأختُ الكبيرة من جيبها منديلًا، ومدَّته إلى أمّها.

قال البروفسور:

ـ فرضَ اختيارٌ آخر نفسه: اختيارٌ يتعلَّق بمنحوتات أمّك. بعد أن نختفي، لا بدَّ من أن تفحص شرطة الذاكرة المنزل بحثًا عن أدلَّةٍ توصلها إلى مكان اختبائنا. أردنا أن نحتفظ على الأقلِّ بشيءٍ عزيزٍ عندنا. لكنْ من الخطورة بمكان أن نعهد بالأشياء إلى أيٍّ كان. قد يُفشى السرُّ. ينبغي أن نحصرَ ما أمكن لائحةَ الأشخاص الذين يعرفون مخبأنا. تفهمين؟

أومأتُ برأسي موافقةً.

ـ قد يسبِّبُ لكِ الأمرُ مشاكلَ، لكنْ ألا تريدين أن تحتفظي بهذه المنحوتات التي صنعتها أمّكِ؟ إلى حين تتسنَّى لنا زيارتكِ مرَّةً أخرى.

بعدما أنهى كلامَه، وكأنَّما قد تمرَّنَ على الأمر من قبل، أخرجَ من الحقيبة الرياضيَّة المصنوعةِ من النسيج خمسَ منحوتاتٍ وصفَّها على المكتب.

ـ هذا حيوانُ التابير الذي نَحَتَتْهُ لنا هديَّةَ زواج. وهذه هديَّتُها لنا يوم ميلاد ابنتنا البكر. أمَّا المنحوتات الثلاثُ الباقية فقد أعطتنا إيَّاها أمُّك عشيَّة قصَدَتْ شرطةَ الذاكرة.

كانت أمِّي تحبُّ كثيرًا نحت حيوانات التابير، وإن لم ترَ منها واحدًا طيلة حياتها. هديَّة ميلاد البنت البكر كانت دميةً كبيرةَ العينيْن منحوتةً في خشب السنديان. كنت أملك واحدةً مماثلةً. أمَّا المنحوتات الثلاث الباقية فكانت تنشرُ طقسًا مختلفًا تمامًا، طقسًا

غامضًا. كانت أشكالًا مجرَّدةً منحوتةً من خشبٍ وقطع معادنَ تتراكبُ كأنَّما هي قطعةُ بازل، وكلّ واحدةٍ منها في حجم تفَّاحةٍ، ولم يُصقل سطحُها لا بورق الصنفرة ولا بطلاء اللّك. كان ينتاب الناظرُ إليها أنَّها قد تُفصح عن شكلٍ ما إن جُمعت ورُكِّبت، حتى وإن لم يكن يبدو أنَّ ثمَّة ما يجمع بينها.

. لم أكن أعرف أنَّ أمِّي قد تركت لكم هذه الأشياء قبل أن تقصدَ المكان الذي استُدعيتْ إليه.

. نحن أيضًا لم نكن نظنُّ أنَّنا سنرث هذه الأشياء بعد وفاتها. لكنَّني أظنُّ أنَّ أمَّك كانت تتوقَّع شيئًا. لقد غلَّقت على نفسها في القبو، واشتغلت بكدٍّ، إذ لم تكن تدري متى تسنح لها الفرصةُ مرَّةً أخرى للعمل في المشغل. وقد قدَّمت لنا المنحوتات قائلةً أنْ لا فائدة في تركها بمشغلها.

قالت المرأة وهي تطوي منديلها مرَّةً، ثم مرَّةً أخرى:

. ونحن بدورنا نريد أن نعهد بها إليكِ.

. نعم، بالطبع سأحتفظ بها. أشكركما لأنَّكما اعتنيتُما بمنحوتات أمِّي.

. آه.. جيِّد إذن. هكذا على الأقلّ لن نخشى وقوع المنحوتات في أيديهم.

كان البروفسور يبتسم ابتسامةً عذبةً.

كنت أُدرك أنَّ عليهم الإسراع قبل أن يطلع النهار، لكنِّي كنت أريد أن أساعدهم بأيِّ طريقة، وفي الآن نفسه لا أدري ما يمكن أن أصنع لهم. على أيِّ حالٍ، صعدتُ إلى المطبخ أسخِّنُ حليبًا، وصببتُه في فناجين حملتُها إليهم في القبو. قرعنا فناجينَنا خمستُنا بهدوءٍ، قبل أن نشرب صامتين. وبين الفينة والأخرى، كان يرفع

أحدُنا عينيْه كأنَّما يريد أن يقول شيئًا، لكنَّه يشرب السائلَ الأبيضَ عاجزًا عن إيجاد كلمةٍ يقولها!

كان المصباحُ مغطًّى بالغبار لدرجة أنَّ الضوء الذي يُنيرُ القبو كان يبدو باهتًا كرسمٍ بالألوان المائيَّة. منحوتةٌ بُدئت في حَجَرٍ ولن يُقيَّض لها أن تكتمل، دفترُ رسومٍ أوَّليَّةٍ بهتت ألوانه، مشحذٌ جفَّ تمامًا، آلة تصويرٍ مكسورة، دزِّينتان من أصباغ الباستيل مختلفة الألوان ترقُد في ركنٍ من أركان الغرفة. وما إن يتحرَّك أحدنا، أدنى حركةٍ، حتى تصرَّ الكراسي على الأرضيَّة. ومن الجهة الأخرى للنافذة، كانت الظلمات تمتدُّ، وما كنّا نتبيَّنُ القمر.

قال الأخ الصّغير:

ـ «لذيذ، أليس كذلك؟» وهو يرمقنا واحدًا بعد آخر، وكأنَّما يستغرب صمتنا.

حول شفتيْه، ارتسمت دائرةٌ بيضاء.

. بلى، لذيذ.

أومأنا جميعًا موافقين. ولم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عمّا ينتظرهم، لكنِّي قلت لنفسي: على أيِّ حالٍ، حسَنٌ أنَّ الحليب لذيذٌ وساخنٌ بين أيدينا.

. بالمناسبة، أين مكانُ مخبئكم؟ فقد أستطيع مساعدتكم؟ سأحمل لكم ما تحتاجونَه، وأنقل لكم أخبار العالم.

سألتُهم عمّا يشغلني أكثر من أيّ شيءٍ آخر. تبادل آل إنوي النظر قبل أن يغوصوا مجدَّدًا بأنظارهم في فناجينهم. لحظةً بعد ذلك، كان البروفسور المبادرَ إلى الكلام:

. أشكركِ على اهتمامك لأمرنا إلى هذه الدرجة. لكنَّني أظنُّ أنَّ الأسلمَ ألَّا تعرفي شيئًا عن المخبأ. بالطبع لا نخشى أن تفشي سرَّنا. لو أنَّ هذا كان هاجسنا، لما أتيناكِ نحملُ إليكِ المنحوتات. إنَّما

فقط لا نريدُ أن نتسبَّب لك في مشاكل. كلَّما تعمَّقت علاقتُك بنا، زاد الخطرُ بالنسبة إليكِ. لنفترض أنَّ شرطة الذاكرة حقَّقت معكِ، إن لم تكوني تعرفين شيئًا، فسوف تقولين إنَّكِ لا تعرفين شيئًا، فتفلتين. لكنْ إن اشتمُّوا فيك رائحةَ الكذب، فقد يلجأون إلى أفظع السبل ليستلُّوا منك الحقيقة. أرجوكِ، لا تسألينا أين المخبأ.

ـ فهمت. لا أريد أن أعرف شيئًا. سأظلُّ هنا أصلِّي لنجاتك أنت وأسرتك.

أضفتُ وأنا أشدُّ على فنجاني الفارغ بين يديّ:

ـ ختامًا، هل ثمَّة ما يمكن أن أقوم به لأجلكم؟

قالت المرأةُ، محرجةً بعضَ الشيء، وهي تمسك بيد ولدها:

ـ هل تستطيعين أن تعيرينا مقصّ أظافر. إنَّ أظافر هذا الولد أطول من اللازم.

ـ بالطبع، هذا أقلّ واجب.

بحثتُ عن مقصّ أظافر في قعر دُرجٍ قبل أن أنزع قفّاز الولد.

ـ لا تتحرَّك. سننتهي سريعًا.

كانت أصابع الصبيّ رقيقةً ومرنة. لا تشينُهما شائبةٌ. جثوْتُ على ركبتيّ أمامَه، وأخذت أصابعه برفقٍ كيلا أؤذيه. وحين التقت نظرتانا، ابتسم لي ابتسامةً خجولًا وهو يؤرجحُ قدميْه.

استعملت مقصّ الأظافر بحذرٍ بادئةً بخنصر اليد اليسرى. أظافره المرنة الشفَّافة كانت تُنتزع ما إن يمسّها المقصّ، فتسقط على الأرض كبتلات زهرة. وكنّا نصيخ السمع جميعًا لصوتها وهي تسقطُ. كانت ترنُّ كإشارةٍ تتردَّد لحظةً في أعماق الليل.

وكان القفَّازان الأزرقان الفاتحان على المكتب ينتظران أن ينتهيَ كلّ شيء.

هكذا، اختفت أسرة إنوي.

٦

ارتقيت الدرجات. كانت من الضِّيق حتى إنِّي تساءلتُ قلقةً ما عسايَ أفعل إن صادفتُ شخصًا نازلًا. كان السلَّم تجميعًا بسيطًا لخشبٍ خامٍّ، من دون بساطٍ ولا درابزين.

كلَّما صعدتُ حتى هنا، انتابني الانطباع بأنَّني داخلَ فنارٍ. لم أزُر إلَّا فنارًا واحدًا مرَّةً أو مرَّتيْن، وكان ذلك في سني طفولتي، لكنْ يبدو لي أنَّ الرائحة ووقع الخطوات تشبه كثيرًا ما أشمّه وأسمعه هنا. صوت الأحذية المكتومة وهي تمشي بحذر على الفُرَج بين الألواح، ورائحة زيت الآلات.

منذ زمنٍ بعيدٍ لم يعدُ الفنار يضيءُ. وما عاد أحدٌ من البالغين يتوغَّل حتى هذا الموضع. وغطَّت الرأسَ الأعشابُ الجافَّةُ المدبَّبةُ التي خدشت قدميَّ في طريقي إلى هنا.

كنت برفقة ابنِ عمٍّ يكبرني سنًّا. وقد رغب في أن يلعق كلّ خدشٍ في قدميّ.

على امتداد الدرج، كانت حُجرةٌ صغيرة. هنا كان يستريح فيما مضى حارس الفنار. طاولةُ شايٍ قابلةٌ للطيّ ومقعدان. على الطاولة وُضع، كما ينبغي، إناءُ شايٍ، ووعاء سكَّر، ومناشف، وفنجانين للضيوف، وصحونٌ وشوكاتُ حلوى.

سواءٌ بالنسبة إلى المسافة بين كلّ قطعةٍ من قطع أواني الشاي، أو اتِّجاه مقبض الفناجين، أو بريق الشوْكات، لا يوجدُ ما يمكن أن يُعابَ، حتى إنَّني بدأت أرتجف خوفًا. لكنَّني في الآن نفسه، شرعتُ أتخيَّلُ أيَّ حلوى لذيذة يمكن أن توضع على صحونٍ بهذا الجمال!

وعلى الرَّغم من أنَّ سنواتٍ انقضت مُذ رحلَ حارس الفنار، وخمدت شعلةُ المصباح الذي كان من عليائه يمسحُ البحرَ، وغدت

باردةً مغبرَّةً، فإنَّ الجوّ العامّ كان يوحي بأنَّه منذ عشر دقائق فقط كان ثمَّة من يشربُ الشايَ هنا.

ولفرط ما أنعمتُ النظر في الأكواب، تهيَّأ لي أنَّني أرى البخار يصعد منها مرتجفًا. وبقلبيْن واجفيْن من النظر إلى الحُجرة الصغيرة، تسلَّقنا الدرجات. ابن عمِّي في الخلف، وأنا في المقدِّمة. لم يكن المكان معتمًا فحسب، وإنَّما لفرط ما كان الدرج اللولبيّ يمتدّ بلا حدٍّ، لم نكن نملك أدنى فكرةٍ عمَّا يفصلُنا عن بلوغ القمَّة.

أخال أنِّي كنت آنذاك في السابعة أو الثامنة من عمري. أرتدي تنُّورةً بحمَّالاتٍ ورديَّةً، صنعتها لي أمِّي. مهما بالغت في إرخاء الحمَّالات، كانت التنُّورة تظلّ قصيرةً جدًّا، بحيث ما كنت أستطيع أن أطرد عن نفسي هاجسَ أن يرى ابن عمِّي تبَّاني.

على أنَّني أتساءل، ما الذي دفعنا إلى أن نقصد معًا مكانًا كهذا. لا أستطيع أن أتذكَّر. وحين انقطع نفَسي حتى ما عدتُ أستطيع

المضيّ أبعد، صار فجأةً صوتُ الأمواج قريبًا جدًّا، بينما رائحةُ زيت الآلات تصلُ حتى أنفي. لكنَّني لم أُدرك فورًا أنَّها رائحة زيت الآلات. في البداية، ظننتُها مادَّةً مُضرَّةً بالصحَّة. وضعت يدي على فمي لأمنع نَفَسي من استنشاق الرائحة. فازدادت حالي سوءًا، أصابني دُوار. تناهى صوتٌ من الأسفل. فكَّرتُ في أنَّ الرجل الذي يتناول الحلوى في الحُجرة الصغيرة، يصعدُ السلالم. حارس الفنار، بعدما غرز شوكته البرَّاقة في آخر قطعةٍ، وتركها تذوب في لسانه، ها هو ذا ينطلق في إثري، وقد التصق على أطراف شفتيْه فُتاتُ حلوى جنوازيَّة.

أردت الاستنجادَ بابن عمِّي. لكنِّي خشيتُ أن يكون السائر خلفي حارس الفنار بدلًا من ابن عمِّي، فما جرؤت على الالتفات. وانتهى بي المطاف إلى أن وقفت رابضةً وسط الدرج، عاجزةً أيضًا عن التحقُّق ممَّا يوجد في الأعلى.

لا أدري كم مرَّ من الوقت! وما لبث الفنار أن استعاد هدوءَه، من قمَّته إلى قاعه. ما عدتُ أسمع حتى هدير الأمواج.

أصختُ السمعَ برهةً، فبدا لي أنْ لا شيء يحدث. صمتٌ خانقٌ يبسط يديْه على كلِّ شيء. استجمعت شجاعتي كلَّها لكي أُدير بحَذَرٍ رأسي وأُلقي نظرةً خلفي.

لم يكن ثمَّة لا حارس الفنار ولا ابن عمِّي.

غريبٌ أنَّني ما زلت أذكر ذاك الفنار وذاك الدرَج. فما دُمت آتي إلى هنا كي ألتقي حبيبي، فيمكنني أن أرتقي الدرجات مهرولةً بحماسةٍ، حتى إنِّي قد أزِلّ وأسقط، لكنَّني لا أدري لمَ أضع قدميَّ بحذرٍ على الدرجات، درجةً درجة، منتبهةً إلى وقع خطواتي.

أنا في برج الكنيسة. يُقرع الجرسُ مرَّتيْن في اليوم، صباحًا في الحادية عشرة، ومساءً في الخامسة.

في الطابق السفليّ، عثرت على مخزنٍ خُزِّنت فيه أدوات صيانة الساعة، مساحةُ المخزن تطابق تمامًا مساحةَ الحُجرة الصغيرة بالفنار. بالطبع، في الأعلى توجد الحُجرة التي تحوي آليَّة الساعة، لكنَّني لم أغامر قطُّ بالصعود إليها. حبيبي ينتظرني في حُجرة دروس الطباعة على الآلة الكاتبة، الواقعة وسط البرج.

بعدما جاوزتُ من الأصعدة ما لا أذكرُ عددَه، تناهى إليَّ صوت الآلات الكاتبة. أصواتٌ متردِّدةٌ تختلط بأخرى منتظمة. لا بدَّ من أنَّ طالبات مستجدّات يتدرَّبن مع أخريات متمرِّسات شارفن على تحصيل الدبلوم.

واقفًا بجانب متدرِّبةٍ مبتدئة، هل كان يتأمَّل أصابعها المرعوبة وهي تضغط على المفاتيح؟ وهل كان كلَّما أخطأتْ يحرِّك إصبعها فيضعها برفقٍ على المفتاح الصحيح؟ مثلما كان يفعل معي أنا من قبل...

* * *

لمّا بلغتُ هذه النقطة من الكتابة، وضعتُ قلمَ الرصاص.

روايتي الجديدة لا تتقدَّم كما ينبغي. أدور في حلقةٍ مفرغة، أتراجع إلى الخلف، أفقد الاتِّجاه وأظلُّ عالقةً لا أرى للطريق نهاية. لكنْ بما أنَّ هذا الأمر يحدث معي كثيرًا، ما عدتُ أُعيره اهتمامًا.

يسألني ر كلَّما التقينا:

ـ كيف الحال؟

أحتار هل يسألني عن حالي أم عن الرواية! فأكتفي بإجابتي التي لا تتغيَّر، متسائلةً عمّا يقصدُه:

ـ لا بأس.

لكنَّه يقصد دائمًا روايتي.

ـ لا ينبغي أن نكتب بالرأس. أريدكِ أن تكتبي باليد.

يندُر أن يعبِّر على هذا النحو، أي بلغةٍ جازمة، حتى إنِّي أومئ برأسي صامتةً. ثم أمدّ إليه يُمنايَ، باسطةً أصابعي إلى حدِّها الأقصى.

ـ نعم، هو ذا، من هنا تتشكَّل الرواية.

لكنَّه يحرص على النظر بعيدًا، كأنَّما يُبصر أشدّ أجزاء جسدي هشاشةً.

خطر لي أنَّ أَمْثل ما ينبغي لي القيام به اليومَ هو النوم. كنت منهكةً، وأصابعي متصلِّبة. وضعت قلمي ومِمحاتي في كُرزي، ولملمت أوراق مخطوطي، ثم وضعتُ فوقها ضاغطةَ ـ أوراقي الزجاجيَّة.

في سريري، فكَّرت بأسرة إنوي. منذ المساء المعلوم، مررتُ غير ما مرَّةٍ من أمام الجامعة ومساكنها الوظيفيَّة، لكنْ، من الخارج، لم يبدُ أنَّ شيئًا تغيَّر. كان الطلبة ممدَّدين في العشب هانئين، وفي المخفر أمام رواق المدخل كان الحارسُ المسنُّ الخامل يقرأ كتابًا في فنّ البونساي(3) .

فوتوناتٌ(4) تُشمَّسُ على شرفات المساكن الوظيفيَّة خلف الحرم الجامعيّ. متفحِّصةً الشقق، أحصيتُ النوافذ من أحد الطرفيْن، حتى بلغتُ الشقَّة رقم ٦١٩ من الجناح E ، الشقَّة التي كان يُقيم فيها آل إنوي. أُفرغت الفرندةُ، لم يعد ثمَّة شيء.

ألقيتُ كذلك نظرةً على قاعة الانتظار من قسم الأمراض الجلديَّة بالمستشفى الجامعي، فرأيتُ أنَّ في خانة يوم الأربعاء، أيْ يوم الفحص عند البروفسور إنوي، صار مكتوبًا اسمُ الأستاذ المساعد. تغيَّر حجمُ اللافتة، صارت أصغر. الممرِّضات يتحرَّكن، جيئةً وذهابًا، حاملاتٍ الأدوية أو الضمَّادات أو السجلَّات الطبِّيَّة؛

والمرضى قد كشفوا ملابسهم عن جلودهم المصابة بمكروبات. لم يبدُ على أحدٍ الاهتمام أو الحزن لغياب البروفسور.

حقًّا، لقد اختفت أسرة إنوي، كأنَّما تبخَّرت.

ومع ذلك، أتساءلُ: هل ما زالوا يستطيعون الالتزام بالنظافة كيلا تصيبهم الأمراض، وهل ينامون على أسِرَّةٍ من النعومة بحيث تضمنُ لهم أحلامًا مريحةً؟ وهل ما يزال بوسعهم تناول طعامهم على مائدةٍ واحدةٍ، وبما يكفي من الأواني لأربعة أشخاصٍ؟ فاتني أن أسألهم هذه الأسئلة؛ وماذا فعلوا بقطِّهم ميزوري؟ كان عليَّ أن أحتفظ به مثلما احتفظتُ بالمنحوتات. لكنْ لو أقام القطّ معي، فلربَّما أثار حولي الشبهات. إنَّ المتوقَّع في شرطة الذاكرة، أن تكون قد أجرت التحرِّيات، فعرفت فصيلة القطّ ولونه وحجمه.

عبثًا حاولت النوم، تتصاعَدُ الهمومُ فيَّ، همًّا همًّا، كأنَّها فقَّاعاتُ هواء. فقَّاعاتٌ لا تنفجر، وإنَّما تعومُ إلى أجلٍ غير مسمًّى في قلبي.

أحقًّا يستطيع المرء أن يثق في منظَّمة الدعم؟ لم يذكر البروفسور التفاصيل. فإن مرض الطفلان؟ وأظافر الصبيّ الصغير، قد تكون نمت وطالت داخل القفَّازيْن الأزرقيْن الفاتحيْن...

* * *

حين استيقظتُ صباح اليوم التالي، كان قد حدث اختفاءٌ جديد. وكان البردُ قد اشتدَّ وتشكَّل جليدٌ في الحديقة. صنبور الماء، والموقد، وخبز الحليب في سلَّة الخبز، كلّ ما بداخل المنزل من أشياء مختلفة، تجمّدَ. هدأت الريح التي كانت تعصف طيلة الليل.

وضعتُ على الموقد ما بقيَ من يخنة أمس، وصففتُ حولها قطعَ الخبز الصغيرة ملفوفةً في ورق ألمنيوم. وحين بدأ الماء يغلي في الغلَّاية، حضَّرت الشاي، وشربتُه محلًّى بالعسل. لم أستطع أن أتعوَّد الأكل إلَّا ساخنًا.

وبما أنَّ غسل الأواني يزعجني، فقد أكلت بالملعقة مباشرةً من القِدر فوق الموقد. ولما سطَعت رائحة الخبزِ المحمَّصِ الطيِّبةُ، فتحتُ الرقائق وقطَّرت العسل فوق الخبز مباشرةً.

وبينما أمضغ، استغرقتُ في محاولة التخمين: ما الذي اختفى هذه المرَّة؟ يقيني فقط في عدم اختفاء اليخنة، أو خبز الحليب، أو الشاي بالعسل. لأنِّي ما يزال بمقدوري أن أتناول منها، مثلما فعلت أمس.

من المحزن اختفاءُ الأطعمة، أيًّا كانت. فيما مضى، كانت الشاحنة المتنقِّلة تفيض بالأطعمة، أمَّا اليوم، فصارت الفراغات تخترقها في كلِّ موضع.

في سنواتِ طفولتي كنتُ أحبُّ كثيرًا سَلَطَةَ الفاصوليا الخضراء، متبَّلةً بالمايونيز، مع البطاطس، والبيض المسلوق والطماطم، وعليها رشَّةُ بقدونس مفروم.

كثيرًا ما كانت أمِّي تسأل بائع الخُضار عمَّا إذا كانت لديه فاصوليا خضراء طازجة، فاصوليا من تلك التي تنكسر محدثةً صوتًا.

مضى عليَّ زمنٌ لم أذق فيه سلطة الفاصوليا الخضراء. لا بل إنِّي عاجزةٌ حتى عن تذكُّر شكلها أو لونها أو رائحتها.

وضعتُ قِدرَ اليخنة أرضًا وخفَّضت لهيبَ الموقد. شربتُ فنجان شايٍ ثانيًا، هذه المرَّة طبيعيًّا بدون عسلٍ أو غيره. كانت أصابعي تتلاصق من أثر العسل.

حتى في صباحٍ بهذا القَدْر من البرودة، لا يبدو على النهر التجمُّد، إذ كنت أسمع ماءَه يجري برفق. كما كانت تتناهى إلى سمعي أصواتُ أطفالٍ وراشدينَ يتراكضون في الشارع خلف المنزل، وكذلك نباحُ كلب الجيران. على دأب أصباح الاختفاءات، كان التوتُّر يملأ الأجواء.

ولمّا كنتُ قد فرغت من تناول قِطَعِ خبزي الصغيرة جميعها، فقد قمت أفتح النافذة جهة الشمال، معتمدةً في تقديري على صوت وقع الخطوات. صانعُ القبّعات . سابقًا، والزوجان غير الودوديْن اللذان يسكنان بالجوار، وكلبهم المرقَّط بالبنِّيّ، والتلاميذ بحقائبهم على ظهورهم؛ تجمهروا جميعًا. أبصارهم تتأمَّل النهرَ في صمت. كان أجمل، وأغرب، من أن يكون مجرَّد نهرٍ. إلى حدود أمس، كان ما يزال مجرى ماءٍ بلا أهمِّيَّةٍ تُذكرُ، تُلمح فيه، بين الفينة والأخرى، أظهر بعضِ أسماكِ الشبُّوط.

ملتُ على النافذة، فطَرفت عيناي مرَّاتٍ عديدة. كان سطح النهر مغطًّى بشظايا حمراء أو وردِيَّة أو بيضاء، تناسقٌ لونيٌّ يتعذَّر إيجادُ مثيلٍ له. لا مساحةَ فارغة بين الشظايا. ومن فوق، تبدو تلك الشظايا ناعمة، يركب بعضها بعضًا، وتتنقَّل أبطأ من جَرَيان الماءِ المعتاد.

نزلتُ مسرعةً إلى القبو، وخرجت إلى المغسل حيث كنت قد استقبلت آل إنوي. إذ كان ذاك أقرب موقعٍ أستطيع أن أرى منه النهر.

كانت أرضيَّةُ المغسل باردةً وخشنة. وبين الآجرِّ نبت النَّفَل. كان السيلُ العجيب على مرمى قدميَّ. جثوت على ركبتيَّ، غصت بيديَّ في الماءِ ثم رفعتهما. كان مليئًا ببتلات الزهور التي التصقت براحتيَّ.

من الضفَّة الأخرى للنهر، صاح بي صانع القبّعات. سابقًا:

. أمرٌ لا يصدَّق.

. بالفعل.

كان الجميع يتبادلون النظرات هازِّين رؤوسهم.

الأطفال يركضون مسايرين مجرى النهر، وحقائبهم تهتزّ على ظهورهم.

صاح بهم صانع القبّعات ـ سابقًا:
ـ لا تطيلوا التسكُّع.

لم تكن أيُّ بَتَلةٍ بعد قد ذبلت. لا بل بالعكس، ربَّما بسبب نداوة الماء، كانت تبدو أكثر طراوةً ولمعانًا. وعطرُها، وقد اختلط بضباب الصباح العائم فوق النهر، صار تقريبًا لا يُطاق.

بَتَلاتٌ، ولا شيءَ غيرُ البَتَلات، على مدِّ البصر.

وحين رفعت يديّ من الماء، استطعتُ أن ألمح لوهلةٍ سطحَ الماء، لكنْ سرعان ما أتت بَتَلاتٌ أخرى تغطِّي مكان تلك التي رفعتُها. كأنَّما البتلات تنساقُ صوب البحر منوَّمة.

غطَّستُ مجدَّدًا يديَّ المغطَّاتيْن بالبَتَلات. بَتَلاتٍ من كلِّ نوعٍ: بَتَلاتٍ بحوافَّ متماوجةٍ مثل طيَّاتٍ، بَتَلاتٍ بألوانٍ باهتةٍ وأخرى زاهية، بَتَلاتٍ ما تزالُ ملتصقةً بتاج الزهرة. وكانت هذه الأخيرةُ تلتصق برهةً بحوافّ آجرّ المغسل، قبل أن يجرفها النهر مجدَّدًا، فتختلط بغيرها ويتعذَّر تمييزُها عنها.

* * *

غسلت وجهي، واكتفيت بوضع الكْريم من دون أن أضع مكياجًا، وارتديت معطفًا، وخرجت. صعدت باتِّجاه مصبّ النهر، قاصدةً منتزه الورد عند منحدر التلّ جنوبًا.

تجمهر الكثير من الناس عند ضفَّة النهر، يتأمَّلون الظاهرة البديعة. وكانت شرطة الذاكرة حاضرةً حضورًا أقوى من المعتاد. كدأبِهم كانوا واقفين، أسلحتُهم في أحزمتهم، ووجوههم باردة.

أمَّا الأطفال الذين كان يبدو أنَّهم لا يستطيعون البقاء هادئين، فقد كانوا يلقون بأحجارٍ، أو يغمسون عِصيًّا لا أدري من أين أتوا بها. ومع ذلك، لم يكن التيَّار الجارفُ يضطرب. فهنا وهناك، تبرز مواقع مياهٍ ضحلة أو تضاريس في النهر، لكنَّها ما كانت تُعيق البتَّة تقدُّم البَتَلات المدهش. كان ينتابُ الناظرَ إليها الانطباعُ بأنَّه لو تمدَّد فوقها لغطَّت جسدَه كبطَّانيَّةٍ ناعمة.

. مدهشٌ على الرَّغم من كلِّ شيء، أليس كذلك؟

. لأوَّل مرَّةٍ نشهد اختفاءً بهذا الكمال.

. وماذا إن التقطنا صورةً؟

. تمزح! ما فائدة الصورة حين يختفي الشيء؟

. أجل، أنت محقّ.

كان الكبارُ يتوشوشون، كيلا يثيروا انتباه شرطة الذاكرة.

وما عدا المخبز، كانت المحلّات جميعًا مغلقةً. أردتُ أن أنظر ما كان من مصير الورود عند بائع الزهور، لكنَّ الستار المعدنيّ كان مُسدلًا. وعلى متن الترامواي أيضًا لم يكن ثمَّة الكثير من الناس. وكانت الشمس تتأهَّب لأن تعلن عن نفسها بين الغيوم. وما انفكَّ الضباب الصباحيّ يقلّ سُمْكًا، بينما العطر ما يزالُ قويًّا.

ومثلما خمَّنت، لم تعد ثمَّة وردةٌ واحدةٌ في منتزه الورد. سيقانُ الزهور لم تحفظ إلَّا الأشواك، والأوراق تنتصبُ على المنحدر مثل عظامٍ عارية. ومن حينٍ إلى آخر، تهبُّ ريحٌ من قمَّة التلِّ، هناك حيث مرصدُ الطيور، فتكنسُ باتِّجاه النهر البَتَلات التي كانت ما تزال منثورةً على الأرض. ولهِبُوبها ترتجف الأوراق والسيقان.

ولم يكن ثمَّة أحدٌ، لا المرأة ذات الماكياج الكثيف التي تتواجد دائمًا عند مدخل المنتزه، ولا البستانيُّون، وبالطبع لم يكن ثمَّة زائر.

تساءلت عمّا إذا كان يلزمني أن أدفع ثمن التذكرة، لكنّني انتهيت إلى أن أنزلق من تحت شبّاك الأداء، لأتبع الأخدود الذي يمضي متسلِّقًا المنحدر، مواصلةً طريق النزهة.

الأزهار الأخرى غير الورود، مثل الجُرَيس والكوشاد الأصفر وصبّار الإيكينوكاكتوس، كانت سليمةً معافاةً. وكانت تتفتَّحُ بخجلٍ، كأنَّما تعتذر عن وجودها هناك. كأنَّما الريح التي شتَّتت البَتَلات لم تختر من الزهور إلَّا الورود.

إنَّ منتزه وردٍ من دون ورودٍ هو مكانٌ قفرٌ، لا معنى له. وأَدعى للحزنِ منظرُ العِصيِّ الداعمة والسماد المنثور، وغيرها من آثار العناية بالورود. التراب الريَّان كان مرنًا، ويُحدث تحت الأقدام صوتًا لطيفًا. وخرير النهر لا يصل حتى هنا.

واضعةً يديَّ في جيبيَّ، صعدتُ التلَّ بمزاجِ من يتوغَّلُ في مقبرةٍ مجهولة.

لكنِّي عبثًا كنتُ أتأمَّل شكلَ السيقان وأشواكها وأوراقها، عبثًا كنت أقرأ اللافتاتِ التي تشرح مختلف الأنواع... أدركتُ أنَّني ما عدتُ أذكر شكل الورود.

(3) فنّ البونساي، فنّ بستنة يابانيّ: يعني زراعة النبات في الأواني.

(4) الفوتون هو السرير اليابانيّ التقليديّ الذي يوضع على الأرض مباشرةً.

٧

استغرق النهر ثلاثة أيَّامٍ ليعود إلى سابق عهده. لم تتغيَّر كمِّيَّة الماء، ولا تبدَّل لونه. واستعادت أسماك الشبُّوط ـ أين كانت تختفي أثناء ذلك؟ ـ عاداتها.

في اليوم الثاني، أتى الدور على من يملكون شُجَيْرات وردٍ في حدائقهم، كي ينثروا البَتَلات في مقبرة النهر. كانوا ينتفون الزهور، بتلةً بتلة، ثم يُلقون بها خلسةً في مجرى النهر.

أسفل الجسر الذي يفضي إلى المغسل، تقف امرأةٌ تبدو عليها أمارات الثراء.

قلت لها:

ـ إنَّها ورودٌ مميّزةٌ.

وكان قد اختفى من قلبي كلّ أثرٍ قد تخلِّفُه رؤية الورود، لكنَّها كانت تتابعها بعنايةٍ كبيرة، فلم أستطع ألَّا أقول لها شيئًا. لذلك نطقتُ بأوَّل وصفٍ خطر ببالي.

أجابتني سعيدةً بالكلمة التي اخترتُها:

ـ أشكرك. لقد فازت هذه الورود بالميداليَّة الذهبيَّة في مسابقة السنة الماضية. هي أجمل ذكرى خلَّفها لي المرحوم أبي.

لكنْ لم يكن يبدو عليها أيّ أثرٍ للأسف. كانت البَتلات تسقط مرفرفةً، واحدةً بعد أخرى، من أصابعها المطليَّة بأحمر قانٍ يتناغم ولونَ الزهور.

وحين أتمَّت عملها، من غير أن تُلقيَ بنظرةٍ إلى تيَّار الماء، حيَّتني بالطريقة المألوفة في من ينتمون إلى طبقتها.

جميع البَتَلات، بلا استثناء، كانت تصل حتى البحر، ثم تُجرفُ إلى عُرضه. وحتى إن كانت قد غطَّت النهر، فإنَّها لما بلغت المحيطَ الشاسع، صارت مجرَّد ذرَّةٍ وسطَه، وما لبثت أن ابتلعتها الأمواج. ذاك ما عاينَّاه، أنا والجدُّ، من فوق سطح العبَّارة.

قلت وأنا أفرك بإبهامي صدأ حاجز السطح:

. أتساءَلُ كيف للريح أن تميِّزَ الورود عن غيرها؟

. لا جوابَ لهذا السّؤال. الحقيقة الوحيدة القاطعةُ، هي أنَّ الورود قد اختفت.

كان يرتدي الصدريَّة التي أهديته، مع سروال الميكانيكيّ الذي كان يرتديه أيَّام وظيفته السابقة.

. أتساءلُ عن مصير منتزه الورود!

ـ لا تشغلي بالك يا آنستي. ستنبت فيه زهورٌ أخرى، ما لم يتحوَّل إلى بستانٍ أو مقبرة، لا أحد يعلمُ أو يريد أن يعلم. ينبغي أن نترك الزمن يفعل فعله. فهو يواصل طريقَه ببسالةٍ، ولا يد تعلو يده.

ـ بعد اختفاء مرصد الطيور ومنتزه الورود، سيصير التلّ كئيبًا. لم يبقَ غير المكتبة العتيقة.

ـ أنتِ محقَّة. حين كان السيِّد والدك ما يزال يتمتَّع بصحَّةٍ جيِّدة، كثيرًا ما دعاني إلى هناك. وإن مرَّ طائرٌ فريدٌ، كان يُعيرني منظارَه. ثم كان يسمح لي بعد ذلك بأن أشكره عبر القيام ببعض الأشغال البسيطة في قنوات المياه أو لوح موزِّع الكهرباء. وفي منتزه الورود، كنت أعرف البستانيَّ الذي يعتني بالورود، وكان لي امتيازُ رؤية الأنواع الجديدة التي تتفتَّح. لذا كنت أقصد التلَّ دائمًا. لكنَّ الناس من أمثالي ليس لديهم ما يفعلونَه في المكتبة. عرفانًا لكِ فقط ذهبتُ هناك، حين صدر كتابُك لأرى هل يوجد.

. اهتممت لهذا الأمر؟

. نعم. ولو أنِّي لم أجدهُ هناك، لشكوتُ غيابه. لكنَّه كان هناك.

. نعم، لكنَّني لا أظنُّ أنَّ ثمَّة من يستعيره ليقرأَه.

. كلَّا، أنتِ مخطئةٌ. استعاره شخصان: تلميذةٌ وموظَّفٌ.

كان يشرح لي بتفصيلٍ مذهل؛ وبفعل رياح البحر التي كانت تهبُّ باردةً، كان أنفُه متورِّمًا.

حول مروحة العبَّارة كانت البَتَلات تشكِّل دوَّامةً. مرهقةً تعوم في الماء المالح بعد سفرها الطويل في النهر. بهتَ لونُها وخبا بريقُها، وما عاد بالإمكان تمييزها عن الطحالب والأسماك الميِّتة، وغيرها من المخلّفات التي اختلطت بها. وتبدَّد عطرها.

كانت العبَّارة تتماوج برفقٍ كلَّما هزَّتها موجةٌ كبيرة. وفي كلِّ مرَّةٍ، يصرُّ جزءٌ من أجزائها.

وفي الرأس البحريّ على الضفَّة المقابلة، تُضيءُ الشمسُ الغاربة الفنارَ.

سألتُه:

ـ ماذا سيحلُّ بصديقك البستانيّ؟

ـ لقد تقاعد أصلًا. وفي سنِّه، لا يحتاج المرء إلى عمل، وليس لديه ما يخشاه من شرطة الذاكرة. سوف ينسى كيف يُعتنى بالورود، وثمَّة ما يكفي من الأمور الأخرى التي يمكنه أن يشغل نفسه بها. كأن ينظِّف آذان أحفاده، أو يفلِّي فرو قطَّته من البراغيث..

كان الجدُّ يضرب بحذائه على جسر السفينة. كان حذاءً باليًا، ولكنْ ما يزال متينًا. ولفرط التحامه بقدمه، يبدو كأنّه جزءٌ منها.

قلت له من غير أن أرفع عينيّ عن حذائه:

. يجتاحني أحيانًا قلقٌ غريب. أتساءَل عن مصير الجزيرة في خضمِّ هذه الاختفاءات كلّها.

رفع يده إلى ذقنه وقد بدأت لحيتُه المحلوقة تظهرُ من جديد، وملامحه تشي بأنَّه لم يفهم سؤالي.

. نعم...

. التوازن على الجزيرة مختلٌّ؛ عدد الأشياء الجديدة التي تظهر أقلّ بكثيرٍ من تلك التي تختفي. هل أنا مخطئة؟

أومأ برأسه وقد تغضَّنَت ملامحُ وجهِهِ كلُّها، كأنَّما ألمَّ برأسِه ألمٌ.

كلّ ما يستطيع سكَّان الجزيرة إنتاجه هو أنواعٌ مختلفةٌ من الخضراوات، وسيَّاراتٌ تتعطَّل على الدوام، ومسرحيَّاتٌ بسيطة،

وأفرانٌ ضخمة الحجم، وحيواناتٌ منزليَّةٌ هزيلة، ومستحضراتُ تجميلٍ دهنيَّة، ومواليدُ جدد، وكتبٌ لا يقرأُها أحد... مجرَّد أشياءَ تافهة، أشياء لا يعوَّل عليها. أشياء لا تستطيع مقارعةَ الاختفاءات، ولا فيضَ الطاقة الذي تخلِّفه. ليس الأمر عنيفًا، لكنَّه سريعٌ وجذريّ، لذا ينبغي التحلِّي بأقصى درجات التيقُّظ. إن لم نسارع إلى غلق الثقب الذي تخلِّفه الاختفاءات، فإنَّ الجزيرة لن تلبث أن تصير مخروقةً بالفجوات. ومع كلِّ تلك الثقوب، ستصير خفيفة، وأخشى ما أخشاه أن يأتي عليها يومٌ تفقد فيه الشكلَ وتختفي. ألم تراودك الفكرةُ من قبل؟

- طيِّب...

فَرَد كُمًّا من كمَّيْ سترته، ثم الكمّ الآخر، إذ ما انفكَّت الريح تشتدُّ.

.... قطعًا لأنَّكِ تكتبين الروايات، يتوغَّل تفكيرك بعيدًا.. لا أدري كيف أعبِّر! ربَّما تفكِّرين في الأمور بطريقةٍ مغاليةٍ بعض الشيء! من يكتب الرواية، أليس يصنع قصصًا غير معقولةٍ بعض الشيء؟

تمتمتُ:

ـ بلى، بمعنًى ما... لكنَّني لا أعتقد أنَّ للأمر علاقةً بالروايات، إنَّه قلقٌ أكثر واقعيَّة.

أجابني بحزم:

ـ لا تقلقي، كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. عشتُ هنا عمرًا يضاعفُ عمرك ثلاث مرَّات، ممَّا يعني أنَّني فقدتُ ثلاثة أضعافٍ ما فقدتِه أنت. لكنَّني أبدًا لم أفتقد الأشياء التي اختفت، أو أحسست بأنَّني في خطر. حتى حين اختفت العبَّارة. أقصد حين لم يعد بالإمكان أن نستقلّها للذهاب إلى السوق أو إلى السينما على البرِّ المقابل من البحر. لم أعد أشعر بمتعة وضع يديَّ في زيت التشحيم

ومعالجة الآلات، وفقدت راتبي. لكنْ لم يكن ذلك حقًّا بالأمر المهمّ. فحتى من دون عبَّارة استطعتُ أن أبلغ هذه النقطة بلا مشاكل. ثم إنَّ عملي الجديد، حارسَ مستودعاتٍ، مع قليلٍ من الدُّربة صارَ ممتعًا، وفي نهاية المطاف، ها قد أتيت أعيش في مكان عملي القديم. ولا ينقصني شيء.

ـ لكنْ، على العبَّارة لم تعد لديك أدنى ذكرى مهمَّة، أدنى ذاكرة. ما هي إلَّا حديدٌ يطفو على البحر. أليس في هذا ما يوجع؟ ألا يقلقك فراغُ علبةِ الحديد هذه؟

كنت أراقبه خلسةً. وكان يلتمس الكلمات لاويًا شفتيْه.

ـ صحيحٌ أنَّ وتيرة الفقد على ظهر الجزيرة قد ارتفعت أكثر من ذي قبل. كيف أقول؟ عندما كنت طفلًا، كانت الجزيرةُ عمومًا طافحةً بجوٍّ أشدّ ثباتًا. لكنْ بقدر ما ظلّ الجوّ يفتر، أخذتْ قلوبنا ترتخي معه. لذلك ربّما وجدنا توازنًا! الأمر أشبهُ شيءٍ بخاصِّيَّة

التنافذ الفيزيائيَّة، حيث مهما اختلّ التوازن، أبدًا لن يبلغ درجة الصفر. لذا لا شيءَ نخشاه.

هززتُ رأسي مرَّاتٍ؛ وتذكَّرتُ فجأةً أنَّني عندما كنت طفلةً، لطالما أجابني على المنوال نفسه، وهو يحرِّك ملامحَ وجهه كلّها. لما سألته مثلًا لماذا تصير أصابعنا صفراء حين نأكل الكليمانتين(5) ، أو حين سألته أين تنزاحُ المعدةُ والأمعاءُ حين يكون في البطنِ طفلٌ.

. أنت محقٌّ، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام.

. أجل، أؤكِّد لكِ. ليس بالأمر الخطير أن ننسى أو ألَّا نعرف من الأساس. ثم، أليس أولئك الذين يحفظون في قلوبهم كلّ شيءٍ، تعتقلهم شرطةُ الذاكرةِ الرهيبة؟

بدأ المساء يرخي سدوله على البحر. عبثًا دقَّقت النظر في السطح. ما عدتُ أميِّز البتَلات.

(5) من أنواع البرتقال، شبيه بالماندرين لكنَّه خالٍ من البذور.

٨

تكاد تمضي ثلاثة أشهر مُذ فقدتُ صوتي. ما عُدت أنا وصديقي نفعل شيئًا بغير الآلة الكاتبة. وحين نمارس الحبَّ، تنتظرنا هي هادئةً قربَ السرير. وحين أريد أن أقول له شيئًا، أمدّ يدي وأنقر على المفاتيح. أكتب على الآلة الكاتبة بأسرع ممَّا أفعل بالقلم.

بدايةَ إصابتي بالحبْسَة، أردت أن أُخرج صوتي مهما كلَّفني الأمر. حاولتُ كلَّ شيءٍ، من حشر لساني في حنجرتي، وحبس الهواء في رئتيّ، إلى لَيِّ شفتيّ في كلِّ اتِّجاه. لكنْ بعدما أدركت أنَّ تبديد كلّ ذاك الجهد لن يقودني إلى أيِّ نتيجة، لجأتُ إلى الآلة الكاتبة. ففي نهاية المطاف، يظلّ هو أستاذَ طباعةٍ على الآلة الكاتبة، وأنا كاتبةً عليها.

سألني ذات يومٍ:

ـ ما الذي تريدينه هديَّةً؟

فخفضت نظري إلى ركبتيَّ، حيث كانت موضوعةً الآلةُ الكاتبة.

تاب، تاب، تاب.

أريد شريط تحبير.

مال برأسه عليَّ، واضعًا يده اليسرى على كتفي، وقرأ الحروف المطبوعة.

ـ شريط؟ هديَّة ليست حقًّا بالرومانسيَّة.

ابتسم.

تاب، تاب، تاب، تاب.

أنا قلقة، لأنَّ من دون الشريط لن أستطيع الكلام. معك.

لذا، حين نكون معًا أكون سعيدةً، لأنَّني أشعر على الدوام بحرارته على كتفي. حتى إنِّي أنسى حزني على فقدان صوتي.

. حسنًا. سأذهب إلى المكتبة، وأشتري كلّ مخزونهم من شرائط الحبر.

تاب، تاب.

شكرًا.

إنَّ الكلمات المشكَّلة من حروفٍ مسطَّرةٍ، منتظمةٍ جنبًا إلى جنب، توحي بانطباعٍ مختلفٍ عن تلك التي ننطقها. أثر الحزّ الطفيف الذي نخلِّفه في الورقة حين نضغط على الحرف. الحبر الذي يسيل. حرف j الذي يميل ميلًا طفيفًا كأنَّما يوشك أن يهوي. وحرف M الذي تبدو زاويته الوسطى، وقد أصابها بعض التلف، على شكل سِنٍّ. مثل هذه التفاصيل تجعل الحروف عزيزةً

عندي وأَلوفًا. مع أنَّني أعتقد بأنِّ لا محالةَ مُصلِحةُ ذينك الحرفيْن يومًا ما.

أتذكَّر جيِّدًا اليوم الذي علَّمَنا فيه تغيير شريط التحبير. آنذاك، لم أكن قد تجاوزت مرحلة التدرُّب على ملء صفحاتٍ وصفحاتٍ بكلماتٍ من قبيل، هو، هو، هو، هو... أو هذا، هذا، هذا، هذا...

بادَرَنا:

ـ اليوم لن تعُدْنَ إلى بيوتكنَّ، إلَّا وقد تعلّمتنَّ كيف تُغيِّرن شريط التحبير. الأمر معقَّدٌ بعض الشيء، لكنْ ما إن تفهمنَ كيف يتمّ، حتى يصير بسيطًا جدًّا. انتبهنَ.

بعدما جمع كلّ الطالبات حول المكتب الوسط، بدأ أوَّلًا بوضع أصابعه على الجانب كي يرفع الجزء العلْويّ من الآلة.

سُمعت قرقعةٌ بسيطة.

لباطنِ الآلةِ مظهرٌ مثيرٌ للاهتمام أكثر ممَّا تخيَّلتُ. الرافعات الدافعة للحروف، اللفائف التي تشبه بكرات، المقابض من كلِّ شكل، السيقان التي اسودَّت من الزيت، كلّ العناصر كانت مترابطةً فيما بينها وفق آليَّةٍ معقَّدة.

ـ ننزع على هذا النحو الشريطَ المستعمل الذي لم يَعُد فيه ما يكفي من الحبر.

نزع الشريط القديم من البَكَرة اليمنى. انساب الشريط بين الرافعات والبكرتيْن والمقابض والسيقان.

ـ حسنًا، انتبهن. هذا شريطٌ جديد. نحشره في البَكَرة اليسرى، بحيث تكون واجهتُه إلى الأعلى. وجهه الأعلى، كما ترينَ، ناعمٌ. أمسِكْنَ بقوَّةٍ طرفَ الشريط باليد اليمنى. لا ينبغي أن تُفلِتنه. أهمّ

شيءٍ أن تحافظن على الاتِّجاهات والترتيب. ينبغي وضع الشريط في الآلة، مع احترام الاتِّجاهات والترتيب. مثلما نضع بَكَرة خيطٍ في آلة خياطة. نحشر الشريط أوَّلًا في هذا الجزء الشبيه بمعقف، ثانيًا في هذا المدوَّر، ثالثًا خلف هذه الساق، رابعًا نعود إلى الخلف قليلًا، وهذه...

الحقُّ أنَّ الترتيب الذي ينبغي احترامه كان معقَّدًا بعض الشيء. بدا مستحيلًا حفظهُ من أوَّل ملاحظة. وبدا على باقي الطالبات أيضًا القلق. لكنَّ أصابعه كانت تتحرَّك بثقةٍ، غير عابئةٍ بنا.

ـ وها قد تمَّ الأمر.

كان الشريط، داخل الآلة الكاتبة، يلتفُّ كثعبانٍ. وأطلقنا جميعًا، في الوقت نفسه، زفرةً.

ـ فهمتنَّ؟

أحاطنا بنظرةٍ شاملةٍ، واضعًا يديْه على وركيْه. لم يكن على أصابعه أثرُ حبرٍ ولا زيت. أصابع جميلة كما هي دومًا.

لم أستطع قطّ أن أحفظ الطريقة. كان الشريط يلتوي في يدي أثناء تركيبه. وعبثًا أضرب على المفاتيح، لا حرف يُطبع. وطيلة ضربي على الآلة أثناء الدروس، لم يكن يتردَّد في ذهني إلّا سؤال: ماذا عساي أصنع إن فرغ الشريط؟

لكنِّي تجاوزت المشكل اليوم. لا بل إنَّ بوسعي أن أغيِّر الشريط بأسرع ممَّا يفعل هو. مُذ حلَّت الآلة الكاتبة محلّ صوتي، صارت الكتابةُ تكلِّفني شريطًا كلّ ثلاثة أيَّامٍ. لا ألقي بالشرائط المستعملة، بل أحتفظ بها. إذ يتملَّكني الإحساس بأنَّني قد أستعيد صوتي بالمداومة على تأمُّل الرسائل المطبوعة فيها، أو تلمُّسها بأصابعي...

* * *

أريتُ ر ما كتبتُه حتى تلك اللحظة.

كان ثمَّة ركامٌ لا بأس به من الأوراق، لذا أتى هو إلى منزلي بحجَّة أنَّها أثقل من أن أحملها حتى مكتبه. أخذنا الوقت الكافي لتفحُّص المخطوط سطرًا سطرًا. كنَّا نتناقش في ما إذا كان السطرُ لا غنى عنه. نبدِّل هذه الكلمة بتلك، كأن نضع كرَّاسًا بدلًا من دفتر، أو ليكورًا بدلًا من نبيذ، أو نظرًا مكان بصر، ونضيفُ ما ينقص، ونحذف دفعةً واحدةً عشرات الأسطر.

جالسًا على الأريكة، كان ر يقلِّب بهدوءٍ صفحات مخطوطي. يده موضوعةٌ على الجزء السفليّ من الورقة، برفقٍ كأنَّما يداعبها، وبيده الأخرى، يمسك بزاويةِ الورقة من أعلى. لا يضغط البتَّة على مخطوطاتي. يعاملها برفقٍ بالغ. حين أراه على ذاك النحو، يعتريني شيءٌ من توتُّر، إذ أتساءل: هل يستحقُّ ما كتبته كلّ هذه العناية؟

ـ حسنًا. لنتوقَّف عند هذا الحدّ اليوم.

وإذ فرغ من شغله، أخرج من جيب سترته الداخليّ علبة سجائره وقدّاحته، بينما كنت أنا ألُمُّ بواسطة مشابك الأوراقَ التي دُوِّنت فيها الملاحظات.

ـ هل ترغب في فنجان شايٍ آخر؟

ـ هل أستطيع أن أطلب شايًا ثقيلًا؟

ـ بالطبع.

في المطبخ، قطعتُ قطعةً من حلوى الجنوازية، ثم أعددتُ الشاي مجدَّدًا وحملته إلى الصالون.

سألني وهو يتأمَّل صورةً موضوعةً على رفّ المدفأة:

ـ هذه أمّك؟

ـ نعم.

ـ إنَّها جميلة. أنتِ تشبهينها.

ـ كلَّا. كثيرًا ما كان أبي يردِّد أنَّني لم أرث عنها إلَّا أسنانها الصلبة السليمة.

ـ من المهمّ أن تكون للإنسان أسنانٌ جميلة.

ـ في مشغلها، كانت دائمًا تجعل طوع يدها أسماكًا صغيرةً مجفَّفةً موضوعةً فوق جريدة. كانت تلوكها بينما تشتغل. ويبدو أنَّها كانت، كلَّما رأتني أضطرب، تضع في فمي بعضًا منها، وأنا بعد في المهد، أي قبل حتى أن تنبت لي أسنانٌ. ما زلت أذكر مذاقَها تُخالطُه رائحةُ نشارةِ الخشبِ والجبس. كانت تجربةً فظيعةً، كأنَّما تمضغ حصًى.

رفع يديْه إلى إطار نظّارته خافضًا رأسَه، ورسم على شفتيْه ابتسامةً.

بعد ذلك، بقينا برهةً، نتناول الحلوى صامتيْن. حين نكون بمفردنا، يحدُث كثيرًا أن نستنفد الحديث في روايتي، فلا ندري ما نقول بعد ذلك. لكنَّ الأمر لم يكن يزعجني، إذ كان ينتابني الانطباع بأنَّني أنا نفسي سوف يستغرقني تنفُّسُه الهادئ. ثم إنِّي لم أكن أعرف مِن ر إلَّا هيئتَه وهو منكبٌّ على قراءة مخطوطاتي. ما كنت أعرف شيئًا عن طفولته، أو عائلته، أو كيف يقضي أيَّام الآحاد، نوع النساء الذي يفضِّلُه، أو فريق البيسبول الذي يشجِّعه. حين نكون معًا، يقرأ مخطوطاتي، ولا شيء غير ذلك.

بعد أن ذاق من الصمت كفايته، سألني:

ـ هل ما يزال هنا الكثير من أعمال والدتك؟

أجبته وأنا أُلقي نظرةً أخرى إلى صورة أمّي:

. كلَّا، لم يبقَ منها إلَّا القليل؛ بقيتْ تحديدًا تلك التي صنعَتها لأبي أو لي.

كانت ترتدي فستانًا صيفيًّا فضفاضًا، وتُجلسني على ركبتيْها باسمةً في حياء. يداها المميَّزتان، بمفاصلهما المعقودة لفرط ما اقتصرت على معالجة الأشياء الثقيلة: الإزميل أو المطرقة أو الحجر، كانتا تداعبان قدميَّ الصغيرتيْن، قدميْ رضيعة.

. أظنّ أنَّها لم تكن تحبُّ كثيرًا الاحتفاظ بأعمالها إلى الأبد. ومع ذلك، أظنُّ أنَّ المنحوتات كانت أيَّام طفولتي أكثر بكثيرٍ، سواء هنا أو في الحُجرة... أظنّها قد رتَّبت كلّ شيءٍ بعنايةٍ حين أُخطِرت باستدعاء شرطة الذاكرة. ربَّما توقَّعتْ شيئًا سيِّئًا. ولأنَّني كنت طفلةً، لا أذكر جيِّدًا ما وقع.

. أين مَشغَلها؟

ـ في القبو. كنّا نملك منزلًا صغيرًا في قريةٍ باتِّجاه منبع النهر، وكانت على ما أظنُّ تشتغل فيه أيضًا، لكنْ منذ ولدتُ، صارت تشتغل دائمًا بالأسفل.

ضربتُ على الأرض بطرف شبشبي.

ـ لم أكن أعرف أنَّ في هذا المنزل قبوًا.

ـ ليس لأنَّنا نسمِّيه قبوًا، ينبغي أن يكون بالضرورة تحت الأرض. إنَّ مدخلَ المنزل الجنوبيَّ يفضي إلى الشارع، بينما مدخله الشماليُّ يفضي إلى النهر. أساسات المبنى في الماءِ، وفوقها بُنيَ المنزلُ، بحيث إنَّ القبو يقع عند مستوى قاع النهر.

ـ يبدو الأمر معقَّدًا.

. أحسب أنَّ أمِّي كانت تحبُّ كثيرًا صوت الماء. ليس هدير الأمواج الصاخب، وإنَّما الخريرَ العذبَ الذي يتساقطُ منسابًا. لذلك أظنُّ أنَّها اشترت المنزل الثاني أيضًا قريبًا من النهر. ثلاثة شروط لا غنى لها عنها إن أرادت أن تشتغل: خرير الماء، ومهد الأطفال، والأسماك الصغيرة المجفَّفة.

. وهذه أيضًا تشكيلةٌ معقَّدة.

أشعل سيجارةً بعدما لفّ القدَّاحة في راحة يده.

بادرني متردِّدًا:

. إن لم يكن في الأمر إزعاجٌ... هل أستطيع أن أُلقي نظرةً على القبو؟

أجبته بلا تردُّد:

. طبعًا.

نفث دخان سيجارته ببطءٍ، كأنَّما يبيِّن أنَّه قد نطقَ أخيرًا بشيءٍ لطالما أثقلَ قلبه.

* * *

. نشعر أنَّ الهواءِ بالفعل أبرد عند القدميْن.

. سوف أوقد الموقد فورًا. ولأنَّه موقدٌ عتيقٌ، فهو يحتاج وقتًا لكي يدفِّئَ المكانَ. اعذرني.

. بما أنَّ البرد يأتي من النهر، فلا بأس به. لا تزعجي نفسك.

نزلنا معًا الدرج المفضي إلى القبو. مشغولًا بقدميْه الغائصتيْن في الظلام، أمسك بذراعي منزعجًا بعض الشيء.

وبعدما أحاط القبو بنظرةٍ شاملة، قال لي:

. إنَّه أرحبُ ممَّا توقَّعت.

ـ بعد وفاة أمِّي، حزن أبي لدرجة أنَّه ما عاد ينزل إلى القبو بالمرَّة، حتى إنَّ المكان تدهور...

وكانت تلك المرَّة الأولى التي أنزل فيها إلى القبو، منذ زيارة أسرة إنوي.

ـ تستطيع أن تنظر كما شئت.

تفحَّص، شيئًا شيئًا، مختلف الأشياء المتروكة في فضاء الشغل، والأدراج التي وُضِّبت فيها أدوات شتَّى: وفوق الدُّرْج الأعلى منها، وُضعت المنحوتات الخمس التي عهد بها إليّ آل إنوي؛ كما تفحَّص البابَ الزجاجيَّ الذي يقود إلى المغسل، وكراسي الخشب. وإنْ لم يكن ثمَّة ما يستحقّ الاهتمام، إلَّا أنَّه أخذ كامل وقته في التفحُّص، لا بل لم يغفل حتى أركان القبو. كأنَّما يريد أن يستنشق كلّ الهواء المجمَّد، هواء العصور العتيقة التي مرَّت على القبو.

قلت له:

. الأدراجُ، والدفاتر، وكرّاساتُ الرسوم الأوَّليَّة، تستطيع أن تفتحها وتنظر فيها.

وكعادته حين يتصفَّح مخطوطي، قلَّبها بحركاتٍ حريصة.

وما إن كان يتحرَّك حتى يُثير غمامةً من غبارٍ وشظايا منحوتات مختلطة. وعبر المنْوَر، كانت تبرزُ قطعةٌ من السماء الصافية. وبين الفينة والأخرى، كنَّا نسمع صوت شبُّوطٍ يقفز في النهر.

. ما هذا؟

أخيرًا، بلغ قطعةَ الأثاث خلف الدرج.

. هنا كانت أمِّي فيما مضى تخفي أشياءها السرِّيَّة.

. أشياءها السرِّيَّة؟

. نعم. لا أدري كيف أقول، أشياءَ مختلفةَ الأشكال، لا أعرفها...

أعوزتني الكلماتُ لأشرِح له. أخذ يفتح الأدراج بالترتيب. كانت جميعها فارغة.

. أرى أنّه لم يبقَ منها شيء.

. أنا على يقين من أنَّ كلَّ دُرجٍ منها كان يحوي شيئًا، أيَّام طفولتي. كثيرًا ما كانت أمِّي تُطلعني على محتوياتها حين تستريح من الشغل. وكانت تحكي لي قصصًا عن تلك الأشياء. قصصًا عجيبةً لم أرَ لها مثيلًا في الكتب المصوَّرة.

. أتساءل لمَ هي الآن فارغة!

ـ لا أدري. ذات يومٍ، تنبَّهتُ إلى أنَّها صارت فارغةً. أظنّ الأشياء اختفت أثناء البلبلة العامَّة التي كنفت اقتياد أمِّي من طرف شرطة الذاكرة.

ـ هل صادروها؟

ـ كلَّا. لم ينزلوا إلى القبو. وحدنا أنا وأمِّي كنَّا نعرف سرَّ هذا المخبأ. حتى والدي لم يكن يعرف. أظنُّ أنَّ أمِّي قد وجدت طريقةً تتخلَّص فيها من تلك الأشياء أيَّامًا قبل استدعائها من طرف الشرطة. كنت أنا ما أزال طفلةً لم أتجاوز بعدُ العاشرةَ، فما كنت أدرك دلالة الأشياء الموضوعة هنا؛ لكنْ حين استلمت أمِّي الاستدعاءَ، بدا عليها أنَّها قد أدركت خطورة الوضع. لذا، لا ريب في أنَّها قد أخفتها في مكانٍ ما، أو تخلَّصت منها، أو عهدتْ بها إلى شخصٍ ما.

ـ هكذا...

منحنيًا، مقوَّسَ الظهر، محترسًا ألَّا يضرب برأسه حرْفَ الدُّرْج، كان ما يزالُ يعبث بمقبض أحد الأدراج. خشيتُ أن يلوِّث يده بصدئه.

ـ هل تستطيعين تذكُّر ما كانت تحويه؟

كان يتأمَّلني باهتمامٍ. بريق زجاج النافذة ينعكس على زجاج نظَّارته.

ـ يحدث لي أن أحاول التذكُّرَ، لأنَّ الأمر يتعلَّق بذكرياتٍ حميمةٍ جمعتني بأمِّي. لكنْ، سدًى. لا أستطيع التذكُّر. على الرَّغم من أنَّني أتذكَّر جيِّدًا تعبير وجهها، ونبرة صوتها، والجوّ العامّ في القبو، إلَّا أنَّ كلّ محتويات الدُّرج تظلّ مبهمةً. كأنَّما حدود ذاكرتي لا تصير تخومًا ضبابيَّةً إلَّا متى بلغت هذه النقطة.

قال لي:

. لا مشكل، ما هو إلَّا انطباعٌ ملتبس. أريد منكِ أن تحدِّثيني عن ذكرياتك، حتى أتفهِمها.

. حسنًا...

عينايَ كانتا مسمَّرتين بخزانة الأدراج. لا ريب في أنَّه قد كان فيما مضى أثاثًا رفيعًا، أمَّا اليوم فصار في حالٍ مزرية، غطَّاه الغبار، وتقشَّر طلاؤه، وصدئت مقابضه. وهنا وهناك، ما تزال به الملصقات التي كنتُ ألصقها به على سبيل التسلية أيّام طفولتي.

قلت بعدما فكَّرت مليًّا:

. الشيء الذي كانت أمِّي متعلِّقةً به أكثر من غيره، هو شيءٌ ورثَتْه عن جدَّتي، وكانت تحفظه هنا في الصفِّ الثاني من الأدراج. حجرٌ أخضر صغير. دقيقٌ وصلبٌ كسِنٍّ حليبٍ سقطت لتوِّها.

أظنُّ أنِّي احتفظت بهذا الإحساس لأنَّه صادف نموّ أسناني النهائيَّة، وهي فترةٌ شهدتُ فيها سقوطَ الكثير من الأسنان.

سألني:

ـ كان جميلًا؟

ـ بلا شكّ. لأنَّ أمِّي كانت كثيرًا ما تضعه في إصبعها وتتأمَّله في ضوء القمر. لكنْ، عبثًا كانت تفعل، إذ لم يكن يبقى في قلبي شيءٌ من ذلك. لا أستطيع أن أقول إنَّ الحجر كان جميلًا، أو جذَّابًا، أو أنَّني كنت أرغب فيه، لأنِّي لا أحسّ تجاهه بأيِّ شيء.

لما وضعَتْه في راحة يدي ذات يومٍ، لم يخلِّف فيَّ إلَّا إحساس برودة. أمام هذه الخزانة، كان قلبي يصير مثل دودة قزّ. دودة قزٍّ تغفو داخل شرنقتها.

ـ طبيعيّ، ذاك هو الشعور الذي يتملَّك الجميع أمام الأشياء التي اختفت. (رفع يده إلى إطار نظَّارته) واسمُ هذا الحجر، ألم يكن «زمرّد»؟

تمتمت مردِّدةً الحروف الأربعة التي نطق بها: ـ ز ـ م ـ ر ـ د؟

بعثت الحروف صدًى خفيًّا تردَّد في أعماق صدري.

أجبت موافقةً بهزَّةٍ من رأسي:

ـ نعم، هي كذلك، «زمرّد». ما من شكٍّ في ذلك. لكن كيف عرفت؟

رانت علينا برهةُ صمتٍ. اكتفى ر بأن عاد إلى فتح الأدراج دُرجًا بعد آخر. كانت المقابض تطقطق. وحين فتح الدُّرج، أقصى يسار الصفِّ الرابع، توقَّف والتفت إليَّ.

ـ هذا كان يحفظ عطرًا. أليس كذلك؟

ـ ماذا...

أردت أن أسألَه، لكنِّي ابتلعتُ كلماتي.

ـ ما يزال أثرٌ منه.

دفعني برفقٍ من ظهري لكي أنظر عن قرب.

ـ هل تشمِّين؟

بعينيْن مسمَّرتيْن في فجوة الدُّرج، استنشقت الهواءَ ملءَ رئتيَّ. تذكَّرت أنَّ أمِّي كانت تشمِّمني الروائحَ بهذه الطريقة. لكنْ، بالطبع، لم يملأ رئتيَّ إلَّا هواءٌ باردٌ لا طعم له. كان إحساسي بيده الموضوعة على ظهري أكثر إنعاشًا من رائحة العطر.

زفرت هازَّةً رأسي:

ـ آسفة.

ـ لا داعي للأسف. تعلمين أنَّ من الصعب تذكُّر الأشياء التي اختفت.

أقفل دُرج «العطر»، وخفض رموشه.

ـ أعرفها. أعرف جمال الزمرُّد، ورائحة العطر. لم يمَّحِ من قلبي شيء.

٩

بقدر ما كان الشتاء يقترب، كان يلفُّ الجزيرةَ جوٌّ ثقيلٌ فاتر. كان نور الشمس واهنًا، وكلّ ظهيرةٍ تهبُّ ريحٌ باردةٌ شديدة. الناسُ يسيرون مهرولين، ظهورُهم محنيَّةٌ وأيديهم في جيوب معاطفهم.

في الشارع، صرنا نشهد أكثر فأكثر منظرَ الشاحنات بغطائها الأخضر الداكن. أحيانًا تمرّ بأقصى سرعةٍ مطلقةً عواء صافراتها؛ وأحيانًا أخرى، تسير مسدلةً غطاءَها، متهاديةً ببطء. وخلَل فجوات الغطاء، كان يُلمحُ رأسُ حذاءٍ، أو قاعُ حقيبةٍ، أو طرف معطف.

وما انفكَّت أساليب ملاحقي الذكريات تزداد وحشيَّةً. ما عادت تُرسَلُ استدعاءاتٌ قبْليَّةٌ، على شاكلة ما حدث مع أمِّي، وإنَّما يتمّ الأمر برمَّته فجأةً. كانوا يملكون أسلحةً متينةً تنكسرُ لها أقوى الأقفال. ويجوبون المنزل باحثين عن الأماكن المشبوهة. لا يفلتون

أيّ موضعٍ قد يصلحُ مخبأً: في مخزنٍ، تحت سرير، خلف دولاب. يسحبون من يجدونه مختبئًا هناك. وكذلك يسوقون إلى الشاحنة الخضراء كلّ من يَسَّروا له سبيل الاختباء.

مُنذ اختفت الورود، لم يحدُث أيّ اختفاءٍ جديد؛ لكنْ صار شبه معتادٍ أن يختفيَ فجأةً شخصٌ من المدينة المجاورة، زميلُ دراسةٍ قديم، أو أحدُ أقرباء بائع السمك البُعداء. ولا ندري حينها ما إذا كان المختفون قد أُلقيَ عليهم القبض، أم أنَّهم كانوا محظوظين فوجدوا مخبأً، أو أنَّ مخبأهم اكتُشف فسيقوا منه. لم يكن يسعى أحدٌ حقًّا في معرفة ما حدث لهم. لأنَّ الأكيد أنَّ الحدث لن يكون سارًّا، وإنَّ مجرَّد الإفراط في الاهتمام به قد يجعل المرء في خطر. وحين يصير منزلٌ من المنازل، دونما سابق إنذارٍ، قفرًا من سكَّانه، يكتفي الناس بالمرور من أمامه صامتين، ويلقون نظرةً خاطفةً على النوافذ مصلِّين لسكَّانه، راجين لهم السلامة. لقد أَلِف سكَّان الجزيرة الاختفاءات كلّ الألفَة.

* * *

ـ إن لم تكن ترغب في سماع ما سأحدِّث فيه الآن، فينبغي أن تقول ذلك بوضوح.

كان الجدُّ يقطع كعكة تفّاحٍ، وقد ترك ما كان منهمكًا فيه وأطلق زفرةً.

أجابني:
ـ الأمرُ معقَّدٌ جدًّا؛ (قبل أن يردِّد مقدِّمتي متمتمًا) لا أستطيع أن أقول شيئًا ما لم أعلم عمَّا تتحدَّثين.

ـ بلى. إن سمعتَ قولي، سيكون الأوان قد فاتَ. ما سأخبرك به ينبغي أن يظلّ سرًّا. والآن أريد إجابةً قاطعةً، هل ترغبُ في مشاركتي سرِّي؟ نعم أم لا؟ فإن كان جوابك لا، لن أنزعج. لن تكون ثمَّة أدنى مشكلة. لن أُفصح أبدًا عمّا أحفظه في صدري. وهذا كلّ ما في الأمر. أريد منك ببساطةٍ أن تُخبرني بما تحسّه،

أخبرني بلا تحفُّظٍ أو زيادة، تكلَّم دونما حرجٍ. هل تريد أن تسمع منِّي أم لا؟

وضع الجدّ سكِّينه، وشبك يديْه على ركبتيْه. كان الماء في الغلَّاية فوق الموقد يوشك أن يغلي. وأشعَّةُ الشمس المتسلِّلة من كوَّة مقصورة الدرجة الأولى تُضيء كعكة التفَّاح، فتلمعُ قشدةُ الزبدة التي تغطِّيها.

قال وهو يحدِّق فيَّ وجهًا لوجه:

ـ أنا مصغٍ إليكِ.

ـ سوف تتورَّط في أمرٍ معقّدٍ وخطير.

ـ أعرف.

ـ قد يكلِّفك حياتك.

ـ لم يبقَ في حياتي قَدْر ما فات.

ـ حقًّا...

قال هازًّا رأسه:

ـ لا مشكل. هيَّا، تحدَّثي.

فكَّ يديْه، ثم عاد يشبكهما فوق ركبته.

ـ أريد أن أُنقذ أحدهم. أريد أن أخبِّئه.

تفحَّصتُ وجهه. لم يكن يرمش، فقط ينتظر هادئًا أن أُكمل.

ـ أعلم مدى الخطر الذي أعرِّض له نفسي إن أنا أفصحت عن سرِّي. لكنَّني سأترك الأمور تسير كما شِيء لها أن تسير. إنَّ شخصًا مهمًّا بالنسبة إليَّ سيختفي بالتأكيد. مثلما اختفت أمِّي.

هل تظنُّ أنَّ بمقدورك مساعدته؟ لا أستطيع أن أفعل ذلك بمفردي، أحتاج حليفًا ثقَةً.

هبَّت ريحٌ مباغتةٌ، فصرَّت العبَّارةُ. وطقطق صحنا الكعكة الموضوعان أحدهما فوق الآخر.

. هل لي أن أسألكِ سؤالًا؟

. طبعًا.

. ما علاقتكِ بالشخصِ الذي تريدين إنقاذَه؟

. إنَّه ناشري. هو أوَّل من يطَّلع على قصصي. وهو أخبَرُ الناسِ بسارد رواياتي.

أجابني:

- حسنًا، سوف أساعدك.

- شكرًا.

لمست يديْه الموضوعتيْن على ركبتَيْه. كانتا عريضتيْن وتملأهما التجاعيد.

* * *

بعد التداول خلُصنا إلى أنَّ آمنَ مخبإٍ هو الغرفة الصغيرة التي كان أبي، فيما مضى، يخزِّن فيها كتبه. إذ استعانَ بنجّارٍ صنع له غرفةً، مساحةً فارغةً بين سقف الطابق الأرضيّ وأرضيَّة الطابق الأوَّل، ليخزِّن فيها الكتبَ والوثائقَ التي لا يراجعها إلَّا نادرًا. وكان يُفضي إليها عبر قطعةٍ، من مترٍ مربَّعٍ، تُزاحُ في وسط الأرضيَّة الخشب بمكتبه.

كانت غرفةً بالطول، مساحتها تقريبًا ثلاث حصائرَ، ولا يفوق ارتفاعها مترًا وثمانين سنتمترًا. وكان ر طويلَ القامة، فلا يستطيع أن

يتمطَّى فيها كما يشاء. زِدْ على أنَّها مزوَّدةٌ بالكهرباء من دون الماء. ولا تدخلها الشمس.

كنت أعرف أنَّ قبو منزلي أرحبُ وأريَحُ للإقامة، لكنَّ الجيران كلّهم كانوا على علمٍ بوجوده. كما أنَّ بالإمكان دخوله من الخارج، لمن تواتيه الجرأةُ على عبور الجسر المتداعي. فإن فُتِّش البيتُ، سيكون القبوُ أكثرَ مكانٍ مثيرٍ للشُّبهة فيه. أمَّا بالنسبة إلى الغرفة السرِّيَّة، فحتى حين أتت شرطة الذاكرة تُصادر وثائق أبحاث أبي، لم تنتبه لوجود مخزن الكتب ذاكَ. ولكي أُنقذ ر، كان ينبغي أن أختار آمَن مكانٍ في العالم.

كتب الجدُّ، على ورقةٍ بيضاء من يوميَّة العبَّارة، بالترتيب، الخطوات التي ينبغي أن يقوم بها كلٌّ منّا.

أوَّلًا، أنا:

١ ـ التخلُّص من الوثائق المكدَّسة في الغرفة: حذارِ، هي وثائق تتعلَّق بالطيور.

٢ ـ تنظيف المكان وتعقيمه. النظافةُ مهمَّة. إن مرضَ ر، فلن يعودَه أيّ طبيب.

٣ ـ توفير بساطٍ لحجبِ المدخل. بساط يكون بسيطًا ومبتذلًا، بحيث لا يثير الرغبة في قلبه لرؤية كيف صُنعت الرسوم عليه.

٤ ـ توفير اللوازم الضروريَّة للحياة اليوميَّة: كبلٌ كهربائيّ، مصباحٌ، فِراشٌ، غلَّايةٌ كهربائيَّة، أواني شاي. تجنُّب شراءِ هذه الأشياءِ ما أمكن. إنّ شراء أشياء كثيرة يُثير الشُّبهات.

٥ ـ التفكير في طريقةٍ للإتيان بـ ر من غير أن ينتبه أحد. وهذا أهمُّ المهامّ وأصعبُها.

ثانيًا، الجدّ:

١ ـ تركيب نظام تهوية. حاليًّا، ليس ثمَّة ما يكفي من الهواء.

٢ ـ الحرص على استعمال أدنى كمِّيَّةٍ من الماء. بشيءٍ من البراعة، سوف نجد طريقةً.

٣ ـ إحاطة المكان بورقٍ سميكٍ، لعزله صوتيًّا.

٤ ـ إقامة مرحاضٍ. سيستلزم الأمر القيام بأشغالٍ كبرى، وينبغي الحرص على السرِّيَّة.

٥ ـ اتِّخاذ ر صديقًا: لأنَّ باستثنائنا نحن الاثنيْن، لن يتواصلَ مع أحد.

ناقشنا التفاصيل كلّها. وتأكَّدنا من أنَّنا لم نغفل شيئًا بخصوص تهيئة المخبأ واصطحاب ر إليه. تصوَّرنا كلّ العوائق الممكنة، لكي نفكِّر في طرق تجاوزها. إن فُتِّشنا أثناء نقل الأدوات اللازمة للأشغال؛ إن شمَّ كلب الجيران شيئًا؛ إن قابل ر مُلاحقي

الذكريات قبل أن يصير كلّ شيءٍ جاهزًا... كانت تتقاذفنا كلّ الهواجس.

ـ هيَّا، لنأخذ استراحةً ونأكل الكعكة.

صبَّ الجدُّ في الإبريق الماءَ المغليّ في الموقد، وفي انتظار أن يُنقع الشايُ، أخذ يقطعُ الكعكة.

ـ إنّ أغلب هواجسنا في هذا العالم، لا أساس لها.

ـ تعتقد؟

ـ نعم. دعيني أتولَّ الأمر. وسننجح.

ـ أنت محقّ. سننجح.

وضع الجدّ في طبقي أكبرَ قطعةٍ. كان مقتنعًا بأنَّني ما أزال شابَّةً في طور النموِّ، فيقدِّم لي الكثير من الطعام. بجانب الطبق، وُضعت منشفةُ ورقٍ بيضاء. كان مفرش المائدة منشًّى جيِّدًا، وفي السوليفور(6) ، وُضع غُصنُ توتٍ صغير، من تلك الأشجار التي كثيرًا ما أصادفها على قمَّة التلِّ.

قرأنا مرَّةً أخرى الملاحظات التي دوَّناها على يوميَّة العبَّارة، كي نحفظ كلّ شيء. ثم، لكي يتخلَّص من الأدلَّة، مزَّق الجدُّ الورقة وألقى بها في النار. وما لبثت الورقة أن التوَت، وقد أحاطت بها النيرانُ، ثم ذوت. أخذنا نتأمَّل اللهبَ برهةً صامتَيْن. كنّا هادئيْن ونحن على مشارف أحداثٍ جسامٍ. وكان الجوّ رائقًا في المقصورة التي صارت تضوع برائحة الكعكة الطيِّبة.

* * *

انطلقنا إلى التنفيذ في اليوم التالي. قسَّمت وثائق المخزن مجموعاتٍ صغيرةً، لأستطيع إحراقها في محرقة الحديقة كأنَّها مجلَّات. أمَّا البساط، فقد قرَّرت استعمال بساط الصالون. أمَّا لوازم الحياة

اليوميَّة، فقد استعنت بما هو موجودٌ في المنزل. لكن تهيئة الغرفة لم تكن بالأمر اليسير. إذ يُشاع أنَّ شرطة الذاكرة قد اتَّصلت بجميع النجَّارين في الجزيرة، وطلبت منهم أن يُعلموها بأيِّ طلب تهيئةٍ يبدو لهم مشبوهًا. فإن اكتُشف أنَّنا نقوم بأشغالنا بأنفسنا، في سرِّيَّة، فسوف يُشتبه فينا بلا ريب.

لذلك، كانت أعصابنا قد أُفلتت وأُرهقت من نقل الأدوات والموادّ فقط. وقد أبدى الجدُّ براعةً في نقل أكبر عددٍ ممكنٍ من الأشياء، من دون أن يُثير الانتباه. كان يحشر بين ظهره وسترته قطعًا من خشبٍ، ويحزمُ إلى كليتيْه كيسَ مساميرَ ومفصّلات وبراغي، ويُخفي في جيوبه كلِّها أدوات. بحيث إنَّه متى ما وصل إلى المنزل، يبدو عليه الارتياح.

يضحك إذَّاك، وظهره مشدودٌ بشكلٍ عجيب، بعد أن يُخبرني، بأدبه المعتاد، أنَّه مع كلِّ حركةٍ كان يحرِّك بها دوَّاسة درَّاجته، كان

جزءٌ من جسمه يطقطق، حتى ليُخيَّل إليه أنّ عظامه تتناثر في كلِّ اتِّجاه!

كان يشتغل ببراعة. كان دقيقًا، وحذرًا، ومثابرًا، والأهمّ من ذلك كلّه، كان سريعًا. في جدولٍ رسمه سلفًا في يوميَّة السفينة، كان يحدِّد دائمًا جدولةً زمنيَّةً، ثم بعد أن يرتِّب أفكاره ينطلق إلى الاشتغال مباشرةً. أحدث حُفَرًا في الجدران، ومدَّ فيها أنابيب ربطها بتلك الموجودة في السقف. سحب خيطًا كهربائيًّا جديدًا، وثبَّت مقبسًا، ونشر الخشب الرقيق ثم سمَّرَه.

وكنت أنا أساعده في حدود إمكاناتي، حريصةً على ألَّا أزعجه. وكي لا يُنتبَه إلى الصوت، كنت أشغِّل في المكتب أسطواناتِ موسيقى سيمفونيَّة. وكان الجدّ يختار نقطة الذروة، أي تلك اللحظة التي تعزف فيها الآلاتُ جميعًا، كي يستعمل المطرقة أو المنشار. واصلنا الاشتغال صامتيْن، من غير أن نتوقَّف للغداء.

اكتملت الأشغال عشيَّة اليوم الرابع. جالسَيْن وسط الغرفة، ألقينا نظرةً شاملةً على المكان. كانت النتيجة مُرْضيةً أكثر ممَّا توقَّعنا. المكان ظريفٌ وبسيطٌ ودافئ. أحسنّا صنعًا باختيار ورق جدارٍ رمليٍّ اللون. لم نستطع لضيقِ المكانِ حَلًّا، لكنْ وفَّرنا شروط العيشِ الدنيا في وسطٍ متراصٍّ. ثمَّة سريرٌ، ومكتبٌ ومقعد، وفي ركنٍ المرحاضُ يحوطُه الخشب الرقيق. ومن صفيحةٍ بلاستيكيَّةٍ، يسيل الماء ليصبّ في حفرة الصرف الصحّيّ. وبلا شكٍّ، ستكون مهمَّتي اليوميَّة ملء تلك الصفيحة.

خطرت ببال الجدّ فكرةُ نظامٍ صوتيٍّ للتواصل. فوصل الغرفة الخفيّة بالمكتب عبر أنبوب مطَّاط، ينتهي كلّ طرفٍ من طرفيْه بقِمعٍ من أمثال تلك التي نستعملها في المطبخ. حين نقرِّبُ الفمَ من القِمع، نستطيع أن نتحدَّث من غير أن نرى بعضنا بعضًا، تمامًا كما في الهاتف.

كانت شراشف السرير وأغطيته، وقد غُسلت حديثًا، نظيفةً وناعمةً. والمكتب والكرسيّ يضوعان برائحة الخشب الجديد الطيِّبة. وضوءُ المصباحِ، البرتقاليُّ الشاحبُ، يُنير الغرفة بما يكفي. أطفأنا النور قبل أن نرتقي الدرجات الثلاث ونرفع اللوح المربَّع الذي يحجب المدخل إلى الغرفة. لم يكن من اليسير النفاذ من الثقب الضيِّق. ينبغي أن تُدخل كتفيْك، مع الاستدارة على أحد الجانبيْن، ثم تسحب نفسك مستندًا على يديْك. أعانني الجدّ. تساءلت قلقةً عمَّا إذا كان ر بقامته الطويلة، قد يعلق، لكنَّني انتبهت إلى أنَّ الأمر ليس بالمشكل الكبير، ما دام لن يخرج من مكمنه إلَّا نادرًا.

أعدنا اللوحَ إلى موضعه، قبل أن نغطِّيه بالبساط. فاستعادت الأرضيَّةُ مظهرها الاعتياديّ. مشيتُ فوق البِساط لأتفحَّص الأمرَ. لم يكن ثمَّة ما يدلّ على وجود مخبإٍ سرِّيٍّ تحت.

(6) إناء زينةٍ يتَّسع لزهرةٍ واحدة.

١٠

لما أنهيْنا الأشغالَ، قلت لـ ر حريصةً على ألَّا يظهر أيُّ تغييرٍ في تعابير وجهي أو نبرة صوتي، أي كلَّمته بالطريقة نفسها التي كان من الممكن أن أكلِّمه بها وأنا أدعوه إلى عشاء:

. عندي مكانٌ.

كان بهو دار النشر غاصًّا بحشدٍ من الناس. وهنا وهناك، تتناهى إلى الأسماع أصواتُ الضحك وطقطقةُ فناجين القهوة، ورنَّاتُ الهواتف.

كان عليَّ استغلال تلك الجَلَبة لكي أبسط له سريعًا دعوايَ.

. يمكنك أن تثق فيَّ، ستكون في مأمَن. جهِّز نفسَك من الآن.

وضع ر على المنفضة السيجارة التي كان يحملها بين إصبعيْه، ونظر إليَّ من دون أن يرمش.

. عندكِ مخبأٌ لي أنا؟

. طبعًا.

. كيف وجدتِهِ؟ ليس الأمر باليسير.

. لا تشغل بالك بهذا. عليك الآن أن تعجّل، قبل أن يحلّلوا جيناتك...

قاطعني:
. لقد اتّخذتُ قراري.

. أيُّ قرار؟

ـ لم أُخبر زوجتي بشيء. هي حامل. سنُرزق بطفلٍ بعد أربعة أسابيع. لا أستطيع أن أذهب وأتركها وحيدةً، والأصعب من ذلك، لا أستطيع أن أصطحبها معي إلى المخبأ. لا أحدَ يستطيع أن يأويَ امرأةً حاملًا.

ـ اختبئ وحدك. وسوف يكون في اختبائك مصلحة الجميع: أنت وزوجتك وطفلك.

ـ لكنْ، سواء اختبأت أم لم أختبئ، ماذا سيتغيَّر في الأمر؟ وإن اختبأتُ، متى سيصير بوسعي الخروج مجدَّدًا؟...

كان الدخان الصاعد من المنفضة يتراقص بيننا. نَقَر ر بقدَّاحته على الطاولة ثلاث نقراتٍ، وكأنَّما قد يعينه النقرُ على استعادة هدوئه!

ـ لا أحد يعلم ما يخبِّئهُ المستقبل. قد يختفي مُلاحقو الذكريات أنفسُهم ذات يوم. ما دام كلّ ما على هذه الجزيرة ينتهي به المطاف إلى الاختفاء.

ـ لم أكن أتوقَّع منكِ هذا العرض، لذلك أجدني في حيرةٍ من أمري.

ـ نعم، طبيعيّ. لكنْ كلّ ما أريدك أن تفكِّر فيه الآن، هو الهروب من مُلاحقي الذكريات. خوفك على زوجتك طبيعيٌّ، لكنْ يكفي أن نوحِّد جهودنا لكي نساعدها على تجاوز المحنة. وطبعًا، سأدعمها أنا نفسي. يكفي أن تنجوَ من مُلاحقي الذكريات، لكي تعود إلى زوجتك وطفلك ذات يومٍ. ثم، هل فكَّرت في مصير الرواية التي أكتُبها، إن أُلقيَ عليك القبض؟

انتبهتُ إلى أنَّ صوتي أخذ يرتفع أكثر فأكثر، فاستنشقتُ نَفَسًا عميقًا، وشربتُ ما تبقَّى من قهوتي.

أوراقٌ تطفو على مياه النافورة وسطَ البهو الداخليّ. قِطٌّ أسود يرقد عند حافَّتها المبنيَّة بالآجرّ. الأزهار المزروعة ذبلت، ونثرت الريحُ في كلِّ اتِّجاهٍ قطعَ إعلانٍ ممزَّق.

سألني خافضًا عينيْه على الولّاعة في راحته:

ـ وأين هذا المخبأ؟

أجبته الجواب الذي اتَّفقنا عليه أنا والجدُّ:

ـ لا أستطيع أن أُخبرك مسبقًا. من الخطر أن تعرف أكثر ممَّا ينبغي. إن عرفتَ، جازفنا بانكشاف السرّ. الأسلمُ هو أن تختفي من غير أن تقول كلمة، من غير أن تحضِّر نفسك، وكأنَّما تبخَّرت. تفهمني؟

هزَّ رأسَه موافقًا.

ـ وبالطبع، يمكنك أن تثق فيّ. ليس ثمّة ما يدعو للريبة. لقد اعتنيت بكلِّ شيء.

ـ يبدو أنَّكِ قد وضعتِ نفسكِ في وضعيَّةٍ خطيرةٍ، بسببي.

كان مخطوطي ما يزال موضوعًا على الطاولة. وفوقَه، جنبًا إلى جنب، قلم الحبر الذي يستعمله، وقلمِي الرصاصُ. سحق سيجارته، ورفع عينيْه ببطء. لم يبدُ عليه قَلقٌ كبير. لا بل إنَّه كان يبدو بالأحرى هادئًا متعقِّلًا. فقط، من حينٍ إلى آخر، يعكس ضوءُ البهو الداخليّ ظلالًا تحفُّ عينيْه، فتُضفي على وجهه سيماء الكآبة.

ـ كلَّا. كلُّ ما أريده هو أن أستمرّ في كتابة رواياتٍ لك.

أردت أن أبتسم له، لكنّ شفتيَّ المتصلِّبتيْن عجزتا عن ذلك. واصلت الكلام دفعةً واحدة:

. حسنًا، سأبسِّط لك الخطَّة. بعد غدٍ، الأربعاء، تعالَ، في الساعة الثامنة صباحًا، إلى نقطة مراقبة التذاكر بالمحطَّة المركزيَّة. يبدو الأمر مستعجَلًا، لكنْ لا بدَّ من أن يتمّ كلّ شيءٍ بعد غدٍ. إن طال أمدُك، كثُرت تحضيراتُك. ولستَ تحتاج تحضيرًا. يكفيك أن تنقل جسمَك. تعالَ بالزيِّ الذي تقصد فيه بالعادة عملك، وضع أدواتك في حقيبةٍ وثائقك. لأنَّني أستطيع دائمًا أن أقصد بيتك فأطلب من زوجتك ما تحتاجُه وآتيك به في مخبئك. ثم، أريد منك أن تشتري صحيفةً اقتصاديَّة، وتقرأها أمام محلّ الفطائر عن يمينك، ما إن تجتازَ نقطةَ مراقبةٍ التذاكر. في تلك الساعة يكون محلّ الفطائر ما يزال مقفلًا، فلا تكترث لذلك. بعد لحظةٍ، سيقترب منكَ شيخٌ. يرتدي سروالًا من مخملٍ وسترةً، ويحمل كيسَ ورقٍ من المِخبز. وتلك هي العلامة التي سوف تهتدي بها إليه. فلا تكلِّمه، وإنَّما انتبه إلى إشارةٍ من عينه. حين يغمز لك، لن يكون عليك إلَّا أن تتبَعه من دون أن تنبس بكلمة. ولا شيء غير ذلك.

* * *

صباح الأربعاء، كان الجوّ ممطرًا. مطرٌ عاصفٌ، لدرجة أنَّ الجزيرة بأكملها بدت على وشك أن تختفي في دوّامات البحر. عبثًا كنتُ أُزيح الستائر. لم أكن أرى شيئًا سوى ضبابٍ من قطرات المطر. لم أكن أدري ما إذا كان الأمرُ جيِّدًا أم سيِّئًا بالنسبة إلى خطَّتنا. ربّما قد نفيد من الجوّ في تشتيت انتباه شرطة الذاكرة، لكنْ في الآن نفسه، قد يؤدِّي سوء الطقس إلى إبطاء حركة ر والجدّ. على أيِّ حالٍ، لست أملك إلَّا الانتظار.

أدفأتُ المنزل كلّه بأن ضبطتُ لهبَ الموقد في أعلى درجاته، ملأتُ بالماء المغليّ القنِّينة العازلة، وحتى أتمكَّن من أن أفتح لهما البابَ ما إن يظهر شخصاهُما، ما انفككت أراقب الشارع من نافذة البهو. يحتاج المرء خمسًا وعشرين دقيقةً تقريبًا لكي يقطع مشيًا المسافةَ من المحطَّة المركزيَّة إلى البيت، لكنَّني لا أعلم كم سيستغرقان من الوقت لقطعها في هذا الجوِّ العاصف!

بُعَيْد الثامنة وخمس وعشرين دقيقة، انتابني الانطباع فجأةً أنَّ حركة عقارب البندول قد تباطأت. واقفةً في البهو، كنت أناوب النظرَ بين النافذة وبندول حجرة الطعام. ولأنَّ زجاج النافذة كان مضبَّبًا، فقد كان عليَّ أن أمسحه باستمرارٍ بكمّ سترتي. وما إن أمسحه حتى تغطِّيه الرطوبة من جديد. ولم أكن أرى غير الأمطار. أشجار الحديقة، والسياج، وأعمدة الكهرباء، والسماء، كلّ ذلك قد حجبَه ستارٌ من أمطار. ستارٌ سميكٌ خانق. صلَّيت راجيةً أن يتمكَّن ر والجد من اختراق هذا الستار من دون خسائر. منذ زمنٍ بعيدٍ لم أُصلِّ.

كانت الساعةُ قد تجاوزت الثامنة وخمسًا وأربعين دقيقة، حين وصلا أخيرًا. فتحت قفل الباب، فاندفعا إلى الداخل يسندان كتفَي بعضهما بعضًا. كانا مبلَّليْن تمامًا. ويقطران من كلّ موضع. الشعر التصق بالجبين، والملابس تغيَّر لونُها، والقدمان تعومان في الحذاء. قدتُهما أوَّلًا إلى حجرة الطعام، فأجلستُهما أمام الموقد.

كانا ما يزالان يشدّان بحزمٍ على الصحيفة الاقتصاديَّة وكيس المخبز الورق، علامتَيْ تعارفهما. لكنَّ العلامتيْن وقد تبلَّلتا بدورهما صارتا تبدوان أشبه شيءٍ بمناشف بالية. وحتى الخبز الفرنسيّ بداخل الكيس تعجَّن لفرط ما تبلَّل، فصار غير قابلٍ للأكل.

نزع ر معطفه، وجلس بتثاقلٍ على مقعدٍ، وأغمض عينيْه محاولًا بجهدٍ التقاط أنفاسه. وحتى يستعيد ر دفءَ جسدِه بأسرعِ ما يمكن، وجَّهَ الجدُّ الموقدَ صوبَه، قبل أن يأتيَ ببطَّانيَّةٍ ويضعها على كتفيْه. وكلَّما تحرَّك، كان يقطرُ ماءً. وما لبث البخار أن تصاعد من جسديْهما.

ظللنا لبرهةٍ نحدِّق في الموقد ونُنصتُ إلى وقع المطر. وعلى الرَّغم من أنَّ لدينا الكثير ممَّا يُقال، إلَّا أنَّنا كنَّا نحسبُ أنَّنا إن فتحنا أفواهنا، فلن يخرج منها شيءٌ لفرط ما ترزح تحتَه صدورُنا من ثقل. ومن كوَّة الموقد، كانت تتراءى الشعلةُ تتراقص حمراءَ صافيةً.

قال الجدّ مخاطبًا نفسَه:

ـ لقد مرَّ كلّ شيءٍ على ما يرام. كان المطرُ يحجب كلّ شيءٍ.

رفعنا رأسيْنا أنا و ر في وقتٍ واحد.

قلتُ:

ـ سعيدةٌ لأنَّ كلّ شيءٍ تمَّ بدون مشاكل.

ـ ثم، خشيةَ أن نُتعقَّب، موَّهتُ سالكًا طريقًا طويلةً.

قال ر:

ـ يا لها من مفاجأةٍ، ما ظننتُ أنَّ المخبأ في منزلك.

كنَّا نتكلَّم جميعًا بصوتٍ خفيضٍ أجشّ. كأنَّما يتملَّكنا الفزعُ من كارثةٍ قد تحلّ بنا إن نحن أزعجنا هدوء الحجرة.

. لا تجمعني أيّ علاقةٍ بأيّ تنظيمٍ سرِّيّ، أو أحد. إنَّما هي مبادرةٌ فرديَّة. آه، حقًّا. اسمحا لي أن أعرِّفكما، أحدكما على الآخر. الشخص الماثل أمامك يعتني بعائلتي، حتى قبل ولادتي. إنَّه شريكنا الوحيد.

أخرجا ذراعيْهما من تحت البطَّانيَّات لكي يتصافحا.

قال ر:

. لا أدري كيف أشكرك يا سيِّدي.

ردَّ الجدُّ بهزَّةٍ من رأسه وهو يُعيد ذراعَ ناشري تحت البطَّانيَّة.

قلت:

. الآن، سأعدُّ لكما مشروبًا ساخنًا.

سخَّنت الأواني بعناية، ثم أعددتُ شايًا بكمِّيَّةٍ من الأوراق أكثر من المعتاد. ثم شربناه على مهل. وضرب الصمت أوتاده حولنا مرَّةً أخرى. بدأ جسداهما يستعيدان الدفء، واستعاد شعر ر مرونته، ووجنتا الجدّ حُمرتَهُما. وما زال المطرُ يهطلُ محتدًّا.

ولما تأكَّدت من فراغ الفناجين الثلاثة، بادرت:

ـ سوفَ أقودك إلى غرفتك.

* * *

فلمَّا أزحتُ البساط ورفعت اللوح، أطلق ر صيحةَ دهشةٍ:

ـ كأنَّها مغارةٌ في عُرض السماء.

ـ آسفة، المكان ضيِّقٌ جدًّا، لكنْ فيه ستكون في مأمنٍ. لن تُرى من الخارج، ولن تُسمعَ.

نزلنا الدرجات ثلاثتُنا، الجدُّ في المقدِّمة، أتبعه أنا، ثم ر في الخلف. بالفعل، كان المكان ضيِّقًا علينا نحن الثلاثة. وضع ر على السرير حافظةَ وثائقه الثقيلةَ والمنتفخة. بالعادة، تكون الحافظة ممتلئةً بمخطوطات، وبرو؟ات للتصحيح، أمَّا الآن، فأظنُّها تحمل وثائقَ مختلفة، وثائقَ أهمّ بكثير.

بيَّن الجدّ لـ ر طريقة اشتغال الموقد الكهربائيّ، والمرحاض، والنظام التواصليّ عن طريق القِمع، وغيرها من التجهيزات. وكلَّما شرحَ الجدُّ نقطةً، كان ر يومئ برأسِه موافقًا.

. طبعًا، لن تكون الإقامة مريحةً دائمًا، لكنْ ما دام جدِّي سيعتني بك، فيمكنك أن تطمئنَّ. إذ ليس ثمَّة ما لا يستطيعُ صنعَه بيديْه.

ربَّتُّ على ظهر الجدّ. فهرش جلدَ شعره والخجلُ لا يزايله. ارتسمتْ على شفتَي ر ابتسامةٌ خفيفة.

فلمَّا فرغنا من توضيح الأساسيَّات، قرَّرنا أن نصعد أنا والجدُّ. إذ لما كان ر قد تعرَّض لتوتُّرٍ أكبر ممَّا تعرَّضنا له نحن، فلا بدَّ من أنَّه بحاجةٍ إلى الراحة. ثم إنِّي فكَّرت أنَّه بحاجةٍ إلى أن يتأمَّل وحيدًا فراقَه المتعجِّل عن أحبَّائه.

قلت له وأنا أستدير صوبه وقد بلغت منتصف الدرجات:

ـ سوف آتيك بالغداء منتصف النهار. فإن احتجت أيّ شيءٍ كلِّمني عبر القِمع.

أجابني:

ـ شكرًا.

أعدتُ اللوحَ، وسحبتُ البساطَ فوقه. لكنَّني بقيت لبرهةٍ واقفةً أتأمَّل الموضعَ تحت قدميَّ من دون أن أستطيع حراكًا. ظللت أستذكر كلمة «شكرًا» مرَّاتٍ ومرَّات. صوته يتردَّد في ذهني كأنَّما يستغرق وقتًا ليصعد من أعماقِ مستنقع.

١١

مضت عشرة أيَّامٍ منذ استقرَّ ر في الغرفة السرِّيَّة. لكنْ يبدو أنَّنا ما نزال نحتاج وقتًا كي نتأقلم مع هذه الحياة غير العاديَّة. متى أغيِّر الماء الساخن في القنِّينة العازلة؟ في أيِّ ساعةٍ أقدِّم الطعام؟ كم يومًا يلزمُ قبل تغيير الملاءات؟ كان يلزمنا الفصلُ في هذه التفاصيل الصغيرة.

حتى وأنا جالسةٌ إلى مكتبي، لم أكن أستطيع أن أحيد بانتباهي عن موضع الغرفة السرِّيَّة، لدرجة أنَّ روايتي كانت تتقدَّم متعثِّرةً. كنت أتساءل عمَّا إذا لم يكن يشعر بالملل، ويرغب في الدردشة مع أحدهم، ثم ما ألبث أن أقول لنفسي إنَّني ينبغي أن أتركه وشأنَه؛ أُمسكُ القِمع بين يديَّ وأنا نَهبٌ لكلِّ الفِكَر. وسدًى أُرخي السمعَ: لم يكن يتناهى إليَّ أيّ شيءٍ ممَّا يجري بالأسفل.

وكان هذا الهدوء يزيد من إحساسي بحضوره. على أنَّ الأيَّام ما انفكَّت تمضي رتيبةً. في التاسعة صباحًا، كنت أحمل إليه طبق الإفطار والقنِّينة العازلة مليئةً بالماء المغليّ، وأدقُّ على اللوح. وآنذاك، أستلم منه صفيحة البلاستيك فارغةً فأملأها ماءً. الغداء في الواحدة. وإن احتاج شيئًا، يُعطيني نقودًا ولائحةً، وأتسوَّق أثناء جولتي المسائيَّة. كان يطلب الكثيرَ من الكتب، لكنْ أيضًا شفرات حلاقة، وملابس غيارات، وعلكةً يستعين بها على الإقلاع عن التدخين، إذ كان مستحيلًا التدخينُ في الغرفة السرِّيَّة الصغيرة، ويطلب كذلك دفاتر وغسول شعر. العشاء في السابعة. الاستحمام مرَّةً كلّ يوميْن بواسطة وعاء ماءٍ ساخن. ثم لا يبقى إلَّا انتظارُ أن ينجليَ الليل الطويل.

أحيانًا، عندما أقصد الغرفة السرِّيَّة لاستعادة صينيَّة العشاء، أقضي فيها برهةً. وإن كان عندي بسكويتٌ جيِّدٌ، يحدث أن أتناوله معه. نجلس على السرير، وأضع البسكويت على الطاولة، نتحدَّث بغير نظامٍ ونحن نمدّ أيدينا، بين الفينة والأخرى، إلى قطع البسكويت.

سألته:

. هل تشعر ببعض الاستقرار؟

أجابني:

. نعم، بفضلك.

كان يرتدي سترةً سوداءَ بسيطة. وعلى الرفوف المثبَّتة على الجدار، وُضعت مرتَّبةً مرآةٌ ومشطٌ ومرهمٌ وساعةٌ رمليَّةٌ وتميمة. وعند رأس سريره كومةُ كتبٍ. سيرةُ مؤلِّفٍ موسيقيٍّ منتحر، كتابٌ متخصِّصٌ في الفلك، روايةٌ تاريخيَّةٌ تصف الفترةَ التي كان فيها الجبل الشرقيُّ بركانًا نشيطًا. كانت كتبًا قديمةً جدًّا.

. إن واجهتَ أيّ مشكلٍ لا تتردَّد في طلبي.

. لا تشغلي بالك. أنا في أفضل حالٍ.

لكنْ بالطبع، لم يكن يبدو عليه بعدُ التأقلمُ مع الغرفة. حين كان يتحرَّك دونما انتباهٍ، كان يصطدمُ بالمصباح أو الرفّ أو جَفْنة المرحاض، حتى إنَّه يظلّ طيلة الوقت محنيًّا، واضعًا يديْه على ركبتيْه، وعلى وجهه مسحةُ انزعاج. وكان جليًّا أنَّ السرير ضيِّقٌ، ولا زهورَ أو موسيقى أو أيّ شيءٍ يخفِّف وطأة الجوِّ العامّ. كأنَّما ثمَّة قطيعةٌ بين الجوِّ حولَه، والجوِّ في الغرفة: جوّان راكدان متجاوران، لا يختلطانِ أو يتناغمان.

قلت وأنا أُشير إلى بسكويت الكوكيز على الطاولة:

ـ تفضَّل.

أثناء فصل الشتاء، قَلَّت المؤونة وصعُب الحصول على موادّ مُسَكَّرَةٍ. وهذه الحلويات إنَّما يصنعها الجدُّ من الشوفان الذي يعطيه إيَّاهُ المزارعون من معارفه.

التهم قطعةً منها لُقمةً واحدة.

قال:

ـ إنَّها لذيذةٌ جدًّا.

أجبته:

ـ بوسع الجدّ أن يكسب عيْشه كطبَّاخٍ.

تقاسمنا كمِّيَّة البسكويت القليلة. تناول قطعتيْن وأنا أربعًا. إذ رفض رفضًا قاطعًا تقاسم القطع معي بالتساوي، متعلِّلًا بأنَّه لا يشعر بالجوع لقلَّةِ ما يبذله من جهدٍ.

كان جهاز التدفئة الكهربائيّ مضبوطًا على أدنى درجاته، ومع ذلك، لم نكن نشعر بالبرد. وحين نصمتُ، أسمع تنفُّسَه قريبًا جدًّا منِّي. ليس لنا هنا إلَّا أن نجلس جنبًا إلى جنبٍ. وحين يعرض لي أن أتأمَّلَه، أرى صورتَه بارزةً في ضوء المصباح البرتقاليّ.

سألته من دون أن أحيد عنه ببصري:

. هل لي أن أسألك سؤالًا؟

أجابني:

. أجل، بالطبع.

. أيُّ إحساسٍ هو ألَّا يفقدَ المرءُ شيئًا ممَّا في قلبه؟

رفع بطرف سبَّابته إطار نظَّارته قبل أن يضع يده تحت ذقنه.

. سؤالٌ صعب.

. ألا تعصر تلك الأشياءُ القلبَ حتى يخنقنا الضِّيقُ؟

. كلَّا، لا ينبغي أن تقلقي بهذا الشأن. ليس للقلب حدٌّ ولا قرار. لذا يستطيع أن يقبلَ أيّ شكلٍ، فينزله إلى عمقٍ لا قرارَ له. الأمر أشبه بالذكريات، كما تعلمين.

. كلّ الأشياء التي اختفت من الجزيرة ما تزال بأكملها محفوظةً في قلبك، أليس كذلك؟

. لا أستطيع أن أجزم. لأنَّ الذكريات لا تتراكم فحسب، وإنَّما أيضًا تتغيَّر مع الزمن. وأحيانًا، يندثر بعضها. لكنَّ اندثارها يختلف اختلافًا جذريًّا عن ذاك الدمار الذي يخلِّفه فيكم أنتم كلُّ اختفاء.

سألته مداعبةً أظافري:

. مختلفين كيف؟

. ذكرياتي لا تتبدَّد تمامًا، كأنَّما اجتُثَّت من أصلها. فحتى وإن بدت أنَّها اندثرت إلَّا أنَّ بقيَّةً مبهمةً منها تظلُّ في مكانٍ ما. إنَّها مثل تلك البذور الخفيَّة التي قد يحدث أن يهطل عليها المطرُ فتنبت من جديد. ثم، حتى وإن غابت الذكريات، فإنَّ شيئًا منها يظلُّ حاضرًا في القلب. رجفةٌ، أو ألمٌ، أو فرحةٌ، أو دمعةٌ... تفهمين؟

كان يتحدَّث منتقيًا كلماتِه بعناية. كأنَّما يزن فوق لسانه الكلماتِ التي تخطر بباله، كلمةً كلمة، قبل أن ينطق بها.

قلت له:

. أتخيَّلُ أحيانًا ما سيحدث لو كان بمقدوري أن آخذ قلبك بين يديَّ لأتفحَّصه. أتصوَّر أنَّه سيكون بالكاد بحجم راحة يدي، وسأشعر به مثل جيلاتين هشّ. بحيث إنَّ أدنى تناولٍ فظٍّ قد يقوِّضه، لكنَّه قد ينزلق من يديَّ ويسقط إن لم أمسك به بما يكفي من القوَّة، لذا سأمدّ يدي إليه بحرصٍ. وستميِّزُهُ كذلك خصيصةٌ مهمَّة، هي الدفء. فما دام قد كان مخفيًّا في جهةٍ ما من الجسد، فلا بدَّ من أنَّ حرارته ستكون أعلى بقليلٍ من الحرارة العاديَّة. سأغمض عينيّ لأقدِّر حرارته التي تنبعث من كلِّ جانب. وإذَّاك، سأستعيد ذكرى الأشياء التي اختفت، شيئًا شيئًا. سأشعر في يديَّ بالذكريات التي حفظتَها أنت. ألا ترى أنَّ الأمر سيكون رائعًا؟

سألني بدوره:

. هل ترغبين في استعادة الأشياء الضائعة؟

أجبته بصراحة:

. لا أدري حقًّا. لأنَّني لا أعرف ما يجدر بي أن أتذكَّره. إنَّ الاختفاءات شاملة. لا تُبقي حتى تلك البذرة. فلا يبقى للمرء إلَّا أن يسعى إلى التأقلم، إلى العيش بقلبٍ يابسٍ تملأه الثغرات. لذا أصبو إلى ذاك الإحساس الجيلاتينيّ، إلى القلب الذي يُبدي ضربًا من المقاومة، ويُعطي انطباعًا زائفًا بإمكان النفاذ إلى باطنه شفَّافًا، وكُلَّما عُرض للنور تصرَّفَ في أشكالٍ شتَّى.

. الحقّ أنَّ من يقرأ رواياتك، لا يظنُّ أنَّ قلبك تيبَّس.

. لكنْ، من الصعب أن نكتب قصصًا على هذه الجزيرة. يبدو أنَّه عقب كلّ اختفاءٍ، تزداد المسافةُ بين الكلمات تباعدًا. إن كنتُ ما أزال أكتب، فربَّما لأنَّ بقربي دائمًا قلبَك الذي لم يمّحِ منه شيء.

قال:

ـ ما أسعدني إذن.

رفعتُ يديَّ باسطةً راحتيْهما إلى الأعلى. حدَّقنا فيهما معًا، من دون أن نرمش، كأنَّما تحملان بالفعل شيئًا ما. لكنْ عبثًا كان تحديقُنا، لم يكن يطفو فوق راحتيَّ إلَّا الفراغُ: أشدّ الأشياء ابتذالًا.

* * *

في اليوم التالي، تلقَّيت اتِّصالًا من دار النشر. كان المتَّصلُ الناشرَ الجديد. كان أكبر سنًّا بقليلٍ من ر، قصيرًا ونحيلًا. وكان وجهه مفرط البساطة، بحيث لا يسهل فكُّ تعبيراته. ولما كان يتكلَّم بصوتٍ خافتٍ، ومن دون أن يوفي النطقَ حقَّه، فقد كانت كلماتٌ كثيرةٌ لا أسمعها.

ـ متى تتوقَّعين الانتهاء من روايتك؟

أجبته وفي ذهني أنَّ ر لم يكن ليسألني البتَّةَ سؤالًا مماثلًا:

ـ ليست لديَّ أدنى فكرة.

ـ القصَّةُ تبلغ الآن مرحلةً حسَّاسةً، أظنُّ أنَّ عليكِ مواصلة الكتابة بحذرٍ. وما إن تتقدَّمي أكثر، أعلميني. أتحرَّقُ لقراءة التتمَّة.

حتى لا أُفلتَ كلمةً ممّا كان يقوله، ملتُ إلى الأمام، مسندةً ذراعيَّ إلى الطاولة.

سألته متظاهرةً بأنَّني لا أعرف شيئًا:

ـ بالمناسبة، أين ر، ناشري السابق؟

تمتم:

ـ لقد... (ثم شرب رشفةَ ماءٍ وأكمل) لقد اختفى.

حقًّا سمعتُ الكلمة بوضوحٍ: اختفى.

رددت حريصةً على ألَّا يُفلت منّي أكثر ممَّا ينبغي:

. اختفى...

. نعم، اختفى. ألم يقل لكِ شيئًا؟

هززتُ رأسي نافيةً:

. كلَّا، لم يقل شيئًا.

. حدث الأمر فجأةً، حتى إنَّ الجميع اندهش. ذات صباحٍ، لم يأتِ إلى المكتب. هكذا ببساطة. ولم يترك أيّ رسالةٍ. لم يكن فوق مكتبه إلَّا مخطوطك.

. حقًّا؟...

. نعم. لكنْ كما تعرفين، في هذه الأيَّام، ليس غريبًا أن يختفي الناسُ.

. لم أنتبه لشيء. لم أكن أظنُّ أنَّه...

. أنا أيضًا، ما كنت لأظنّ.

. لقد استعرت منه أسطوانات موسيقى، لن أستطيع إذن إرجاعها إليه.

. إن كنت ترغبين، بوسعك أن تعهدي بها إليَّ. قد تسنح لي الفرصة؟

. أرجوك، إن علمت بمكان تواجده، هل تتفضَّل بإخباري؟

وعدني قائلًا:

. نعم، إن علمت شيئًا، سأُخبرك به.

* * *

قرَّرنا أنّ الجدَّ سيتكفَّل بالتواصل مع زوجة ر. فمع صندوق الأدوات في مؤخّرة درَّاجته، قد يتظاهرُ بأنَّه عاملٌ يقدِّم خدماتٍ منزليَّة، فيتقرَّب منها من غير أن يُثير أيَّ شُبهة.

وكانت هي قد ذهبت، بعد اختفاء ر، عند عائلتها، لتلدَ عندهم، ويبدو أنَّ الأمر كان مخطَّطًا له من قبلُ، ولا علاقة له بما جرى. كان والداها صيدليَّيْن في حيٍّ شمال التلّ، حيّ كان فيما مضى ضاجًّا بوُرَش تكرير المعادن. لكنَّ اليومَ، وقد أُغلقت الوُرَش، صار الحيُّ قفرًا.

اتَّفقنا على اتِّخاذ المدرسة المهجورة نقطة اتِّصال. في الأيَّام التي تنتهي بالرقم صفر، ١٠، و٢٠، و٣٠، كانت تدسُّ في حجرة آلات تسجيل المعطيات الجوِّيَّة، التي كان يستخدمها تلاميذ المدرسة، ما تريد أن توصله إلى زوجها. ويذهب الجدُّ على درَّاجته ليأخذ التوصيلة، ويضع مكانها ما يرسله ر إلى زوجته. ذاك كان اتِّفاقنا.

قال الجدُّ لمّا عاد من المدرسة في أوَّل الأيَّام المنتهية بصفر:

. في الشتاء، تبدو الأحياء كلّها كئيبةً، لكنَّ الكآبةَ، هناك في ذلك الحيّ، أشدُّ منها في أيِّ مكانٍ آخر. بعدما دُرت حول التلِّ وبلغت الجانب الآخر، لفحَت خدَّيَّ ريحٌ زمهريرٌ، أليست تلك تخوم الرياح الموسميَّة؟ الشوارعُ خاليةٌ تمامًا، لا يكادُ يلقاكَ فيها إنسانٌ. لا شكّ أنَّ عدد القطط هناك يفوق عدد البشر. ليس ثمَّة إلَّا منازلُ من خشبٍ قديمةٌ، وأغلبها مهجور. لا بد من أنَّها هُجرت مُذ رحل عمّالُ وُرش التكرير. وأيّ كآبةٍ على تلك الوُرش! إنَّها أشبه ما تكون بكتل حديدٍ هائلةٍ، أو مداخن عظيمة، أو مبانٍ متداعيةٍ، أو بقايا مدينة ملاهٍ. حيثُما ولَّيتَ وجهك في الحيّ، لا بدَّ من أن ترى وُرشًا. تبدو كأنَّما ماتت في مكانها، وحيدةً مهجورةً، مثقلةً بطبقاتٍ من الصدأ.

قلت له وأنا أُفرغ بعض الكاكاو في فنجانه:

ـ الحقّ، إنيّ لم أكن أدري أنَّ الوضع هناك كما وصفتَه. ففي طفولتي، كان يسطع من هناك نورٌ برتقاليٌّ جميلٌ يزيِّن السماءَ ليلًا.

ـ أجل. مضى على الجزيرة حينٌ كانت فيه وظيفةُ مهندسِ الوُرش الوظيفةَ الأرفع. كلّ ذلك صار اليوم من الماضي. لكنْ بالنسبة لنا نحنُ، هكذا أفضل. شرطة الذاكرة تكاد لا تقصد المكان. قطعًا لن يشكّ في أمرنا أحد.

تنهَّد، ورفع فنجانه بيديْه.

ـ كما هو متوقَّعٌ، المرأةُ متعبةٌ. تقول إنَّها لا تفهم الوضعَ حقًّا. ولا عجب في ذلك. لقد تفرَّقت وزوجها بغتةً، وتنتظر مولودها الأوَّل عمَّا قريب. لكنَّها قويَّةٌ وذكيَّة. لم تسعَ إلى معرفة المزيد عن مخبئك. اكتفت بأن أحنت رأسها قائلةً إنَّها تثق فينا كلّ الثقة.

ـ هكذا إذن... تمكث عند عائلتها هادئةً تنتظر لحظة الإنجاب، أليس كذلك؟

ـ بلى، وفي مثل تلك الأحياء، ليست الصيدَلة بالتجارة المزدهرة. أثناء تواجدي هناك، لم تأتِ إلا عجوزٌ متهالكةٌ، اشترت قارورة مِركيروكروم بمائتي ينٍّ، لا غير. المحلُّ ضيِّقٌ. وكلّ شيءٍ متضعضع، البابُ والأرضيَّة والزجاج، حتى إنِّي تساءلت عمَّا إذا كان يجدر بي القيام فعلًا بإصلاحاتٍ هناك. كانت السيِّدةُ جالسةً خلف الصرَّاف الآليّ، وبطنها المنتفخ يظهر ويختفي خلف المنضدة. وكلّ شيءٍ، بدءًا من صفّ الأدوية في الخلف، كانت تغطِّيه طبقةٌ من غبارٍ تمنحه لونًا رمليًّا. أشفقت عليها وأنا أراها في تلك الحال، تتحدَّث إليّ وأصابعها تعالج مفاتيح الصرَّاف، وسط كلّ ذلك الغبار الذي يلتصق بالحلق.

كان الجدّ يشرب فنجان الكاكاو على مهلٍ، ثم، وكأنَّما خطر له الأمر فجأةً، نزع وشاحه ودسَّه في جيب سرواله. أضفت ماءً إلى

الغلَّاية ووضعته على الموقد. قطراتٌ تسقط منه، فتتبخَّر فورًا في هسيسٍ.

ـ وهل تمَّ التوصيل بشكلٍ طبيعيّ؟

ـ لا تقلقي. كلّ شيءٍ تمّ على أمثل وجه. المدرسة ليست كبيرةً، وفناؤها قفرٌ. لم تكن خاليةً فقط من البشر، وإنَّما من كلّ حضورٍ. لا حرارة بشريَّة في الأجواء، ولا رائحة أو أثر. المكان جامدٌ كأنَّما هو غرفةُ تعقيم. لم أرغب في إطالة المكوث هناك، فعدت من فوري.

أخرج من كيس الثوب الملفوف تحت سترته، طردًا مغلَّفًا بالبلاستيك ومظروفًا أبيض.

ـ ها ما وجدت في الحجرة.

. آه...

أخذتُ الطرد المغلَّف بالبلاستيك. كان يبدو أنَّه يضمّ ملابس مطويَّةً بعنايةٍ وبعض المجلَّات. وكان المظروف سميكًا ومُحكمَ الإلصاق.

. إنَّ الحُجرَة التي لم تُستخدم منذ أمدٍ بعيدٍ، تالفةٌ. صبغتُها البيضاء تقشَّرت، وسدَّادتها صدئت حتى شقَّ عليّ فتحها. لكنَّ الآن فهمت كيف تعمل، وستسهل عليَّ معالجتُها. والأجهزة بداخل الحُجرة مكسورةٌ. زئبقُ المحرار متقطِّعٌ، وإبرةُ مقياس الرطوبة معوجَّةٌ. فلا داعيَ للقلق، لن يلقيَ أحدٌ، والحالُ هذه، النظرَ داخل الحُجرة. وقد دسَّت الطردَ، كما اتَّفقنا في ركنها القصيّ.

. أشكرك جزيل الشكر، وسامحني لأنَّني أجبرتك على هذه المهمَّة الخطيرة.

. كلَّا لا داعي إلى الاعتذار.

هزَّ رأسَه والفنجان بعدُ في شفتيْه، فكاد يهرق الكاكاو.

. بدلًا من ذلك، يجدُر بكِ أن تعجِّلي بإيصالِ هذه الأشياء إلى الطابق بالأعلى.

أخذتُ الطردَ والمظروف وقصدتُ الغرفة السرِّيَّة. كانا ما يزالان يحتفظان بشيءٍ من حرارة الجدّ.

١٢

لمّا طلع علينا في أوّل درسٍ بعد التحاقي بالمدرسة، كنت مندهشةً بعض الشيء. إذ لم يكن يبدو عليه أنّه معلّم كتابةٍ على الآلة. ولا أدري لما تخيّلتُ المدرّسَ امرأةً. امرأةً متقدّمةً في السنّ نسبيًّا، صوتها مفرطٌ في التهذيب، وعلى وجهها طبقةٌ لا بأس بها من البودرة، وأصابعها رقيقةٌ معقّدة.

لكنَّ المدرّس كانَ رجلًا، وشابًّا. قامته متوسّطةٌ، ويرتدي ملابسَ أنيقةً، ألوانُها غامقةٌ ومتناسقة. لم يكن وسيمًا بالمعنى المتعارف عليه، لكنَّ كلَّ عنصرٍ من عناصر وجهه: الحاجبان، والجفنان، والشفتان، والذقن، كان يُخلّف في النفس انطباعًا قويًّا. كان يشعّ منها ضربٌ من الوقار، والهدوء، مع مخايل تميّزٍ خفيٍّ. يكفي مثلًا التفرُّس في حاجبيْه، للوقوف على ذلك.

كان يبدو مثلَ باحثٍ في القانون، أو قسٍّ، ـ لأنَّنا كنَّا بالفعل في كنيسة ـ أو ربَّما مهندسًا صناعيًّا. لكنْ، الحالُ أنَّه معلِّمُ كتابةٍ على الآلة. وكان محيطًا بكلِّ ما يتعلَّق بالكتابة على الآلة. على أنِّي لم أرَه يرقِّن قطّ على الآلة. كان يكتفي بأن يجول بين الطالبات، مُبديًا ملاحظاتٍ في حركة الأصابع، والتعامل مع الآلة، ثم يصحِّح بالقلم الأحمر أخطاء الترقين على الأوراق التي رقّنّاها.

كنَّا نُجري بانتظامٍ امتحاناتٍ لاختبار كم كلمةً نستطيع كتابتها خلال مدَّةٍ محدَّدة. كان يقف مواجهًا الفصلَ، ويُخرج من جيب صدر سترته كرونومترًا. النصُّ موضوعٌ بجانب الآلة، ونحن ننتظر الإشارة وأصابعنا على المفاتيح. أكاد أجزم بأنَّه هو من كتب الجُمل الإنجليزيَّة التي يتعيَّنُ علينا نقلها؛ وتكون في الغالب رسائل، أو مقاطع من أطاريح جامعيَّة.

لم تكن تلك الاختبارات نقطة قوَّتي. حتى بالنسبة إلى تلك الكلمات التي كنت أكتبها بسهولةٍ أثناء فترة التمرُّن، ما إن يتعلَّق

الأمر بالاختبار حتى تتصلَّب أصابعي، كنت أقلب بين حرفَيْ g h ، وأخلط بين b v . وفي الحالات القصوى، تكون وضعيَّة أصابعي منحرفةً منذ البداية، فأكتب أيَّ هراء.

يوهنُني الهدوءِ الفريد الذي يسبق بداية كلّ امتحانٍ. توتِّرني تلك الثواني المعدودة التي يحبس فيها الجميع أنفاسَهم، حين لا نعود نسمع صوت الصلوات أو عزف الهارمونيوم، ويركِّز الجميع كامل انتباههم في أصابعهم.

كان يُخيَّل إليَّ أنَّ الهدوء بهيئته الغازية يتجسَّدُ في الكرونومتر الذي يُمسكه هو في يده. لا بدَّ من أنَّه يستعمله منذ مدَّةٍ طويلةٍ، إذ إنَّ سلسلته الفضِّيَّة بهتت. إبهامه الأيمن موضوعٌ على الزرِّ، جاهزٌ لأن يضغط في أيِّ لحظةٍ. السلسلةُ تتأرجحُ على جذعه.

الجسمُ الغازيّ الذي يسيل من يده اليُمنى، يمضي زاحفًا على أرضيَّة الفصل، ويتكدَّسُ في الأركان، ثم ما يلبث أن يبلغ يديَّ

فيغطِّيهما. أشعر به باردًا وغاشمًا. ينتابني الإحساس بأنَّ أدنى حركةٍ من أطراف أصابعي ستمزِّق غشاءَ الهدوء، فينفجرَ كلُّ شيءٍ أشلاءً. فيتعاظمُ الفزعُ في قلبي.

وفي اللحظة الأشدّ إيلامًا، اللحظة التي أكون فيها على وشك الانفجار، يضغط هو على الزرِّ مُعلنًا الانطلاق. توقيتُه دائمًا مذهل، كأنَّما يقيسُ بالكرونومتر نبضاتِ قلبي.

ـ لنبدأ!

تلك هي اللحظة التي يرتفع فيها صوتُه أعلى من كلِّ الأصوات في الفصل. وتبدأ الآلات جميعها في الطقطقة دفعةً واحدة. في حين تكون أصابعي أنا ما تزال خدِرَةً، كأنَّما سيطر عليها الفزعُ.

لطالما وددتُ أن أراه يرقّنُ على الآلة. لا بدَّ من أنَّ المنظر سيكون جميلًا. الآلة برَّاقةٌ لفرط العناية بها، الورق نظيفٌ، ظهره مستقيمٌ،

وأصابعه تتحرَّكُ واثقةً. يكفي أن أتخيَّل الأمرَ لأتنهَّدَ. لكنَّ الأمر لم يحدث حتى الساعة. حتى وقد صرنا عشيقيْن. لا يرقّنُ أبدًا في حضور أحد.

حدث الأمر بيننا، ثلاثة أشهرٍ تقريبًا بعد أن التحقت بالدروس. يومها، ندف ثلجٌ كثير. أوَّل مرَّة في حياتي أرى فيها ذاك القدر من الثلج. توقَّفتِ القطارات والباصات، ودُفنت المدينة بأكملها تحت الطبقة البيضاء.

خرجت من منزلي مبكِّرًا حتى لا أفوِّت موعد الدرس الذي يبدأ في الثالثة، وقصدت الكنيسة مشيًا. وفي الطريق، عثرتُ غير ما مرَّةٍ، حتى إنَّ كيس القماش الذي كنت أحمل فيه أوراقي تبلَّل. وقد تراكم الثلج أيضًا فوق برج الكنيسة.

وفي نهاية المطاف، كنتُ الوحيدة التي حضرت الدرسَ يومَها.

قال لي:

- أيّ شجاعةٍ في أن تحضري اليوم!

كالعادة، لم تكن في ملابسه ثنيةٌ. ولا حتى أدنى أثرٍ من الثلج.

ـ ظننتُ أنْ لا أحد سيحضر اليوم.

ـ إن توقَّفتُ يومًا واحدًا، تصلَّبت أصابعي.

أخرجت نصوصي من كيسي. بسبب الثلج قطعًا، كان كلّ شيءٍ هادئًا.

جلستُ إلى الآلة الرابعة جهة النافذة من الأمام. هنا، من تصل أوَّلًا، لها أن تختار أيّ آلةٍ تشاء. لأنَّ مفاتيح الآلات تكون متفاوتةً من حيث صلابتها، والحروف من حيث درجة تلفها، فلكلّ آلةٍ ميِّزاتُها.

عادةً يجلس إلى مكتبه أمام السبُّورة السوداء، لكنْ يومها ظلّ واقفًا بجانبي.

بدأت بكتابة رسالةِ أعمالٍ. طَلبُ الإرسال المسبق لدليلِ استعمال آلةِ صنع مربّى استُوردت حديثًا. كانت عيناه مسمَّرتيْن في يديَّ. ما إن أنزاح ببصري عن النصّ حتى يقتحم مجالَ بصري جزءٌ منه: الحذاء، أو السروال، أو الحزام، أو أزرار الكُمَّيْن. ليس من السهل كتابةُ رسالةٍ. إذ ثمَّة قواعدُ دقيقةٌ ينبغي احترامها، قواعدُ تتعلَّق بالمسافة بين الأسطر أو الترتيب. وقياسًا إلى أنَّني حتى في الظروف الاعتياديَّة أكون مضطربة، فإنَّ توتُّري بلغَ مداه والمعلِّمُ يراقبني. لم أكفَّ عن ارتكاب الغلطات.

وما كان هو يغضّ الطرف عن أيِّ غلطة. ينحني، مقرِّبًا وجهه من الآلة، ويُشير إلى الخطأ بإصبعه. لم يكن يفعل ذلك قطعًا على سبيل اللّوم، لكنِّي كنت أشعرُ بما يُشبه قوّةً ساحقةً تدفع بي إلى مكانٍ أضيقَ فأضيق.

e حرفَ ينقص ما دائمًا لذلك .القوّة تعوزها يُسراكِ وُسطى .

رأسُه.

بعدما أشار إلى حرف e الذي كتبتُه، أمسك بوسطى يدي اليُسرى.

ـ هذه الإصبعُ هي الوحيدةُ التي يبدو طرفها معوجًّا بعضَ الشيء.

ـ أجل، لقد أصبتُه أثناء لعبي كرةَ السلَّة أيَّامَ شبابي.

انتبهتُ إلى أنَّ صوتي كان أجشَ.

ـ الحلُّ أن تنقري على الحرف من أعلى.

ثم أخذ ينقر بإصبعي على المفتاح مرَّاتٍ عديدة، ساحبًا العضوَ إلى أعلى.

ـ e e e e e e e e e e

وكان كافيًا أن يُمسك طرف إصبعي الوسطى، لكي أضطرب كأنَّما عانقني بين ذراعيْه. كانت يداه باردتيْن. لا أظنّه قويًّا إلى هذه الدرجة، لكنَّني كنت أحسُّ اختناقًا لم أستطع التخلُّص منه. كنت أتساءلُ عمَّا إذا كانت إصبعي ستنتهي ملتحمةً في لحمِ راحته.

كتفه، وكوعه، ووركه، كانت كلّها قريبةً جدًّا منِّي. ولم يكن قد قرَّر ترك إصبعي بعدُ. واصل النقر على المفتاح.

e e e e e e e e e e.

لم يكن يتردَّد في الحُجرة إلَّا صوتُ الرصاص المشكَّل في حرف e ، وهو ينقر على الورقة. وعاد الثلج يندف. آثارُ خطواتي من باب الكنيسة إلى البُرج، تكادُ تنمحي. وهو يواصل الضغطَ على إصبعي أكثر فأكثر. انزلق الكرونومتر من جيب صدره، ولفَّ لفَّةً قبل أن يسقط على الأرض. تساءلتُ عمَّا إذا كان قد انكسر. بدا لي

غريبًا الاهتمامُ بمصير الكرونومتر، في حين أنَّ الأوْلى لي الاهتمامُ بما يحاول أن يفعلَه بي.

دقّ ناقوس البُرج. إنَّها الساعة الخامسة. هزَّت الزجاجَ الدبدبةُ القادمة من أعلى، من فوق رأسيْنا، ثم عبرت جسديْنا، المتطابقين، واحدًا فوق آخر، قبل أن يمتصَّها الثلج. ما من حركةٍ إلَّا حركةُ الثلج. حبستُ أنفاسي غير قادرةٍ على الحركة. كأنَّما حُشرْتُ داخل آلة الكتابة...

* * *

صرتُ الآن أُطلع ر على مخطوطي قبل أن أسلِّمه إلى ناشري الجديد. بالطبع، لم يعد بمقدوره تدوين ملاحظاته عليه، لكنَّنا كنَّا في الغرفة السرِّيَّة نناقش تفاصيل روايتي كما من قبل. لم يكن في الغرفة غير كرسيٍّ واحد، حتى إنَّنا كنَّا نجلس جنبًا إلى جنبٍ على السرير، ونتَّخذُ غلافَ كرَّاسِ رسمٍ مسندًا نضع المخطوطَ عليه.

ولا ريب في أنَّ إيجاد عملٍ ينشغل به كان أمرًا جيِّدًا بالنسبة إليه. إنَّ أمثل طريقةٍ للعيش في الغرفة السرِّيَّة هي أن نضع عند الاستيقاظ صباحًا، جدولَ المهام التي يتعيَّنُ القيام بها طيلة النهار؛ ومساءً قبل الخلود للنوم، نقيِّم ما أُنجزَ برضًا أو بحسرةٍ. وعلى التفكير الصباحيّ أن يكون ملموسًا ومحدَّدًا قدر الإمكانِ، ويُستحسن أن يُتقاضى على العملِ أجرٌ، وإن كان هزيلًا، وأن يكون فيه تعبٌ للجسمِ والذهن.

بادرني ذات يومٍ، منزعجًا بعض الشيء، وهو يستلم من يدي صينيَّة العشاء:

ـ إن لم يكن في الأمر ما يزعجك... ألا تستطيعين أن تعهدي إليَّ ببعض الأعمال؟ أريد أن أساعدك، ثم إنَّ الأمر سيسلِّيني.

ـ تقصد عملًا آخر غير قراءة رواياتي؟

كنت أنظر إليه عبر فتحة اللوح المربَّعة.

ـ آه.. طبعًا. وما دمتُ سأقوم به في هذه الغرفة، فلا أظنُّ أنَّه سيكون عملًا ذا شأنٍ، لكنَّني أظنُّ أنَّه سيكون في جميع الأحوال أفضل من لا شيء. أيّ شغلٍ بسيطٍ سيفي بالغرض. سيستغرق منكِ الأمر وقتًا، أتفهَّم ذلك. لكنْ في الوقت الراهن، لا أستطيع أن أفعل شيئًا بدونك. من دون مساعدةٍ منكِ، لا أستطيع أن أكون مفيدًا لكِ.

أخذ من يدي الصينيَّة بيديْه معًا، وخفض بصره إلى الأطباق. حين كان يتحدَّث، كان حساءُ البطاطس يتماوج في الوعاء.

ـ إيجاد أشغالٍ بسيطةٍ ليس بالأمر الصعب حقًّا. إنَّ الحياة اليوميَّة قوامُها عددٌ من المهامّ المختلفة. لا تأخذ الأمر بهذه الجدِّيَّة. حسنًا، صباح الغد سأكون قد عيَّنتُ شيئًا أطلبه منك. فكرةٌ نيِّرةٌ. سوف

نضرب عصفوريْن بحجر. هيَّا، تناول طعامك قبل أن يبرد. العشاء دومًا حساء بطاطس.

آسفةٌ، لكنَّ المحصول هذه السنة كان سيِّئًا جدًّا، ولا نستطيع تقريبًا أن نحصل إلَّا على البطاطس والبصل التي خُزِّنت منذ الخريف.

ـ كلَّا، هذه العصيدة لذيذةٌ جدًّا.

هذه المرَّة الأولى التي يمتدَح فيها طبخي.

ـ أشكرك.

ـ أعوِّل عليك إذن في إيجاد عمل.

ـ نعم، اتَّفقنا. إلى الغد إذن.

- إلى الغد.

متكوِّمًا على الدرج، مشغول اليديْن، حيَّاني بإيماءةٍ من شفتيْه. وبعدما تأكَّدت أنَّه قد صار بالأسفل، أغلقت اللوح.

هكذا، صرتُ أُسند إليه أشغالًا كلّ صباحٍ، فزادت مهامِّي اليوميَّةُ مهمَّةً. كانت أشياء بسيطة في المحصِّلة: ترتيب وصفاتٍ، بري أقلامٍ، نسخ العناوين في مفكِّرتي، ترقيم مخطوطاتي؛ لكنَّه كان ينكبّ عليها بفرحٍ. وصبيحة اليوم التالي، كان يسلِّمني الشغلَ وقد أنجزَه على أفضل وجه.

كذلك استطعنا أن نعيش في أمانٍ. كانت الأمور تسير وفق خطَّةٍ موضوعةٍ سلفًا، ولا مشكلة تبرز إلَّا ولها عندنا حلٌّ. الجدّ يؤدِّي مهامَّه على أكمل وجه، و ر يبذل ما في وسعه ليتأقلم سريعًا مع الحياة في الغرفة السرِّيَّة.

لكنْ، وإن ضربنا صفحًا عن الرِّضا الذي كنَّا نحسّه في تلك المظاهر البسيطة، فإنَّ العالم في الخارج، ظلّ ينحلُّ يومًا عن يومٍ. والاختفاءات التي كانت قد هدأت بعد اختفاء الورود، عادت بقوَّةٍ، فحدث اختفاءان مترادفان. اختفت أوَّلًا الصورُ الفوتوغرافيَّة، ثم تلتها الثمارُ.

ولما جمعتُ كلَّ الصور والألبومات الموجودة في المنزل، بما فيها صورة أمِّي المبرْوَزة الموضوعة فوق الموقد، وهممت بأن أحرقها في محرقة الحديقة، بذل ر كلّ ما فيه من جهدٍ لثنيي عن ذلك.

ـ إنّ الصوَر أشياءُ قيِّمةٌ تحفَظُ الذكريات. فإن أحرقتها ارتكبتِ ما لا يمكن إصلاحُه. لا ينبغي أن تفعلي. لا ينبغي البتَّة.

أجبته:

ـ لكنّني لا أستطيع التملُّص، لأنَّ أوان اختفاءها قد آن.

سألني بملامح غايةً في الجدِّيّةِ:

. بعد أن تعدمي الصور، كيف ستستطيعين تذكُّر وجهَيْ والديْك.

. إنَّ ما اختفى هو الصور وليس الوالديْن، لا مشكل إذن، سأتذكَّرهما ما حييت.

. قد تكون بالفعل مجرَّد قِطَع ورق، لكنَّها تنطوي على شيءٍ عميق: الضوء أو الريح أو الطقس؛ حنان المصوِّر أو فرحه؛ وخجلُ المصوَّرين أو ابتساماتهم. ينبغي أن نحفظ في القلب هذه الأشياء إلى الأبد. فلذلك التقطنا الصورَ، هل تفهمين؟

. أجل، أعرف. ثم إنَّني لطالما احتفظت بها بعنايةٍ. وكلَّما نظرتُ إليها كنت أعيش مجدَّدًا ذكرياتي العزيزة. كانت تملأني حنينًا حتى يعتصرني حزنٌ منغِّصٌ. في غابة الذكريات حيث ترتفع الأشجار الواهية في كلِّ مكانٍ، كانت الصور دائمًا بمثابة البوصلة لي. لكنْ

عليَّ الآن أن أتخلَّى عنها. صعبٌ ومقلقٌ فقدانُها، لكنْ لا طاقة لي على مجابهة الاختفاءات.

ـ حتى وإن كنتِ عاجزةً عن مجابهة الاختفاءات، فلا شيءَ يُجبرك على حرق الصُور. مهما تغيَّر العالمُ، الأشياء المهمَّة تظلُّ مهمَّةً. جوهرُها ثابتٌ لا يتغيَّرُ. إن تأمَّلتِ الصور فلا بدَّ من أن تمنحك شيئًا. لا أريد لذاكرتك المزيد من الفراغ.

أجبته وأنا أهز رأسي برفق:

ـ كلَّا... الآن، لا يُحيي فيَّ النظرُ إلى الصُّوَر شيئًا. لست حتى أُعاني الحنينَ. الآن، لم تعد الصُّوَر بالنسبة إليَّ سوى قِطَع ورقٍ برَّاقٍ. نخر قلبي نَقبٌ جديد. تجويفٌ لا يستطيع ردمَه شخصٌ أو شيء. تلكم هي الاختفاءات. أظنّ أنَّه يصعب عليكَ إدراك الأمر...

خفض عينيْه حزينًا.

. قلبي بما فيه من نُقُبٍ يطلبُ أشياءَ يحرقها. يفترض ألَّا يحسّ بشيءٍ، لكنْ حين يتعلَّق الأمر بالأشياء التي ينبغي أن تُحرق، فإنَّه يعصرني عصرًا. يوجعني، ولا يهدأ إلَّا متى صيَّرَ كلّ شيءٍ رمادًا. لستُ أتذكَّر حتى ما معنى كلمة «صور فوتوغرافيَّة». ثم، إن اكتشَفت شرطةُ الذاكرة الصُّوَر، فإنَّ الأمر سيكون رهيبًا. عقب كلّ اختفاءٍ، تصير المراقبة صارمةً، كما تعلمُ. فإنْ أثرتُ ريبة، فلا بدَّ من أن يطالك الخطر أنت أيضًا.

لم يقل شيئًا. نزع نظَّارته، وضغط على صدغيْه بأصابعه، ثم أطلق زفرةً حرَّى. أمّا أنا، فقصدتُ الحديقة خلف المنزل، حيث توجد المحرقة، حاملةً في يدي كيسًا مليئًا بالصور.

أمَّا اختفاء الثمار، فكان أبسط. استيقظتُ ذات صباحٍ، فألفيتُها تتساقط عن أشجار الجزيرة. كان يتناهى إلينا صوتُ سقوطها، هنا

أو هناك. كانت تتساقط كالوابل، خاصَّةً ناحية الجبل الشماليّ، أو المنتزه الغابويّ. بعضها كان كبيرًا في حجم كرة السلَّة، وبعضها كان صغيرًا في حجم حبَّة فاصوليا حمراء صغيرة؛ بعضها كان بصَدَفةٍ، وبعضها بألوانٍ زاهية: ثمارٌ من كلِّ لونٍ وفنّ. لم تكن الريح تهبُّ، ومع ذلك، ما انفكَّت الثمار تتساقطُ عن الأغصان، ثمرةً ثمرة.

وفي الخارج، كانت الثمار تهوي على الرؤوس من دون أن ينتبه لها أحدٌ، لا بل كانت تدوسها الأقدام. ثم بدأ الثلجُ يندف فغطَّى كلّ الثمار في الأرض.

أدركتُ أنّ الناس قد خسروا مجدَّدًا طعامًا شتويًّا ثمينًا.

١٣

منذ مدَّةٍ طويلةٍ لم يسقط الثلج. في البداية، ظننتُه رملًا أبيضَ حملته الريح، لكنْ ما لبثت النُّدف أن أخذت تكبر، قبل أن تلفّ المشهد كلّه في لحظة. تراكم الثلجُ فوق كلّ شيءٍ، لم يترك أدنى ورقة شجرٍ أو عمودِ إنارةٍ أو حاشيةِ نافذة، إلَّا غطَّاها. وطال به المكوث.

وأثناء فترة الثلج، صار صيدُ الذكريات نشاطًا شبه يوميّ. كان رجالُ الشرطة بمعاطفهم وأحذيتهم الطويلة يجوبون المدينة. ثوبُ معاطفهم يبدو ناعمًا ودافئًا، وياقاتهم وأكمامهم يحفّها فروٌ، لونُه أيضًا أخضرُ غامق. ومهما جاب المرءُ متاجرَ الملابس بالجزيرة، لن يعثر على نظير تلك الملابس الفاخرة. لذا كان يسهل تمييز رجال الشرطة، حتى وإن كانوا وسط حشد.

غالبًا ما كانوا يظهرون بغتةً في قلب الليل، فيطوِّقون بشاحناتهم مجموعةً من المنازل دفعةً واحدة، ويفتِّشونها منزلًا منزلًا، بلا استثناء. أحيانًا يُفضي التفتيش إلى نتيجةٍ، وأحيانًا لا يُفضي. ولا أحد يعلم أيّ حيٍّ سيختارونَه في المرَّة المقبلة. صار يوقظني أدنى صوت. عيناي تحدِّقان في البساط الغارق في الظلام، أتخيَّل هيأة ر المتواريَ صامتًا بالأسفل، أُصلِّي لينتهي الليلُ من غير اقتحامٍ.

سكَّان الجزيرة يتجنَّبون الخروج، ونهاية الأسبوع يكسحون الثلج صامتين، ويسدلون ستائر منازلهم ما إن يحلّ المساء، ويعيشون حياةً متكتِّمةً. كان يبدو كأنَّما القلوب أيضًا يغطِّيها الثلج!

ولم يكن كهفُنا السرِّيُّ بمنأىً عن هذا الجوِّ العامّ الضاغط. وقع حادثٌ جعلنا نقفُ على هشاشة هذا الفضاءِ الصغير الذي كنَّا نسعى إلى حمايته. ذات يومٍ، اقتادت قوَّاتُ الشُرطة فجأةً الجدَّ.

* * *

رفعتُ اللوح، وصحتُ بداخل الغرفة:

ـ لا بدَّ من أنّهم قد انتبهوا إلى شيءٍ. ماذا عسانا نفعل؟

كنت أرتجف لدرجة أنَّني نزلت الدرجات بمشقَّةٍ، وهويتُ على السرير.

ـ سيأتون فورًا. ينبغي أن تختبئَ في مكانٍ آمن. أتساءلُ أين؟ منزلُ أسرةِ زوجتك؟ كلَّا، كلَّا، هو أوَّل مكانٍ سيطلبونك فيه. آه.. بلى، المدرسة المهجورة. تلك التي توجد في فنائها حُجرة أدوات الرصد الجوِّيّ. لا بد من أنَّ ثمَّة الكثير من الحُجرات، قاعةُ الأساتذة، أو المختبر، أو المكتبة، أو المطعم، أظنُّه أنسبَ مكانٍ يمكن أن تختبئَ فيه. سأهتمّ بالأمر فورًا.

كان ر قد طوَّقَ بذراعيْه كتفيَّ، وبقدر ما كان الشعورُ براحتيْه يسري في ذراعيَّ كنت أشعر بجسدي يزداد رجفةً، من دون أن

أستطيع كبح زمام نفسي. تملَّكني الانطباعُ بأنَّه يحاول قَدْرَ استطاعته استغلالَ دفء جسده ليهدِّئ من روعي.

قال لي برفقٍ وهو يفكّ أصابعي المغروزة في ركبتيَّ، إصبعًا إصبعًا:

ـ أوَّلًا، ينبغي أن تهدئي. لو أنَّهم علموا بوجود هذا المخبأ لما كانوا ليقتادوا الجدّ، وإنَّما كانوا سيهرعون إلى هنا. لذا، نحن في مأمن. لم ينتبهوا بعدُ لأيِّ شيء. فإن اضطربنا وتصرَّفنا على نحوٍ أخرق أثرنا الانتباه إلينا. وربَّما يكون هذا تحديدًا هدفهم. تفهمين، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي موافقةً.

ـ لكنْ، لمَ أمسكوا بالجدّ إذن؟

ـ ليست لديْك أيّ فكرة؟ ربَّما تعرَّض للتفتيش فاكتشفوا ما يحمله؟ أو ربَّما اقتحم ملاحقو الذكريات العبّارةَ؟

قلت وأنا أنظر إلى أطراف أصابعي التي ما تزال متصلِّبةً على الرَّغم من العناية المركَّزة التي يخصّها بها:

ـ كلَّا، لا شيء من ذلك.

ـ وفي هذه الحال، لا داعي للقلق. لا يملكون دليلًا. ربَّما يجرون معه تحقيقًا لا علاقة له بي أنا؟ فهُم في بحثٍ دائمٍ عن المعلومات. يعتقلون الناس كما اتَّفق، من دون أدلَّةٍ ملموسة، ويحقِّقون معهم في أمورٍ شتَّى. فيسألون هذا عن جارٍ يزرع الورود خلسةً في دفيئة حديقته، وذاك عن جارٍ يشتري كمِّيَّةً من الخبز كبيرةً بالقياس إلى عدد أفراد عائلته، ويسألون ثالثًا عن ظلالٍ مشبوهةٍ تبدو من خصاص ستائر المنزل المجاور؛ أسئلة من هذا القبيل. على أيِّ حالٍ لا يسعنا الآن إلَّا الانتظار هادئَيْن. هذا أمثل حلٍّ.

. أنت محقٌّ. لعلَّ الأمر كما ذكرتَ.

عببت من الهواء نفَسًا كبيرًا.

. نرجو فقط ألَّا يكون الجَدّ يواجه شيئًا رهيبًا...

. شيئًا رهيبًا؟

. أجل. التعذيب. معهم ينبغي توقُّع الأسوأ. حتى إنَّه قد لا يطيق التعذيب، فيعترف بمكان المخبأ.

. لا ينبغي أن تفرطي في القلق.

ضغط بقوَّةٍ أكبر بواسطة ذراعه التي تطوِّق كتفيَّ. لهيبُ الموقد الكهربائيّ الأحمرُ يضيءُ قدميْنا. والمروحة تدور مُطلقةً شهقةً حيوانيَّة.

أضاف هادئًا:

ـ بالطبع، إن طلبتِ منّي الرحيل، سوف أرحلُ.

ـ كلَّا. الأمر لم يخطر ببالي حتى. لا أخشى أن أُعتقلَ، وإنَّما أخاف أن أراك تختفي. لذلك، تراني أرتجف كلّ هذا الارتجاف.

هززتُ رأسي مرَّاتٍ عديدة. شعري المتجعِّد ينزل على سترته. عانقني طويلًا. في الغرفة السرِّيَّة التي لا يدخلها نورٌ، ليس ثمَّةَ ما يمكن أن نقيس به انسياب الزمن. كان ينتابني الانطباعُ بأنَّنا وقعنا في عين إعصارٍ زمنيّ.

كم مرَّ علينا من الوقت ونحن على تلك الحال؟

بقدر ما كان جسدي يستدفئُ من الاتِّصال بجسده، كانت رجفتي تهدأ.

قمت واقفةً لأتخلَّص من عناقه.

ـ سامحني، لأنَّني فقدت هدوئي.

ـ طبيعيّ، إنَّ الجَدّ مهمٌّ جدًّا بالنسبة إلينا.

خفض رأسَه.

ـ لم نعد نملك إلَّا الصلاة.

قال:
ـ أنا أيضًا سأصلِّي.

وضعت قدمي على الدَّرج، أزلتُ العارضة، ورفعتُ اللوح. ولما استدرت نحوه رأيتُه ما يزال جالسًا يحدِّق في لهيب الموقد.

* * *

في اليوم التالي، قرَّرت، من دون أن أخبر ر الذهاب إلى مقرِّ شرطة الذاكرة. لأنَّني كنت أعرف أنِّي إن استشرتُه سيعارضني. صحيحٌ أنَّ من يقرِّر اقتحام مقرّهم الرئيسيّ ينبغي أن يتوقَّع الأسوأ. لكنَّني لم أستطع ألَّا أفعل شيئًا. حتى وإن كان المرجَّحُ استحالة أن أقابل الجدّ، إلَّا أنَّني سوف أحصل بالتأكيد على بعض المعلومات حول ظروفه، وربَّما استطعت أن أوصل إليه شيئًا. وبالتالي قد أعينُه، ولو بالقليل.

صباح ذلك اليوم، كان الثلج الذي تساقط بلا توقُّف منذ أمس قد كفَّ، وبرزت الشمس قليلًا. كان الثلج نديًّا ودقيقًا، وفي كلّ خطوةٍ أخطوها، تغوص قدميَّ فيه حتى الكاحل. لا يملك السكَّانُ أحذيةً مناسبةً للثلج كتلك التي يملكها رجالُ الشرطة، حتى ليبدو أنَّ الناس يعانون الأمرَّيْن في المشي. بظهورٍ مقوَّسةٍ، حاضنينَ حقائبَهم، كانوا يتقدَّمون خطوةً خطوةً، بحذر. كانوا في سعيِهم أشبهَ شيءٍ بحيواناتٍ عاشبةٍ مسنَّة، تمضي هائمة.

ولما كان الثلجُ قد تسرَّب حتى باطن حذائي، فقد تبلَّلت جواربي على الفور. كنت أحمل في الحقيبةِ غطاءً، وسخَّان يديْن، وعشرة أقراص حلوى، وخمس قطعٍ من خبز حليبٍ، أعددتُها صباح اليوم.

يقعُ مقرّ الشرطة الرئيسيّ عند أحد جانبَي الشارع الذي يجوبه الترامواي، وتحديدًا يحتلُّ بناية المسرح سابقًا، بعدما تمَّ تجديدها وتهيئتُها للمهمَّة الجديدة. نلجُ الرواق الذي يُفضي إلى بهو المدخل عبر دَرجٍ حجريٍّ واسع، تنتصب على جانبيْه مسلَّاتٌ منحوتة. وفي قمَّة السقف، يرفرف علمُ شرطة الذاكرة، لكنْ بما أنَّ الهواء ساكنٌ، ولا ريحَ تحرِّكُ العلمَ، فقد كان يسقط متراخيًا على عموده.

عند المدخل، وقف حارسان، بقدميْن منفرجتيْن قليلًا، وذراعيْن مشبكتيْن خلف الظهر. تردَّدتُ . لا أدري هل أشرح لهما سبب قدومي، أم ألجُ البناية مباشرةً! كانت البوَّابةُ من خشبٍ سميكٍ مغلقةً بإحكامٍ، وقد بدت لي ثقيلةً جدًّا، حتى إنِّي تساءلت عمَّا إذا كان بمقدور امرأةٍ أن تفتحها بمفردها! غير أنَّ الحارسيْن ظلَّا صامتيْن يتجاهلانني كأنَّما مُنعا من الحديث.

تشجَّعت وبادرت الحارس عن اليمين بالسؤال:

ـ هل أستطيع أن أسأل سؤالًا؟... أتيت أزور شخصًا لأحمل له أشياءَ، فهل تستطيع أن تُخبرني بما عليَّ أن أفعله.

لم يستدر، ولا رفّ له جفنٌ. كان شابًّا شاحبًا، يصغرني سنًّا على نحوٍ بيِّنٍ. فرو ياقته يبدو نديًّا، كأنَّما بلَّله الثلج.

سألت الحارس الثاني:

ـ هل أستطيع الدخول؟

كانت النتيجة نفسها. وإذ لم يبقَ لي من خيارٍ، أمسكت بمقبض البوَّابة لأسحبها. وكما توقَّعت كانت البوَّابة ثقيلةً. علَّقتُ حقيبتي على كتفيَّ حتى أتوسَّل بيديّ معًا في فتحها، وبعد جهدٍ، بدأت تتحرَّك في صريرٍ. وطبعًا، لم يمدّ لي أيٌّ من الرجليْن يدَ العوْن.

في الداخل، كان سقف البهو عاليًا والمكان مظلمًا. رجال الشرطة يتحرَّكون في بزَّاتهم المعتادة. وكان ثمَّة أيضًا أشخاصٌ من الخارج، لكنَّهم كانوا يكتفون بالمرور حثيثًا، وعليهم سيماء التوتُّر، ولا يُسمعُ كلامٌ أو ضحك. لم تكن ثمَّة موسيقى. لا صوتَ سوى وقْع الأحذية.

قبالتي دَرجٌ منحنٍ يُفضي إلى ردهة الطابق الخفيض، وخلفي مصعدٌ ذو تصميمٍ معقَّدٍ يرجع إلى العهد الذي كانت فيه البنايةُ مسرحًا؛ ويسارًا أقصى المكان، لمحتُ مكتبًا فخمًا ومقعدَه العتيقَ. ومن السقف، تتدلَّى ثريّا هائلةٌ، غير أنَّ الزجاج حول مصابيحها كان كامدًا، حتى إنَّه لا ينبعث منها نورٌ يناسب رحابة المكان. وفي كلِّ موضعٍ، أُلصقت شارةٌ تحمل شعار الشرطة: جانب أزرار المصعد، فوق هاتفٍ عُلِّقَ في الحائط، في عمودٍ يدعَمُ الدَّرج.

إلى المكتب، جلس سكرتيرٌ مستغرقًا تمام الاستغراق في الكتابة. قدَّرتُ أنَّ المكتبَ مكتبُ الاستقبال، فقصدته بعدما أخذتُ نَفَسًا عميقًا.

ـ أريد توصيل شيءٍ إلى أحد معارفي، هل تستطيع أن تبيِّن لي كيف أفعل؟

ارتطم صوتي بالسقف، قبل أن يبتلعه البهو.

ـ توصيل؟

ردَّد السكرتير الكلمة، بعدما أوقف شغله، وهو يلفّ قلمه بأطراف أصابعه؛ ردَّدها بنبرة من يسعى إلى تذكُّر دلالةِ كلمةٍ فلسفيَّةٍ لم يعتدِ استعمالها.

عزَّيتُ نفسي بأنَّ هذا أفضل من حارسَي البوَّابة اللذين تجاهلاني تمامًا. وقلت:

ـ نعم. ليس شيئًا ذا بالٍ، فقط ما يغطِّي به نفسه، والقليل من الطعام.

أقفل الرجلُ قلمه بغطائه، وأزاح الوثائق من على مكتبه كي يفسح المكانَ، قبل أن يستند إلى المكتب بذراعيْه. ثم رفع نحوي نظرةً لا تُفصح عن شيءٍ:

وإذ لم أعد أطيق صبرًا، لأنَّ الرجل كان يبدو غير مستعجلٍ الجوابَ، أضفتُ:

ـ وإن أمكن أريد أن أسلِّمه الأشياء يدًا ليدٍ.

ـ من ذا الذي ترغبين بلقائه؟

كان يتحدَّث بتهذيبٍ، ومع ذلك، كان يصعب استجلاءُ أيِّ إحساسٍ في صوته المحايد.

كرَّرت اسم الجدِّ مرَّتيْن.

أجابني:

ـ الشخص الذي تسألين عنه غير موجودٍ هنا.

نبَّهتُه:

ـ كيف تستطيع معرفة ذلك من دون تفحُّصٍ؟

ـ لا أحتاج فحصًا. أنا أحفظ أسماء جميع من هم هنا.

ـ لكنْ كلّ يومٍ يُساق إلى هنا العديد من الناس، هل تريد أن تُفهمني أنَّك تتذكَّر أسماءهم جميعًا؟

ـ نعم. هذا شغلي.

. الجدُّ أُقتيدَ أوَّل أمس. أرجوك تأكَّد. لا بدَّ من أن تجد اسمه في مكانٍ ما.

. لا فائدة.

. في هذه الحال، هل تستطيع على الأقلّ أن تُخبرني أين هو؟

. المقرّ الرئيس ليس بنايتَنا الوحيدة. لدينا فروعٌ في كلِّ مكانٍ. الأكيد أنَّ الشخص الذي تسألين عنه ليس موجودًا هنا. وهذا كلّ ما أستطيع أن أُخبركِ به.

. هو إذن معتقل في أحد فروعكم، أليس كذلك؟ هل تقدر أن تخبرني في أيِّ فرع؟

. العمل بيننا مقسَّمٌ. والتقسيمُ دقيقٌ ومعقَّد. ليس الأمر بالبساطة التي تتصوَّرينَها.

ـ لم أقل إنَّ الأمر بسيطٌ. كلّ ما أريده هو أن أوصل هذه الأشياء إلى الجدّ.

قطَّب الرجل حاجبيْه منزعجًا. مصباحُ مكتبه النحاسيُّ المصقول بعنايةٍ يُضيءُ يديْه. عروقه ظاهرة في أصابعه البارزةِ العظام. وأوراقه الملتصقة بعضُها ببعضٍ تحملُ أرقامًا وحروفًا من أبجديَّةٍ لم أفهمها. هناك أيضًا ملفَّاتٌ، وخرائط، وأدواتُ تصحيح، وقطَّاعة ورق، ودبّاسةٌ، وكلّ شيءٍ مرتَّبٌ ومنظَّمٌ وفق الوضع الأمثل لاستعماله.

غمغم مناجيًا نفسه:

ـ يبدو أنَّك لا تفهمين كيف تسير الأمور.

ثم غمز بعينه شخصًا خلفي. إيماءةٌ صغيرةٌ، لكنَّها كانت كافيةً لينبثق على الفور، من الفراغ، شرطيَّان، فيقف كلّ واحدٍ من جانبٍ يكادُ يلتصق بي. وإذ كان عدد النياشين على صدريْهما أقلّ

من عددها على صدر رجلِ الاستقبال، فقد قدَّرتُ أنَّهما أقلُّ منه رتبةً.

ثم جرى ما تبقَّى في هدوءٍ. لم يكن الشرطيَّان بحاجةٍ إلى أوامرَ، إذ يبدو أنَّ النهج المتَّبع في الحالات المشابهة لحالتي كان معروفًا ومقرَّرًا سلفًا. أصعدني الرجلان المصعد، واقتاداني على امتداد رواقٍ متاهةٍ، حتى بلغا بي غرفةً متطرِّفةً.

ذُهلتُ لأنَّ الغرفة كانت أفخم بكثير ممَّا توقَّعتُ. الكنبة من جلدٍ فاخرٍ، وعلى الجدرانِ بسُطُ الغوبلين الباريسيَّة. وهناك أيضًا ثريّا، وستائر ثقيلة.

لا بل إنَّ خادمةً أتت تقدِّم لنا شايًا. لم أكن أدري ما ينوون أن يفعلوا بي. لكنْ، من ذكرى سيَّارة الليموزين الفاخرة التي أتت تقتاد أمِّي يوم استدعائها، فقد خمَّنت أنَّ عليَّ توخِّي الحذر. جلست على الكنبة واضعةً حقيبتي على ركبتيَّ.

ـ آسفٌ، لأنَّكِ تحمَّلتِ التنقُّلَ في الثلج، والحال أنَّ الزيارات أو إيصال المؤن ممنوع.

هذه المرَّة، أتى يجلس قبالتي رجلٌ قصيرٌ سقيمٌ. لكنْ بالإضافة إلى نياشينه، كان يحملُ شارةً في شكلِ حبَّةِ بلُّوطٍ تدلُّ على أنَّ رتبتَه أرفع من جسمِه. وكانت عيناه تشيان بأحاسيسه، خاصَّةً وأنَّهما كانتا واسعتيْن.

الشرطيَّان اللّذان ساقاني إلى الغرفة، وقفا، كلٌّ في جهةٍ من الباب.

سألتُ:

ـ لماذا؟

وأنا أفكِّر في أنَّني مُذ وطئت قدماي هذا المكان ما برحتُ أطرحُ الأسئلة.

أجابني الرجل وعلى حاجبيْه رجفةٌ:

. لأنَّ القانون هكذا.

. لم أحمل شيئًا خطيرًا، وتستطيعون أن تتأكَّدوا بأنفسكم.

أفرغتُ محتوى حقيبتي على المكتب. اصطدم سَخّانُ اليديْن مع علبة الحلوى اصطدامًا خفيفًا.

قال الرجل من دون أن يكلِّف نفسه عناء النظر إلى ما يوجد فوق المكتب:

. جدّك لديه كلّ ما يحتاجه من طعامٍ، وغرفتُه دافئة. أرجوكِ لا داعي للقلق.

. إنَّ الجدَّ ليس إلَّا شيخًا مسنًّا، ما انفكَّت ذكرياته تتبدَّد، متقاعدٌ يقضي أيَّامه مسالمًا على ظهر عبَّارته، فما كان من داعٍ لاعتقاله.

. هذا شغلُنا نحنُ، نحن من يقرِّر.

. أخبرني بما تتَّهمونَه.

. آنستي، أنتِ تسألين أسئلةً مستحيلةً.

ضغط الرجل بسبّابتيْه على صدغيْه.

. أغلب المهامّ التي نضطلع بها ينبغي أن تتمَّ في السرِّ. وذاك ما يوافق طبيعة عملنا باعتبارنا شرطةً سرِّيَّة.

. ألا تسمح لي على الأقلّ بأن أتحقَّقَ ممَّا إذا كان الجدُّ سليمًا معافى؟

. طبعًا هو كذلك. ألم تقولي أنتِ بنفسك أنْ لا شيءَ لديه يستحقّ أن يُستنطقَ لأجله؟ إلَّا إن كان لديكِ سببٌ لتظنِّي خلافَ ذلك!

أجبته نافيةً نفيًا قاطعًا، وأنا أقول لنفسي إنَّني لا ينبغي أن أنساق إلى فخِّه الصبيانيّ.

. في هذه الحال، لا سبب يدعوكِ إلى القلق. إنَّما نطلب منه فقط القليل من التعاون. نعطيه كلّ يومٍ ثلاث وجباتٍ دسمة، حتى إنَّه لا يستطيع إنهاءها. الطهاةُ الذين يشتغلون مرُّوا من مطاعمَ مصنَّفة. حتى وإن أوصلتِ له هذه الأشياء فلن يأكُلها.

ألقى نظرةً مشمئزَّةً إلى حقيبتي على الطاولة.

. أتصوَّر أنَّ النظام يمنعكم أيضًا من أن تخبروني بموعد إطلاق سراحه.

. تمامًا. أرى أنَّكِ قد بدأت تفهمين القوانين.

ابتسم ووضع ساقًا على ساقٍ، وتأرجحت شارتُه على صدره.

. إنَّ مهمَّتنا الأساسيَّة هي الحرص على أن تتمّ عمليّات الاختفاء دونما إبطاءٍ، والتعجيل بامِّحاء الذكريات التي لم تعد فيها فائدة. لا فائدة في الاحتفاظ بذكرياتٍ لا طائل من ورائها. أليس كذلك؟ حين تصيب الغنغرينا إصبع القدم، ينبغي التعجيل ببترها، وإلَّا خسرنا القدم بأكملها. الأمر شبيهٌ بذلك. المشكل الوحيد هو أنْ لا شكل للذكريات والقلب. يستطيع الإنسان أنْ يجعل منها سرَّهُ، ويخفيها. وبما أنَّ الخصمَ خفيٌّ، فنحن أيضًا نشتغل بسرِّيَّة. إنَّها عمليَّةٌ دقيقةٌ جدًّا. أن نكشفَ سرًّا لا شكلَ له، وأن نحلِّله، ونصنِّفه، ونعالجه، وينبغي بالطبع أن نحميَ أنفسنا بأن نحفظ السرّ بدورنا. هي ذي غاياتنا.

بعدما تحدَّث دفعةً واحدة، أخذ ينقر على الطاولة بأصابع يده اليسرى.

من النافذة، أبصرتُ الترامواي يعبر الشارع. وفي اللحظة التي لفَّ فيها حول المدار، سقطت من سقفه كومة ثلجٍ. وفي الشمس التي

لم تكن قد ظهرت منذ أمدٍ طويلٍ، وعلى الرَّغم من نورها الواهن، كان الثلج يلمع لدرجة أنَّه يبدو وهَّاجًا. وفي الجهة المقابلة، عند مدخل المصرف، يمتدّ صفٌّ الناس الراغبين في سحب نقودهم، حتى يفيضَ خارج المبنى. وكانوا جميعًا منكفئين على أنفسهم يفركون أيديهم استجلابًا للدفء.

أمَّا غرفتُنا، فكانت تحتفظ بحرارةٍ رائعة. ولا شيءَ يُسمع سوى صوت أظافر الرجل. الشرطيَّان الحارسان بالباب يلزمان الصمت. خفضت عينيَّ إلى حذائي المتَّسخ. جفَّت جواربي من دون أن أنتبه إلى ذلك. فكَّرت في أنْ لا فائدة في أن أسأل أسئلةً أخرى عن الجدّ. حاولت أن أستذكر الحوارات التي دارت بيني وبين شرطة الذاكرة منذ أن وطئت قدماي المقرّ الرئيس، فكانت النتيجة أنَّني لم أخلص إلى أيِّ نتيجةٍ فيما يتعلَّق بمصيره. سلَّمت بالأمر، ولم أرغب في المواصلة، فلملمت في حقيبتي ما كنت قد نثرتُه على الطاولة. قِطَعُ الخبز الصغيرة التي كانت ما تزال ساخنةً حين غادرت المنزل، صارت الآن باردةً تمامًا.

قال الرجلُ وهو يُخرج من دُرج الطاولة ورقةً:

. حسنًا، حان الآن دوري لأطرح الأسئلة.

كانت الورقةُ الرماديَّةُ البرَّاقة تحوي مواضع بيانات مفصَّلة، كالاسم والعنوان والمهنة بالطبع، وأيضًا الدراسة، والأمراض، والمعتقد، والمؤهِّلات، والطول، والوزن، وقياس الحذاء، ولون الشَّعر، وفصيلة الدم، إلخ.

. تفضَّلي، استعملي هذا.

مدَّ لي قلم حبرٍ أخرجَه من جيب صدره. وتلك كانت اللحظة التي بدأتُ فيها أندمُ على مجيئي. بقدر ما كنت أفصحُ عن معلوماتي، بقدر ما كانت المسافة بيني وبين ر تتقلَّص. كان عليَّ أن أُدرك ذلك. لكنَّ الأخطر هو أن أُبديَ اضطرابًا. لقد سبقتْني إلى هنا أمِّي، فلا عجب أن يكونوا على علمٍ بكلِّ ما يتعلَّق بي.

الحقّ أنَّهم لم يكونوا يرغبون في معرفة اسمي أو عنواني، وإنَّما فقط كانوا يختبرونني. لذا، كان من المهمّ جدًّا أن أتصرَّف على طبيعتي.

وأنا أردِّد في ذهني كلّ ذلك، تناولت القلم من يد الرجل وأنا أحدِّق في عينيْه. لم تكن ثمَّة أسئلةٌ معقَّدة. ولكي لا ترتعد يدي بذلتُ جهدًا في تحريك القلم بأبطأَ من المعتاد. قلمٌ ناعمُ الملمس، يبدو فاخرًا.

- تفضَّلي، سيبرد.

شجَّعني الرجل على شرب الشاي.

- أشكرك...

من أوَّل رشفةٍ، أدركت أنَّه ليس شايًا عاديًّا. كان ثمَّة اختلافٌ عجيبٌ في الذوق والرائحة. لم يسبق لي قطّ أن ذُقت مشروبًا

مماثلًا. كانت الرائحةُ رائحةَ غابةٍ تراكمت فيها الأوراق الميِّتة، مزيجًا من الحموضة والمرارة. لم يكن سيِّئًا، لكنْ كان يلزمني الكثير من الشجاعة لأبلع تلك الرشفة الأولى. لأنَّني كنت أقول لنفسي إنَّه قد يحتوي مادَّةً ما، وإنَّ الغرض منه تنويمي لاستلال الأسرار منِّي، أو تحليل جيناتي، أو أيّ شيءٍ آخر.

كان الرجل والشرطيَّان يحدِّقون فيَّ. شربتُ الشاي صامتةً، ثم مددت للرجل الورقة التي ملأتُها.

- حسنٌ.

بعدما ألقى نظرةً سريعةً، وعلى وجهه ابتسامةٌ خفيفة، أعاد الرجلُ قلمه إلى جيبه. تأرجحت شارته مرَّةً أخرى.

* * *

عاد الثلج يتساقط. بسبب التوتُّر الذي تعرَّضت له هذه الظهيرة، وبسبب الشراب الغامض، ظلَّت أعصابي مشدودةً على نحوٍ غريب، وظننتُ أنِّي سأجد صعوبةً في النوم. أخرجت أوراقي لأحاول كتابة تتمَّة روايتي، لكنْ لم تسعفني أيُّ كلمة. وإذ لم يكن لديَّ ما أفعله، أخذت أتابع الثلج يندف عبر خصاص الستار.

أزحت قاموس اللغة اليابانيَّة، وقاموس الأمثال من مكتبي، وتناولتُ القِمعَ المخبوءِ خلفَهما، القِمعَ الذي كنَّا نتَّخذه وسيلةً للتواصل.

قرَّبته من فمي، وقلت بحذرٍ:

ـ هل نمت؟

أجابني صوت ر:

ـ كلَّا، ليس بعد.

وسمعت في الآن نفسه صريرَ نوابضِ السرير. إذ كان قمع الغرفة السرِّيَّة مثبَّتًا عند رأس سريره.

ـ تحتاجين شيئًا؟

ـ كلَّا، لا أحتاج شيئًا. فقط جفاني النوم...

كان القِمْع من ألومنيوم بلون الفضَّة وعلى قَدْرٍ من البِلى. وعلى الرَّغم من أنَّه قد نُظِّفَ بعنايةٍ، إلَّا أنَّه كان ما يزال يحتفظ برائحةٍ خفيفة، رائحة توابل الزمن الذي كان يُستعملُ فيه بالمطبخ.

ـ الثلج يسقط في هذه الأثناء. أتدري ذلك؟

ـ صحيح؟ لم أنتبه البتَّة. الثلج يسقط بكثرةٍ في هذه الآونة، أليس كذلك؟

ـ نعم، وهذه السنة على وجه التخصيص.

ـ يبدو لي أمرًا لا يُصدَّقُ أن يتساقط الثلج من الجانب الآخر لغرفتي.

كنت أحبّ نبرةَ صوته كما تصلني عَبْر هذا النظام الصوتيّ. كأنَّما هو نبعٌ ينفجر بعيدًا تحت قدميَّ. وكلّ ما يشوبه من زوائدَ يتخلَّص منها في مسراه عَبْر خرطوم المطَّاط الطويل، فلا يصلني إلَّا السائلُ المسموع، سائلُ صوتِهِ العذبِ الشفيف. وكلَّما أفلتَ قطرةً من هذا السائل كنتُ أحشر أذني اليسرى بأكملها في القِمْع.

ـ من حينٍ إلى آخر، أُلصق كفَّيَّ على الحائط محاولًا تخيُّل ما يجري بالخارج. وإذ أضع يديَّ كذلك، أقول إنِّي ربَّما قد أشعر بشيء. اتِّجاه الريح، البرد، الرطوبة، مكان تواجدك، خرير النهر، أقصد هذه الضروب من الإحساسات. لكنَّ الأمر لا يصدُق أبدًا. ليس الحائطُ إلَّا حائطًا. لا شيءَ خلفَه، ليس مرتبطًا بأيِّ شيء. المكان

هنا مصمَتٌ تمامًا. لا ينشأ في نفسي إلَّا الإحساس بأنَّني في مغارةٍ معلَّقة.

. لقد تغيَّر المشهد بالخارج تمامًا، مُذ وصلتَ إلى هنا. وكلّ هذا التغيُّر بسبب الثلج.

. كيف؟

. الحقّ، يصعبُ التعبير عن ذلك بكلمة. بدايةً، لقد غطَّى الثلج كلّ المنظر، حتى إنَّ الشمسَ الباهتة لم تستطع إذابته. وبسبب ذلك، انمحت المعالمُ، كأنَّما مساحةُ المنظر بأكمله قد تقلَّصت إلى أربعة أخماسها. السماء كما البحر، والتلال، والغابات والنهر. لذا ترى الجميع يسيرون بأكتافٍ منحنية.

. حقًّا...

ومع عبارته المتعجِّبة، سمعتُ مرَّةً أخرى صرير نوابض السرير. لا بدَّ من أنَّه يكلِّمني وهو مستلقٍ على سريره!

. نُدف الثلج في هذه الآونة غليظةٌ على نحوٍ بيِّن. تتساقط كأنَّها النجوم تهوي من السماء. ترقص في الظلمات، وتتلألأ مصطدمةً بعضُها ببعض. تستطيع تخيُّل الأمر؟

. صعبٌ. لكنَّني أفهم أنَّ الأمر جميلٌ حتى لَيصعُب تخيُّلُه.

. نعم، الأمر حقًّا جميل. لكنَّني أتساءل عمَّا إذا كانت ملاحقةُ الذكريات مستمرَّةً في مكانٍ ما من الجزيرة، حتى في ليلةٍ بهذا الجمال. ألا تنمحي الذكريات حتى في برودة الثلج؟

. طبعًا لا. لا علاقة للذكريات بالبرودة. الذكريات أمتن ممَّا تتصوَّرين. والأمر نفسه ينطبق على القلوب التي تحفظُها.

. حقًّا؟

. كأنَّما يبدو لك الأمرُ مؤسفًا!

. لأنَّني أحسبُ لو أنِّي أستطيع أن أُليِّن قلبك ليصير مثل قلوبنا، فلن تضطرّ إلى العيشِ متخفِّيًا في مثل هذا المكان.

أطلق آهةً ما هي بالزفرةِ ولا بالهمسة.

حين نتكلَّم عبر هذه الوسيلة، يكون لزامًا علينا أن ننقل القِمْع من الفم إلى الأذن، ثم من الأذن إلى الفم، بحيث تطفو بين كلامنا لحظاتُ صمت. وبفضل هذا الصمت، يبدو أتفهُ الحديث كأنَّما نُظِمَ من كلماتٍ فُكِّرَ فيها بعمقٍ.

. إن استمرّ الوضع على هذه الحال، سوف أضطرّ غدًا صباحًا إلى كسح الثلج.

بسطتُ يدي لأفرج الستارَ فرجةً أكبر.

. الاثنين والخميس، تأتي شاحنات البلديَّة لحمل الثلج. ثم تُلقي به إلى البحر، في الميناء حيث عبَّارة الجدّ. نتعرَّف على الشاحنات فورًا، من الضجيج الذي تحدثه. أثناء عمليَّة النقل، يتَّسخ الثلج، يصير في حالٍ يُرثى لها. ثم يختفي بين الأمواج، كأنَّما تبلعه حنجرةُ البحر الهائلة.

. يلقون به إلى البحر؟ لم أكن أعرف.

. أجل. هو أمثل مكانٍ للتخلُّص منه. لكنَّني أتساءَل عن مصيره بعد أن يختفي بين الأمواج. أفكِّر في الأمر دومًا، كلَّما أبصرتهم من فوق سطح العبَّارة. أفكِّر في مصير الثلج.

. يذوب، يصير مالحًا، ويصير متعذّرًا فصلُه عن ماء البحر؛ ثم بعدها، قطعًا، يكتفي بأن يعومَ حول الأسماك ويهزَّ الطحالبَ.

ـ أجل، ربَّما. ثم بعد ذلك، تبلعه الحيتان، وتنفثه من فتحاتها.

بدَّلت اليد التي أُمسك بها القِمْعَ، وأسندت يدي على المكتب.

ـ على أيِّ حالٍ، هو يختفي قبل أن يصل إلى أيّ مكانٍ.

ـ أجل، تمامًا.

تنهَّدَ.

حولنا نوافذُ المنازل كلّها مظلمة. لم نسمع صوتَ السيَّارات في الشارعِ الرئيس، ولا صوتَ الريح أو صفَّاراتِ الشرطة. لم يكن ثمَّة إلَّا الصوتُ الذي يسيل في أذني.

ـ لا أدري لمِا كلَّما رأيتُ الثلج فكَّرتُ في النوم...

ردَّد بعد برهةٍ:

ـ ... في النوم؟

ـ نعم. هل تجد الأمر غريبًا؟

ـ كلَّا، مطلقًا.

ـ ليست فكرةً شديدة العمق والصعوبة. لا بل إنَّها بسيطةٌ، هيِّنةٌ وعاديَّة. فكرةٌ أشبهُ بوجود كعكةِ فراولة لم تُؤكل بأكملها، وتُركت في المطبخ...

ـ ...

وضعتُ القِمْعَ على أذني، لكنْ لما طال صمتُه، أعدتُه إلى فمي.

ـ أفكِّر أمام كعكة الفراولة. هل آكلها، أم أُلقي بها، أم أطعمُها الكلبَ؟ عندما أتأمَّل الثلج، أجدني أفكِّر هكذا داخل المطبخ، فجأةً، أفكارًا لا رابط بينها. طبعًا، الكعكةُ تغطِّيها طبقةُ قشدةٍ نظيفةٍ كالثلج. فإن ظللتُ ساكنةً للحظةٍ، ينتهي بي المطاف إلى أن أُدرك أنَّ النومَ قد حلَّ محلّ كعكة الفراولة، من دون أن أنتبه... هذا ما أفكِّر فيه. عجيب!

ـ كلَّا، لا عجب. إنَّما هو نشاطُ قلبك. فمهما تعاورته الثقوبُ، إلَّا أنَّه ما يزال يحاول أن يحسّ بشيء.

ـ فُتاتُ حلوى جنوازيَّة، حبّات سكَّرٍ مسحوق، والشوكة اللزجة من القشدة.. كلّها تنتهي راقدةً على مائدة حُجرة الطعام، مثل شظايا نومٍ عديدة. لا أقول إنَّها تدعوني إلى النوم. وإنَّما فيه تتَّخذُ شكلها. وأواصل التفكير. هل سأحمل النومَ إلى فمي، أم أُلقي به، أم أعطيه الكلب؟

- وماذا تفعلين؟

- لا أدري. أكتفي بالغوْص في تأمُّلاتي. بالفعل، أرغب في أن ألمس الكعكة، أن أبتلعها وأغرقَ في النوم عميقًا، لكنْ من جهةٍ أخرى، أخاف من هاجس ألَّا أرجعَ من النوم. غير أنَّ الشيء الأكيد، هو أنَّ من الجهة الأخرى ما تزال ثمَّة قطعةُ كعكة.

على الرَّغم ممَّا بذله الجَدُّ من مهارةٍ في إنشاء نظام الاتِّصال، إلَّا أنَّه كان بسيطًا لدرجة أنَّ الصوت يصير بعيدًا جدًّا، عند أدنى التواءٍ في الخرطوم أو انحرافٍ في القِمْع. ولا فائدة في رفع الصوت. كنت أتكلَّم مضيِّقةً فمي حتى أتمكَّن من تسريب الكلمات عبر الخرطوم تسريبًا أمثلَ.

- أيَّام طفولتي، كنت أصبو إلى عالم النوم. أتخيَّل أنَّه عالمٌ لا واجبات مدرسيَّة فيه، ولا وجَبات سيِّئة، لا تمارين الهارمونيوم، لا ألمٌ أو تحكُّمٌ أو دموع. ولما بلغتُ الثامنةَ من عمري، فكَّرت في الهرب

من المنزل. نسيتُ لِمَ! لا بدَّ من أنَّ السبب كان تافهًا. ربَّما حصلتُ على علامةٍ سيِّئةٍ في امتحانٍ ما، أو ربَّما كنت الوحيدةَ في الفصل التي لا تستطيع أن تقوم بلفَّةٍ خلفيَّةٍ على العارضة. قرَّرت أن أترك المنزل وأقصد عالمَ النوم.

ـ بالنسبة إلى فتاةٍ في سنِّ الثامنة يُعدّ هذا هروبًا متقنًا.

ـ وذات أحدٍ، بينما ذهب والداي لحضور حفل زفافٍ، انتقلتُ إلى تنفيذ مخطَّطي. وكانت مربِّيتي قد ذهبت إلى المستشفى تُجري عمليَّةَ الحصاة الصفراويَّة. أخذتُ علبةَ أقراص النوم التي كانت موضوعةً في دُرج مكتب والدي. كنتُ دائمًا أراه يأخذ حبَّةً مساءً قبل أن يخلدَ إلى فراشه. وفي النهاية، لا أذكر كم بلعت منها. تناولت أقصى ما أستطيع، لكنَّني لا أظنُّ أنَّ الكمِّيَّة فاقت أربعًا أو خمسًا؟ انتفخت بطني، وصار حلقي يوجعني لدرجة أنَّني ما عدت قادرةً على البلع. لكنْ ما لبث النوم أن بدأ يراودني. استسلمت إليه برضًا، قائلةً:

ـ آه.. أستطيع الآن أن أذهب إلى عالم النوم، ومع الكمِّيَّة التي بلعتُها لا أظنّني سأعود منه.

قال بنبرةٍ حذرة:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لا شيءَ يستحقّ الذكر. نمتُ بالطبع، لكنْ لم يكن ثمَّة وجودٌ لعالم النوم. لا شيءَ غير ظلماتٍ تمتدُّ... كلَّا ليس التعبير دقيقًا. ليس ثمَّة حتى ظلمات. لم يكن ثمَّة شيءٌ، لا هواء، لا صوت، لا ثقل، حتى أنا نفسي لم يكن لي وجود. العدمُ المذهل. حين استعدت وعيي، كان الوقتُ مساءً. نظرتُ حولي متسائلةً كم لبثتُ نائمةً: خمسة أيَّام، شهر، سنة؟ زجاج النوافذ كان مصطبغًا بألوان الغروب. لكنَّني سرعان ما أدركتُ أنَّنا لم نزل في مساء الأحد نفسه. عاد والدايَ من حفل الزفاف. لا أحد منهما انتبه إلى أنَّني نمت النهار كلّه. كانا متحمِّسيْن جدًّا، ويريدان أن أتذوَّق معهما حلوى باومكوخن(7) تلقَّياها هديةً.

. ألا يمرض الأطفال حين يتناولون منوِّمات؟

. بالعكس، إنَّ النومَ العميق قد أكسبني لياقةً جيِّدة. لذا، كان الأمر أشقّ عليّ. الأرجح أنَّ ما تناولتُه لم يكن منوِّماتٍ وإنَّما مجرَّد ؟يتامينات. على أيّ حالٍ، لم أبلُغ أيّ مكانٍ. تمامًا مثل الثلج الذي يُلقى به في البحر.

الليلُ ماضٍ في طريقه، ويدي الممسكة بالقِمْع تزدادُ برودةً. لم يعد ثمَّة الكثير من الوقود، لأنَّ اللهبَ يبدو مترنِّحًا.

. آه! هل تريد أن أُسمعكَ، عبر القِمْعِ، صوت الثلج المتساقط؟

قمت لأفتح النافذة. لم يكن الجوّ بالبرودة التي تصوَّرتها. كنت أشعر بالوخز فقط في وجنتيَّ. لم يكن الخرطوم طويلًا بما يكفي لبلوغ الخارج، لكنَّني سحبته وُسعَ استطاعتي، موجِّهةً القِمْع إلى الثلج، كأنَّما أريدُ أن يتسلَّل هواءُ الخارج إلى غرفته. حين فتحت

النافذة، أخذ الثلج يتحرَّك في دوّامةٍ بسبب تيَّار الهواءِ، لكنَّه ما لبث أن استعاد حركة سقوطه المستقيمة.

سألته:

ـ كيف تجده؟

نِدَفٌ تدخلُ من النافذة وتسقط على شعري.

ـ آه.. إنِّي أشعر به. أشعر بصوت الثلج.

امتصَّ الليل وشوشةَ صوته.

(7) حلوى ألمانيَّة، تعني حرفيًّا: الحلوى الشجرة.

١٤

ثلاثة أيَّامٍ بعد ذلك، أُطلق سراحُ الجَدّ.

مساءً، أثناء جولتي المسائيَّة المعتادة، عرَّجتُ على العبَّارة أتفقَّدُها، فوجدته ممدَّدًا على أريكةِ مقصورةِ الدرجة الأولى التي يتَّخذها غرفةً.

هرعتُ على ركبتيَّ أتعلَّق بحافَّة بطَّانيَّته، وسألتُه:

ـ متى عُدتَ؟

ـ هذا الصباح.

كان صوتُه واهنًا، أجشّ. نمَت لحيَتُه، وتشقَّقت شفتاه، وصار مظهره مزريًا.

ـ جيِّد. سعيدةٌ لأنَّك سليمٌ معافى.

داعبت مرَّاتٍ شعرَه وخدَّيْه.

. آسفٌ، لأنَّني تسبَّبت لكِ بالقلق.

. أخبرني، بالأحرى، كيف حالك؟ تبدو في حالٍ من الوهن. هل أنت مصابٌ؟ أليس يُستحسن القيام بفحصٍ في المستشفى؟

. كلَّا. كلّ شيءٍ على ما يرام. لستُ مصابًا. أنا فقط متعبٌ قليلًا، ولذلك وجدتِني أرتاح.

. حقًّا، كلّ شيءٍ على ما يرام؟ آه، نعم، لا بدَّ من أنَّك جائع! سأعدُّ لك شيئًا تقوِّم به بدنَك. انتظر لحظة.

ربَّتُّ على صدره من فوق البطَّانيَّة.

في غيابه، بدأت الموادُّ في الثّلّاجة تفقد نضارتها، لكنْ لما كان ذاك آخر همومي، فقد أعددتُ له حساءً من كلِّ الخضر التي وجدتُها، قبل أن أحضِّر شايًا. ثم أعنته على القيام، وعقدتُ حول عنقه منديلًا، وساعدته في تناول الحساء.

انتظرتُ أن يتناول ثلاث رشفاتٍ من حسائه، ولما انتعشتْ روحُه قليلًا، سألته:

ـ على الرَّغم من كلّ شيء، أرغب في أن أعرف ما حدث لك عند شرطة الذاكرة.

ـ اطمئنِّي. لا علم لهم بالمخبأ السرِّيّ. أستطيع أن أؤكِّد ذلك. إنَّ اهتمامهم في هذه الأثناء منصبٌّ بالكامل على التحقيق في قضيَّة مهاجرين غير شرعيّين.

ـ مهاجرين غير شرعيّين؟

. أجل، نهاية الشهر الماضي، فرَّت جماعةٌ من الجزيرة، على متن قاربٍ، من قدم الجُرف، بالرأسِ حيث ينتصب الفنار. فرُّوا، هربًا من ملاحقي الذكريات.

. لكنْ كيف استطاعوا ذلك؟ أليست كلّ المراكب الباقية في الجزيرة غير صالحة؟ مضت سنواتٌ طوالٌ منذ اختفت المراكب. مصيرُها كان مصيرَ عبَّارتك، أليس كذلك؟ ثم، هل ثمَّةَ من ما يزال يذكرُ كيف تعمل المراكب؟

. نعم. أولئك الذين يلاحقهم ملاحقو الذكريات، لم ينسوا شيئًا. لم ينسوا صوتَ المحرِّك، ولا رائحة البنزين، ولا شكل الأمواج حين ينزلقُ المركبُ في الماء.

مسح الجَدّ فمَه بمنديله، وسعل قبل أن يواصل:

ـ ضمن المجموعة التي فرَّت، يُفترض أن يكون مهندس أحواض بناء سفنٍ، أو ربّانُ سفينة، أو شخصٌ ما له علاقةٌ بمجال المراكب. أظنُّ أنَّ ذلك ما سمح لهم باستخدام تلك الوسيلة الرائعة. في الوقت الذي لا يفكِّر الجميعُ إلَّا بالاختباء، لم يخطر ببال أحدٍ أنَّ ثمَّة من سيجرؤ على الفرار بحرًا. بدا على رجال الشرطة الذعر.

ـ وهل شكُّوا في أنَّك قد ساعدتهم في الهرب؟

ـ نعم. أظنُّ أنَّ كلَّ من كانت لهم معرفةٌ تقنيَّةٌ بهذا المجال، سيقوا إلى مركز الشرطة. حقَّقوا معي مدقِّقين عدَّةَ مرَّاتٍ. أروني صورَ أُناسٍ لا أعرفهم، أخذوا بصماتي، وسألوني أسئلةً عمَّا كنت أفعله خلال الأشهر الماضية، وفتَّشوني... كان تقريبًا تحقيقًا مثيرًا للإعجاب. آه، بالطبع لم أقل شيئًا عن الغرفة السرِّيَّة. كانوا مستغرقين تمامًا في قضيَّة المركب، حتى إنَّه لم يخطر ببالهم الشكّ في شيءٍ آخر.

حرَّكتُ الحساء، وجمَّعتُ قطع الجَزَر الصغيرة. وكلَّما رفعتُ إلى فمه ملعقةَ حساءٍ، كان يبلعها وهو يهزّ رأسَه كمن لا يعرفُ كيف يعتذر.

. إنَّهم يبالغون. يحقِّقون مع شخصٍ لا علاقة له بالأمر، إلى درجة أن يصيبوه بهذا القَدْر من الوهن...

. كلَّا، كلَّا. إنَّما أنا فقط متعبٌ قليلًا. بما أنِّي لم يكن لديَّ ما أخفيه بخصوص قضيَّة الهاربين، فإنَّ أسئلتهم لم تكن تُخيفني. لكنْ كان عليَّ أن أقاومَ أكثرَ ضراوتَهم القاسية.

. أتساءلُ، كيف استطاعوا أن يجهِّزوا المركب من دون أن يثيروا انتباه شرطة الذاكرة!

. نعم. لا أعرف التفاصيل، لكنَّني أظنُّ أنَّهم قد هيَّأوا سرًّا مركبًا من المراكب التي بقيت في حوض بناء السفن. بالطبع، لم يكونوا

يتوفَّرون قَطْعًا على كلِّ الأدوات اللازمة لذلك. لما اختفت المراكبُ، انتُزعت محرِّكاتُها جميعًا، وفُكِّكتْ قِطعُها، وأُلقيَ بها في البحر. لا بدَّ من أنَّهم قد ابتكروا قطعَ غيارٍ. لقد سألتْني الشرطة بخصوص هذه الأمور التقنيَّة، لكنَّني بالطبع لم أعرف بما أُجيب. فذاكرتي لم تحتفظ بأيِّ ذكرى تخصّ المراكب.

- حقًّا؟...

صببت بعضَ الشاي من القنِّينة العازلة في فنجانه، ثم مددته إليه.

عبر الكوَّة، كنَّا نبصر البحرَ كالعادة. لم تكن الريحُ شديدةً، لكنَّ الموج كان مصطِخبًا. قِطعٌ من طحالبَ تطفو بين الأمواج. وفيما وراء الأفق يدنو الشفق.

وبعدما تأمَّل الجَدُّ لبرهةٍ محتوى الفنجان الذي يمسكه في يده، شربَه دفعةً واحدة.

قلت:

ـ لكنْ لا بدَّ من أنَّهم قد شعروا بالخوف. أن يذهبوا مجذِّفين في عزِّ الليل.

ـ نعم، ذلك ما أظنُّه. لأنّني أعتقد أنَّ مركبهم المصنوع من موادَّ متفرِّقةٍ ليس بالمركب الثقة.

ـ أتساءل كم كان عددهم على متن المركب!

ـ لا أدري. لكنْ لا بدَّ من أنَّ عددهم كان يفوق ما يسمح به المركب، ألا تظنِّين ذلك؟ لا بدَّ من أنَّ عددَ الناس الراغبين في الفرار يفوقُ طاقةَ المركب.

نظرتُ مجدَّدًا عبر المنْوَر، محاولةً تخيُّلَ مركبٍ يطفو فوق ماء البحر. مركبٍ خشبيٍّ صغيرٍ، يشبه قطْعًا تلك المراكب التي كان يستخدمها الصيَّادون فيما مضى، وقد أضيف إليه بالكاد سقفٌ هيِّنُ المظهر.

وقد تقشَّر طِلاؤه في غير ما موضعٍ، وعلقت ببدنه الطحالبُ والصدفُ، وتضعضع محرِّكه، فبالكاد يدور! وفي داخله تكدَّس الركَّابُ واحدًا لصق آخر. وبالطبع، ما دام الفنار معطَّلًا ولا نورٌ يُضيءُ البحر غير ضياء القمر، فإنَّ ملامحهم لا تبين. لا، بل ربَّما لم تشهد تلك الليلةُ بزوغَ القمر، بسبب تساقط الثلج. فصار الناسُ كتلةً مظلمةً تملأ المركب. لا فجوةَ بينهم. حتى إنَّه يُخشى من أدنى اهتزازٍ في التوازن، يُلقي بهم إلى البحر كما تُشتِّتُ هبَّةُ ريحٍ حبوبَ ذُرة. ولفرط ثقله، لا يستطيع المركبُ السَّيْرَ بسرعة. ثم إنْ شُغِّل المحرِّكُ بأقصى طاقته، قد تنتبه الشرطةُ لضجيجه. وهذا أرعبُ شيءٍ. لذا، ما يزال المركبُ يتقدَّم شطر الأفقِ على مَهَلٍ، كأنَّما فَزِعًا. وكلّ من في المركب يشدّ بيدٍ على جزءٍ منه، ويضع اليدَ الأخرى على صدره، منخرطًا في صلاةٍ لا تنقطع، راجيًا أن يواصلَ المركبُ ابتعادَه من غير أن تكبِسَه الشرطةُ...

رمشتُ. على البحر، وحدها الطحالبُ ما تزالُ تتماوج. مضتْ سنواتٌ لم أرَ فيها مركبًا يعبره. يوم اختفاء المراكب، تجمَّدتْ

ذكرياتي المتعلِّقة بها، قبل أن تبتلعها لجَّةُ قلبي التي لا قرارَ لها. لذا، كان يشقّ عليّ تخيُّلُ أناسٍ يعبرون البحر.

سألته:

ـ وهل نجحوا في نهاية المطاف؟

ـ في جميع الأحوال، لقد تدبَّروا أمرَ فِرارهم من الجزيرة. لكنَّ الفصلَ شتاءٌ، وفيه يكون البحرُ هائجًا. ربَّما يكونون قد غرقوا من غير أن ينتبه لأمرِهم أحد!

وضع الجَدُّ فنجانه على الطاولة، ونشَّف بمنديله شفتيْه.

قلتُ وأنا أُشير إلى البحر:

ـ لكنَّني أتساءلُ إلى أين كان مقصدُهم؟ لا شيءَ يُلمح في ما وراء الأفق.

. لا أدري. لعلَّ ثمَّة في مكانٍ ما موضعًا تستطيع أن تواصل فيه العيشَ القلوبُ التي لم تخرقها الفجواتُ. لكنْ لا أحدَ ذهب من قبل.

على غطائه، ثنى منديله حتى صيَّره صغيرًا جدًّا.

* * *

بالإضافة إلى رجوع الجَدّ، وقع حدثٌ سعيدٌ آخرُ. ولادةُ أوَّل طفلٍ لـ ر. صبيٌّ يزِنُ كيلوغراميْن وتسعمائة وسبعة وأربعين غرامًا. وبما أنَّ الجَدّ لم يكن قد استعاد عافيَته بالكامل، فقد كنتُ أنا من ذهبَ يأتي بمحتوى حُجرة تسجيلات المعطيات الجوِّيَّة. وبما أنَّ الثلج لم يكن يسمح لي بأن أتنقَّل على الدرَّاجة، وليس معي المال الكافي لأستأجر سيَّارةً بسائقها، فلم يبقَ لي إلَّا أن أذهب سيرًا على قدميَّ حتى شمال التلّ.

بعد أن تنعطفَ عند تقاطع الطُّرُق الواقعِ أقصى شمالي الجزيرة، تبرز أمامك وُرشُ التكرير، ويكفي أن تواصلَ السَّيْرَ رأسًا. خلف

المقاصفِ ذات الستائر المسدلة، ومخافرِ العمّال، ومضخّةِ البنزين، والأراضي القفر، ينتصب البرجُ الحديديّ. يُشبه، كما وُصف لي، جسدًا مات استنزافًا فتحنّطَ.

كان مرهِقًا المشيُ في الأزقّة التي لم تُزِح منها الثلوج، ويقلّ بها المارّة. فقدت توازني مرّاتٍ عديدة، فوقعت أرضًا. صادفتُ عجوزًا حجبت رأسَها بأكمله تحت إيشاربها، ودرّاجةً ناريّةً تفرقع بهدوء، وقطًّا جائعًا.

وحين بلغتُ المدرسةَ في نهاية المطاف، كان الوقتُ قد جاوز منتصف النهار منذ مدّةٍ طويلة. كانت الساحةُ مدفونةً تحت الثلج، والثلجُ نقيًّا لم تطأه قدم. عن يميني، كانت العوارضُ والأرجوحةُ وكرة سلّة. وفي الجانب الآخر، تُرى أقفاصُ حيواناتٍ صغيرة، أرانب أو غيرها، لكنّها بالطبع كانت فارغة. وقبالتي، ترتفع البنايةُ بطابقيْها، نوافذُها تصطفُّ في قياسٍ واحدٍ.

لا شيء يتحرَّك في المشهد. لا ريح، ولا هيئة بشر. لا أسمعُ صوتًا إلَّا تنفُّسي. همستُ في قرارة نفسي بأنَّ المكانَ يُشبه مخزنًا روكِمتْ فيه مشاهدُ صارت بلا فائدة.

بعدما نفختُ في أصابعي عبر قفَّازيَّ، قصدتُ حُجرة المعطيات. وكانت بالضبط أقصى الممرّ القُطريّ الذي يقطع الساحة. كان الثلجُ سميكًا لدرجة أنِّي خفت من أن أمشيَ عليه. وفي سيري، لم أستطع مقاومةَ الالتفات خلفي لأرى هل تتبعني آثارُ قدميَّ بالفعل.

الحُجرةُ أيضًا غطَّتها قبَّةٌ من ثلج. سحبتُ بابها وأنا أرفعه قليلًا، مثلما بيَّن لي الجَدُّ، فانفتح في صريرٍ. وفي ضوء الشفق بالداخل، كانَ منصوبًا نسيجُ عنكبوت.

لمحتُ الأشياءَ خلفَ المحرار ومقياسِ الرطوبة. ملابس داخليَّة، وكتُب جيْب، وعلبة حلوى، رُبطتْ جميعًا في رزمةٍ صغيرةٍ تُناسب يدي، وفي أعلاها، حُشرت صورة الطفل الوليد.

من الذي أعدَّ الرُّزمة؟ أخذتُها. على ورقةٍ بحجمِ بطاقةٍ بريديَّة، رُسمَ بأقلامٍ ملوَّنةٍ وجهُ رضيعٍ مغمضِ العينيْن. شعرُه ذو اللونِ الكستنائيِّ الخفيفِ كان ناعمًا، والأذنان ذواتا شكلٍ منتظم، ومحيطُ عينيْه مرسومٌ بوضوحٍ، وكان يرتدي معطفًا من الكروشيه أزرقَ فاتحًا. لم يكن الرسمُ متقنًا جدًّا، لكنَّ الناظر إليه يحسُّ مدى العناية التي أولاها الراسم لكلِّ خطٍّ أو نقطةٍ في الكروشيه.

لقد «وُلد يوم ١٢ في الساعة الرابعة وستٍ وأربعين دقيقة صباحًا. قالت لي المولِّدة إنَّها منذ أن بدأت العمل في التوليد، لم تشهد قطّ ولادةً أيسر من هذه. الوليدُ أيضًا بخير. فقط، بعد ولادته مباشرةً، «عمل على بطني بيبي». كنت قد جهَّزتُ أزرارًاورديَّةً، وأزرارًا زرقاء، والآن قد خطتُ إلى ملابسه كلّها الأزرارَ الزرقاءَ. لا تقلق

بشأننا. ننتظرُ بثبات اليومَ الذي تستطيع فيه أن تحضنه بين ذراعيْك. إلى اللقاء، وتمنِّياتنا لك بصحَّةٍ جيِّدة».

في الخلف، كانت رسالةٌ من زوجته إليه. وبعدما قرأتُ البطاقةَ ثلاث مرَّاتٍ، أعدتُها إلى مكانها، ثم أغلقت حُجرةَ المعطيات الجوِّيَّة. انزلق الثلج الذي كان متراكمًا أعلاها، مُنسحقًا عند قدميَّ.

* * *

لأنَّ الغرفة السرِّيَّة لم تكن مغلقةً بالمفتاح، فقد فتحتُها من غير أن أدقّ البابَ. كان ر مستغرقًا في العمل على مكتبه، فلم ينتبه إليَّ. بدا لي أنَّه منهمكٌ في القيام بما كنت قد طلبتُه منه أمس: أن يصقل طقمَ الأواني الفضِّيَّ الوحيدَ في المنزل.

تأمَّلته لبرهةٍ من ظهره صامتةً. هل أتوهَّمُ أنَّ جسدَه قد تقزَّمَ شيئًا فشيئًا مُنذ أن لجأ إلى هذا المخبأ؟ بشرتُه التي لم تتعرَّض للشمس مُذ أتى إلى هنا، صارت بيضاءَ، ولا بدَّ من أنَّه قد هَزُل لافتقاده

الشهيَّة، غير أنَّ ما شعرتُ به ليس تحوُّلًا منطقيًّا، وإنَّما بالأحرى تغيُّرًا في الأبعاد، أمْيَلَ إلى أن يكون تغيُّرًا مجرَّدًا. كلَّما أتيتُه، انتابني الانطباع بأنَّ قدَّه يزداد بروزًا، ودمه يقلُّ، وعضلاتُه تضمر.

ربَّما كان هذا الدليلَ على أنَّ جسمَه قد تلاءَم وأبعادَ الغرفة السرِّيَّة. لكي تعيش في هذه الغرفة الضيِّقة، الشحيح هواؤُها، حيث لا صوت يصل، ولصْقَ قفاك الخوفُ من الاعتقال، فلا بدَّ لك، طوعًا أو كرهًا، من أن تتخلَّص من الزوائد. في مقابل احتفاظ القلب بكلّ شيءٍ، يفقدُ الجسدُ بسرعةٍ طاقته.

أتذكَّرُ كشكَ ملاهٍ كنتُ قد شاهدتُه فيما مضى على التلفاز. كان ثمَّة صندوقٌ يُسجنُ فيه الأطفال الذين بِيعوُا. وكان عليهم أن يظلُّوا في ذلك الوضع أشهرًا وسنواتٍ، أذرعهم وأقدامهم مثنيَّةٌ مقيَّدة، ولا تخرج من الصندوق إلَّا رؤوسهم عبر ثقب. لا يغادرون الصندوق حتى للأكل أو النوم. ثم ما تلبث أجسامُهم أن تتصلَّبَ

ويصيرون غير قادرين على بسط أطرافهم. إذّاك تُعرض على الجمهور أجسادُهم، أجسادُ الحشرات الشائهة.

لا أدري لِما تذكَّرتُ، وأنا أنظرُ إلى ظهره، طفلةً صغيرةً من أطفال أكشاك الملاهي، طفلةً عظامُ أطرافِها بارزةٌ، ومفاصلها صلبةٌ كأنَّها نتوءٌ، وأضلاعُها حادَّةٌ، وشعرها باهتٌ، كانت تنظرُ خافضةً عينيْها.

واصلَ صقلَ أواني الفضَّة، من دون أن ينتبه إلى حضوري. ظهرُه مقوَّسٌ، كأنَّما يصلِّي، كان يفرك شوكةً بعنايةٍ آخذًا كامل وقته. كان يُعمِلُ الخرقةَ في كلِّ تجويفٍ من تجاويف النقشِ على مقبضها، وبينَ أسنانها. السكَّريَّةُ، ومغرفةُ الكعك، وإناءُ غسل الأصابع، وملاعق الحساء، كلّ القطع التي لم تكن موضوعةً على المكتب، كانت مصفوفةً على ورق جرائد نُشرَ على الأرض.

لقد ظلَّ طقمُ أواني زواج أمِّي لوقتٍ طويلٍ موضوعًا في خزانة الأواني، بعدما كنّا نستعمله فيما مضى لخدمة الضيوف المميَّزين. سدًى بذلَ كلّ عنايته في صقله، فقطعًا لن تسنح لي الفرصةَ لأستعمله مرَّةً أخرى. لن نشهد أبدًا سهراتٍ ندعو فيها الضيوف، ولم تعد الجَدَّة هنا لكي تحضِّرَ أطباقًا جديرةً بأن تقدَّمَ في هذه الأواني الفخمة.

لم أتصوَّر أن أواجه هذا القَدْر من الصعوبة في إيجادِ مهامَّ غيرَ مرهقةٍ، ويمكن له أن يقوم بها في غرفته السرِّيَّة، مهامَّ تُجَنِّبه الملل لبعض الوقت. لم تكن مطروحةً مسألةُ الفائدة من وراء تلك المهامّ. وبعد تفكيرٍ، أقول إنَّ صقل الأواني هو الشغل الذي يناسبه أكثر من أيِّ شغلٍ آخر.

بادرتُه:

ـ هل تنوي مواصلةَ صقلِ تلك الشَّوْكة، حتى إن داهمتْك شرطةُ الذاكرة.

استدار من وقع المفاجأةِ، والشوكة في يده اليسرى مصوَّبةٌ إلى السماء، وأطلق «آه» صغيرة.

. سامحني، لأنَّني فتحتُ البابَ من دون أن أُحدث أيّ صوتٍ.

. عفوًا. لكنَّني لم أنتبه البتَّة.

. كنتَ تبدو مستغرقًا في شغلك لدرجة أنِّي لم أجرؤ على أن أقاطعك.

. لم أكن أنوي الاستغراق في العمل إلى هذه الدرجة...

بهيئةٍ منزعجة، حمل نظَّارته من إطارها، ووضعها على الخرقة.

. هل تسمح لي بأن أُزعجك قليلًا؟

. طبعًا. هيَّا، انزلي، وتعالي اجلسي هنا.

سائرةً على أطراف أصابعي، خطوْتُ من فوق الأواني الفضِّيَّة المصفوفة على الأرض، كي أجلس على السرير.

. إنَّها أشياءُ مكلفة. لم يعد بالإمكان الحصولُ على مثلها.

أدار كرسيَّه نصفَ دورةٍ لكي يستدير نحوي.

. تظنُّ ذلك؟ صحيح أنَّها كانت عند أمِّي قيِّمةً جدًّا.

. تستحقُّ أن تُصقل. وكلَّما اعتنينا بصقلها كانت النتيجةُ مجزيةً.

. كيف، مجزية؟

. طبقة البِلى التي تغطِّيها، تتبدَّد شيئًا فشيئًا، فتستعيد بريقَها. لا أقصد بالبريق لمعانًا ثاقبًا، وإنَّما نورًا أكثر خفاءً وهدوءًا وتوحُّدًا. حين نُمسك بها، ينتابنا الشعور بأنَّنا نمسك بالنور نفسه. إذّاك، أنتبه إلى أنَّها تحكي لي شيئًا، فتنتابني الرغبةُ في مداعبتها.

. ما كان ليخطر لي أبدًا أنَّ بريقَ الفضَّة قد يكون له هذا التأثير!

نظرتُ إلى الخرقة الزرقاء الموضوعة على الطاولة. وكان هو يُفرد أصابعه ويَثنيها كأنّما ليليِّن يديْه.

قلتُ:

. سمعتُ أنَّ الأُسر الغنيَّة كانت، فيما مضى، تستخدم خدمًا متخصِّصين فقط في صقل أواني الفضَّة. في غرفةٍ من مبنى حجريٍّ يُفضي إلى البهو، كانوا يقضون وقتهم كاملًا في الصقل. ذاك كان شغلهم الوحيدَ. لا يقومون بغيره. تكون في الوسط طاولةٌ ضيِّقةٌ وطويلة، وعند كلّ ركنٍ من أركانها يجلس خادم. وأمام كلّ واحدٍ

منهم، تُراكَمُ القطعُ التي يُفترض فيه أن يصقلها خلال اليوم. وكان ممنوعًا عليهم الكلامُ منعًا باتًا، إذ لا ينبغي أن تتلطَّخ أواني الفضَّة بِرِيقهم أو نَفَسهم. لذا كانوا يلزمون الصمتَ. وكانت باردةً الغرفةُ التي لا تدخلُها خلال النهار حتى أشعَّة الشمس. فقط مصباحٌ واهنٌ يضيءُ المكانَ. لأنَّهم لن يستطيعوا، في نورٍ قويٍّ، فحصَ الأواني والتأكُّدَ من أنَّها قد صُقلت كما ينبغي. ويتكلَّفُ خادمٌ أعلى منهم مرتبةً، خادمٌ يكون مسؤولًا بمعنًى ما عن أواني المطبخ، بمراقبة العمليَّة، فيفحص كلَّ آنيةٍ بعنايةٍ ليتحقَّق من أنَّ العملَ لم يطَلْه أيُّ إهمالٍ. يتناول الفضَّة، آنيةً آنية، ويفحصها من كلّ جوانبها، في ضوء المصباح، وفي الخلفيَّة الجدار الحجريُّ. فإن وجد أدنى بقعةٍ، لزم أن يُعاد الصقلُ كلّه. بالإضافة إلى أنَّ كمِّيَّة الأواني تُضاعَفُ بالنسبة إلى الخادم المسؤول عن الإهمال. حتى إنَّه يضطرُّ إلى قضاء ليلته في صقل الأواني. لذا كان الخدمُ، ساعة المراقبة، يخفضون رؤوسَهم وجَلًا... حكايةٌ غير موفَّقة. اعذرني.

بدا لي أنَّني قد بالغتُ في الحديث.

قال:

ـ كلّا، إنّها حكايةٌ مثيرةٌ للاهتمام.

ـ لكنْ، لا بدَّ من أنّها قد أضجرتك؟

ـ كلّا، مطلقًا.

هزَّ رأسَه.

وإذ تأمَّلتُه عن قربٍ، شعرتُ بجوٍّ الهشاشةِ والضعفِ المنبعث منه. عندما كنَّا نلتقي بالعالم الخارجيّ، كان يبدو أصلبَ. أيَّامَ كانت أعضاءُ جسمِهِ كلُّها تؤدِّي وظائفها كما ينبغي، كانت تمنحه تماسكًا. لم يكن فيه عيب. أمَّا الآن، فينتابني الانطباعُ، بأنَّ ضربةً خفيفةً من طرف سبّابتي على ترقوَّته، كفيلةٌ بأن تقوِّضهُ، فينهارَ ويتشظَّى ألفَ قطعةٍ، مثلَ دمية ماريونيت تقطَّعت خيوطها.

واصلتُ الكلام:

. ما أدهشني في قصَّة الخدم، هو أنَّهم كانوا يفقدون شيئًا فشيئًا أصواتهم. يبدو أنَّ جلوسَ المرء ساكنًا، في غرفةٍ من حجر، من السابعة صباحًا إلى السابعة مساءً، لا يفعل شيئًا سوى فرك آنيةٍ بخرقةٍ، ينتهي به فعلًا إلى الخرَس. حتى عندما يغادر المبنى، ويصير في حلٍّ من الحِرْص على عدم تلطيخ الأواني، فإنَّه يكون عاجزًا عن تذكُّر صوته. لقد كان الخدمُ جميعًا أُناسًا فقراءَ، لم يتلقُّوا تعليمًا، ولا عمل لهم غير ذاك، لذا هم مضطرُّون إلى مواصلة الفَرْك. كانوا مستعدِّين لأن يفقدوا صوتهم، في سبيل كسبِ بعضِ النقود. وكذلك كان: لقد صاروا خُرْسًا، واحدًا بعد آخرَ، وظلّ الصمت يبسط ذراعيْه، شيئًا فشيئًا، داخل المبنى. لم يعد يتردَّدُ فيه غيرُ صوتِ الخِرَق وهي تفرك الفضَّة. لكنَّني أتساءلُ، كيف وصلوا إلى تلك النقطة. هل للفضَّة القدرةُ على امتصاص الصوت؟

تناولتُ طَبَقَ التحلية الموجود عند قدميّ، ووضعته على ركبتيَّ. إنَّه الطَّبَقُ الذي كانت أمِّي تقدِّم فيه الشوكولاتة لضيوفها، أثناء

السهرات. لكنَّني كنت أُمنع من الأكل منه. كانت جدَّتي تخيفني قائلةً إنَّ من يأكل الشوكولاتة تهاجمُه حشراتٌ صغيرةٌ داخل صدره. كانت حافَّةُ الطَّبَقِ مزيَّنةً بعناقيد عنبٍ منقوشة. وكان ينتظر دورَه ليداعبه ر، إذ كان الغبار قد تراكم بين محاليقه(8) .

بعد برهةٍ، قال:

ـ أجل، ربَّما تتميَّز الفضَّة ببعضٍ من تلك الخاصِّيَّة.

كان صوتُه واهنًا، كأنَّما لا يقدرُ أن يقول أكثر.

القِمْع الذي يستعمله مكبِّرًا للصوت كان قد التفَّ عند رأس سريره. ومفرش السرير الذي نُظِّفَ لتوِّه منشّى بشكلٍ جيِّد، واليوميَّة المعلَّقة على الحائط اختفت تحت العلامات التي تُشير إلى الأيَّام المنصرمة.

بدا لي أنَّ، عقب كلّ زيارةٍ من زياراتي، تمتلئ الرفوف التي كانت في بدايتها حزينةً شيئًا فشيئًا.

قلت له بعدما ألقيت نظرةً شاملةً على الغرفة:

ـ بما أنَّ هذا العمل غير مستعجلٍ، فيمكنك أن تقوم به على رَسلك.

ـ نعم، أعرف.

ـ سيُحزنني أن تمتصّ الفضَّةُ صوتَك أنت أيضًا.

ـ لا تقلقي عليّ. أنا شخصٌ لا يفقد أيَّ شيء.

ـ أنتَ محقّ. لقد غفلت عن ذلك.

تبادلنا النظر ونحن نضحك باستحياء.

وحين هممتُ بمغادرة الغرفة، أعطيتُه الأشياء التي وجدتها في الحُجرة.

تأمَّل صامتًا صورة الرضيع. فكَّرت في أنَّ عليَّ أن أقول له شيئًا، لكنَّني لم أجد الكلمات المناسبة. بدا لي أنَّني مهما قلت، ستكون كلماتي غير موفَّقة، لذا آثرت الصمت.

لم يبدُ عليه بالغُ تأثير. كان فقط خافضًا عينيْه، على دأبه حين ينخرط في قراءة مخطوطٍ، أو صقلِ آنية فضَّة.

لم أستطع كبح نفسي وأنا أراه صامتًا، فقلت:
ـ مبروك.

غمغم:
ـ لقد اختفت الصور الفوتوغرافيَّة، على ما أرى.

ـ الصور الفوتوغرافيَّة؟

لم أُدرك مقصودَه من أوَّل وهلة، لكنْ لفرط ما كرَّرت الكلمة في نفسي، استطعتُ أن أتذكَّر بصورةٍ مبهمةٍ شيئًا كان يُسمَّى فيما مضى: صورة فوتوغرافيَّة: قطعةٌ من ورقٍ صقيلٍ تستنسخُ صورةً طبق الأصل لهيئةٍ بشريَّة.

ـ أجل، أنت محقّ. لقد اختفت.

قَلَب البطاقة، وشرع يقرأ الرسالة.

أمهلته إلى أن فرغ من القراءة، وقلت:
ـ إنَّه طفلٌ ظريفٌ جدًّا. لقد اختفت الصور الفوتوغرافيَّة، لكنْ لا بدَّ من أنَّ ثمَّة إطارًا في مكانٍ ما. سأحاول أن آتيك به.

وضعت قدمي على السلّم.

قال لي وهو ما يزال خافضًا رأسَه:

ـ شكرًا.

(8) مفردُها محلاق، وهو طرفٌ نباتيٌّ لولبيٌّ تستعمله الكروم، وأمثالها من النبات، للتعلُّق بجدارٍ أو نباتٍ آخر، أو...

١٥

حدث أمرٌ سيِّء. ذات صباحٍ، تعطَّلت فجأةً آلتي الكاتبة. عبثًا كنتُ أنقر على المفاتيح، لم تعد نوابضُ الحروف ترتفع. بالكاد كانت تهتزُّ اهتزازًا خفيفًا كأنَّها أطرافُ جرادةٍ مهتاجة. لا واحدَ منها يعمل: لا الحروف من A إلى Z ، ولا الأرقام من ١ إلى ٠، ولا الفاصلة، ولا النقطة، ولا علامة التعجُّب.

إلى حدود الليلة الماضية، حين أنهيت يومي بأن كتبت له تُصبح على خير، كانت مفاتيح الآلة كلّها تعمل بلا عيب. ولم أسقطها، ولا صَدمتُها. معقولٌ إذن أن أستيقظ هذا الصباح، فأجد نفسي عاجزةً عن كتابة حرفٍ واحدٍ. بالطبع قد عَرَفتِ الآلةُ، حتى يومنا هذا، بعض التصليحات الصغيرة: تقويم حرفٍ اعوَجَّ، أو تحسين عمل أسطوانة، لكنَّها كانت آلةً دقيقةً ومتينة.

ظننتُ أنَّها قد تعود للاشتغال من تلقاء نفسها، وضعتُها على ركبتيَّ، وجعلت أضرب بقوَّةٍ على كلِّ مفتاح.

وكان هو قد جلس على ركبتيْه بقربي، يراقبني... A، S، D، F، G، H، J، K ، وحين بلغت حرف L ، طوَّق كتفيَّ بذراعه.

ـ إن واصلتِ هذا العبث، فسوف تتعطَّلُ أكثر. هاتِها.

رفع الآلةَ بيديْه، ونزع غطائها، وعالج بحَذَرٍ بعض القطع، محاولًا إدارتها. أردتُ أن أسأله « وإذن؟»، لكنْ بالطبع لم يكن صوتي يخرج، مثلما لم أكن أستطيع النَّقْر على مفاتيح الآلة. وحدها أصابعي كانت تنقر في الهواء، بدافعٍ من العادة.

قال:

ـ يبدو أنَّ الأمرَ معقَّدٌ بعض الشيء. تحتاج إصلاحًا فعليًّا.

رفعت عينيّ إليه متسائلةً:

. «ماذا بوسعنا أن نفعل؟»

. هيَّا بنا إلى حُجرة البرج، حيث توجد الساعة، تحت حُجرة الدرس. إنِّي أتَّخذها، بموافقةٍ من الكنيسة، مخزنًا وورشَ تصليح. هناك أدواتي كلّها، وإن لم أستطع إصلاحَها، تستطيعين أخذ آلةٍ أخرى. لا داعي إذن للقلق.

* * *

لم أكن أعرف أنَّ المقرَّ أسفلَ قاعة الدرس، كان يُستخدم على ذلك النحو. كنت أعرف أنَّ فيه ميكانيزم الساعة، وأنَّ الأجراس تُقرع مرَّتيْن في اليوم، في الحادية عشرة صباحًا، والخامسة مساءً، لكنَّ أقدامي لم تطأ الحُجرة قطّ.

الحقُّ أقول، منذ طفولتي وأنا أخاف خوفًا رهيبًا من الأجراس. لذا لم أرغب قطّ في صعود البُرج. كان صوت الأجراس، المهيب جدًّا والمفرط في الثقل، مع أصدائه التي لا تنفكّ تذوي، يُشبه بالنسبة

إليَّ أنينَ رجلٍ يحتضر. كان الرنين يتردَّد في أرجاء المدينة كلّها. وسواء كنت أتمرَّن على الآلة الكاتبة في قاعة الدروس، أو أنتقي الخُضَر في السوق، أو أمارس معه الحبَّ في السرير بالمنزل، ما إن تبدأ الأجراس تُقرع، حتى يتصلَّب جسدي، ويأخذ قلبي في الخَفَقان بشدَّة، ويمنعني القلق من التنفُّس. لكي يُصدر الجَرَس مثل هذا الصوت، ينبغي أن يكون في قمَّة البُرج تُرسٌ ضخمٌ، وسلسلةٌ هائلةٌ ومُعادلُ وزنٍ من الصُلب، وأن تعمل جميعًا بطريقةٍ معقَّدةٍ كلَّما تحرَّكت العقاربُ. في الساعة الحادية عشرة وفي الساعة الخامسة، تكون السلسلة قد التفَّت على نفسها تمامًا، فتشدُّ المطرق. فإن تدخَّل أخرقُ وسط الميكانيزم، فلا بدَّ من أن يمسكه التُّرْس، وتخنقه السلسلة، ويسحقه معادلُ الوزن...

ذاك ما كان يجنح فكري الطائشُ إلى تخيُّله. إلى هذه الدرجة كان ضجيج الجرس مرعبًا بالنسبة إليَّ.

كان باب المقرّ مغلقًا بالمفتاح. أخرج سلسلةَ مفاتيحَ من جيب سترته الداخليّ، ومن دون تردُّد، أعمل مفتاحًا منها في القفل. وعلى الفور، لمحت الكرونومتر في جيْبه.

كانت الحُجرة بالداخل مختلفةً عمَّا تخيَّلتُه. بالفعل، كان خلفَ ميناءِ الساعة ميكانيزمُ بأكمله: تُرسٌ مسنَّنٌ، وبَكَرةٌ وزنبرك؛ تتحرَّك جميعًا مترابطةً؛ لكنَّها لم تكن تُشغل إلَّا مساحةً ضيِّقةً من الحجرة التي كانت مزدحمةً بركامٍ من آلات الكتابة.

وقفتُ عند العتبة لحظةً، أُلقي على المقرِّ نظرةً شاملةً. كنت في حيْرةٍ، إذ لم أتخيَّل قطّ أن يتراصَّ هذا القَدْرُ من الآلات الكاتبة في مكانٍ واحد.

دعاني وهو يمسك يدي برفق:

- تعالَي.

انغلق البابُ خلفي بصخب. كان السقفُ واطئًا، ولم تكن ثمَّة نافذةٌ باستثناء مناور الزجاج في قمَّة البُرج. كان المقرُّ كئيبًا ومغبرًّا. الأرضيَّة الخشبُ تصرُّ كلَّما خطوتُ عليها خطوةً، وكعبي يعلق في مساميرَ تنبثق هنا وهناك. والمصباح المتدلِّي من السقف، ونورُه أوهنُ من أن يضيء الغرفةَ، يتأرجح تأرجحًا خفيفًا وإن لم تكن ثمَّةَ ريح.

دنوتُ بدايةً من الساعة. كانت أعظمَ ممَّا تبدو عليه حين نراها من أسفل. وكانت ثمَّة مسافةٌ فاصلةٌ بين الميكانيزم وميناء الساعة، ومنها يمكن أن نلمَس العقاربَ التي كان لها شكلُ سهامٍ. عقاربُ هائلةٌ لدرجة أنَّها لا تتحرَّك حتى إن صعدتُ عليها وتمدَّدت. كذلك كانت أمام ناظري الأرقام الرومانيَّة بأشكالها المرهفة، كان حجمُ الرقم XII ، يساوي حجمَ رأسي خمسَ مرَّاتٍ.

وفي الأسفل تُرى، صغيرةً، حديقةُ الكنيسة. كانت الأرض بعيدةً جدًّا، حتى إنَّ النظر إليها يُصيبُ بالدُّوار. كان الميكانيزم يصرّ بلا توقُّف، ويفوح برائحة الزيت. وكان الجرَس معلَّقًا فوقه مباشرةً. لم

أكن أفهم جيِّدًا كيف يعمل الجرس، لكنَّه كان مربوطًا بمعرفةٍ إلى الساعة، بحيث يدقُّ في أوقاتٍ محدَّدة. فيما مضى، كان مصبوغًا بطبقةٍ نحاسيَّة؛ أمَّا الآن، فقد صار رماديًّا بالكامل. لكنَّه كان هائلًا، وسميكًا ومهيبًا. لدرجةٍ قد يُخشى معها انهيار السقفِ عجزًا عن تحمُّل ثقله.

ـ هيَّا، تعالي اجلسي هنا.

أشار إلى طاولةٍ وكَراسٍ كانت موضوعةً في المركز. كان ذاك أثاثَ الحُجرة الوحيد، أثاثًا عتيقًا وبسيطًا. لكنَّ الغبار قد مُسح عنه بعناية.

ـ أعجبكِ المكان؟

وهو يسألني، ألقى دونما حذرٍ آلتي المعطَّلةَ فوق ركامِ الآلات. انهار جزءٌ من الركام محدثًا ضجيجًا. جلست وأنا أسأل نفسي لمَ

سألني ذاك السؤال مع أنَّه يعرف أنَّني أتيتُ إلى هنا مرغمةً لكي أُصلح آلتي. كان يبدو في مزاجٍ رائق. ابتسامته الأبديَّة تطفح لطفًا، لم أره قطّ على هذا القَدْر من الظُّرف.

ـ وإذن؟

أصرَّ على معرفة رأيي في الحُجرة. لكنَّني لم أستطع إلَّا أن أنظر إليه مبديةً موافقتي بابتسامة.

ـ كنت متأكِّدًا من أنَّها ستروقكِ.

كان يبدو راضيًا. أمَّا أنا، فمن دون آلة كاتبة لم أكن لأجد الراحة. ينقصني الإحساس بشيءٍ ما تحت يدي. إحساسي بأنَّ آلتي قد انتُزعتْ منِّي، يُصيبني بالإحباط أكثر من إحساسي لمَّا فقدتُ صوتي. كنت أسألُ نفسي سرًّا: «لِمَ لا يعجِّل بإصلاحها؟» لكنَّني لم أكن أملك أيَّ وسيلةٍ لسؤاله. أجَلت بصري لأرى هل

أجدُ ورقةً وقلمًا، لكنَّني لم أجد. أسفتُ لأنَّني لم أحملهما معي من المنزل. لمّا هممنا بالخروج من المنزل، أردتُ أن أحمل معي المذّكرة والقلم اللذيْن كانا في جيبي.

ـ لستِ بحاجةٍ إليهما. سوف أُصلح الآلة فورًا.

ربَّتُّ على كتفه، ثم أشرتُ إلى آلتي المرميَّة. لكنَّه من غير أن يلتفت إليَّ، أخرج الكرونومتر من جيبه الداخليّ وشرع في تلميعه بِخرْقةٍ من مُخمل. لم أدرِ هل قصد بفعله أنَّه لم يفهم مقصودي، أم أنَّه يُخبرني بألَّا أقلق، وأنَّ التصليح سيتمُّ فورًا.

من أسفل، كانت تتناهى إلينا أصواتُ كلامٍ، وأيضًا ضحكاتُ أطفال. لا بدَّ من أنَّ ثمَّة جمعًا في الكنيسة. أهو تمرينُ كورالِ أو قدَّاسٌ؟ الكنيسة إذن قريبةٌ، إذ كان يتناهى إلينا ما يجري بداخلها، كأنَّه جَلَبةُ حيٍّ بعيد.

صبرتُ بما يكفي، لكنَّه لم يكن يبدو مستعدًّا لأن ينصرف عن تلميع الكرونومتر. وكنت أتعجَّب من قضائه كلّ هذا الوقت منكبًّا على شيءٍ صغير. لم تكن عنايةُ أصابعه تُفلتُ شيئًا، حتى أدنى حزَّةٍ في الزرِّ، أو حلقةٍ في السلسلة، أو علامةٍ على الواجهة.

قال من دون أن يرفع رأسَه:

ـ ينبغي أن أصقله جيِّدًا ليكون جاهزًا لامتحان المستوى المتوسِّط الذي سيجري هذا المساء. صحيح، أنتِ أيضًا، في البداية، كنتِ تعانين مشاكل في اختبارات السرعة. كنتِ دومًا تطبعين مخطوطاتٍ مذهلة.

إن لم يكن ينظر إليَّ، فلا فائدة في أن أهزّ رأسي أو أرفع إصبعي، أو أعضَّ شفتيَّ أو أبتسم. لذا، ظللت ساكنة.

نظرتُ حواليَّ مرَّةً أخرى. الجدران التي لم يكن يحتلُّها ميكانيزم الساعة، كانَ مكدَّسًا عليها ركامٌ من آلات الكتابةِ يساوي قامتي

ارتفاعًا. كم آلةً هناك؟ لا أدري. لأوّل مرّةٍ في حياتي أرى هذا العدد من الآلات في موضعٍ واحد.

آلاتٌ من كلّ شكلٍ. بعضها يبدو ثقيلًا ومتماسكًا، وبعضها الآخر هشًّا مثل لُعب؛ بعضُها بمفاتيح مربّعة، وأخرى بمفاتيح بيضاويّة الشكل؛ بعضها بدعامةٍ خشبيّة؛ بعضها فخم؛ وبعضُها متواضع... كانت متراصّةً بعضُها لصق بعض، وكلّ واحدةٍ منها موجّهةٌ شطر ناحية. آلتي أنا ظلّت ساكنةً هناك حيثُ أُلقي بها منذ لحظات. والآلاتُ الموجودة في الجزء الأسفل من الركام مسحوقةً، كانت تعاني اعوجاجًا في بعض رافعاتها أو غطائها. وإن كان شكلها العامّ سليمًا، إلّا أنّها كانت صدئة.

هل تنتظر جميعًا دورها لتصلَّح؟ لكنَّ عددها كثيرٌ جدًّا. الأحرى التخلُّص من تلك التي ما عادت ترجى منها فائدة. هذا ما فكّرتُ فيه حين قُمتُ لأقترب من الركام. وفي تلك اللحظة، تذكّرتُ فجأةً أمرًا: لِمَ لم أنتبه من قبلُ لشيءٍ بهذه البساطة؟ لم أكن في حالي

المعتادة. إنَّ منظر هذا العدد الهائل من الآلات، قد فصلني عن الواقع. والحال أنَّ ما عليَّ إلَّا أن أستعمل إحدى هذه الآلات. لم تبقَ إلَّا مشكلةُ الاختيار. وحينئذٍ، سيعود بمقدوري الحديث إليه كما اعتدنا.

اخترت أحدثَ الآلات وأقلَّها عطبًا. لكنْ سدًى نقرت عليها: لا مفتاح من مفاتيحها يستجيبُ. واحدةٌ أخرى بجانبها، كان شريطُها ملتويًا تمامًا. ثم تناولتُ ثالثةً، لكنَّ نصفَ حروفها كان مسحوقًا. ورابعةٌ أخرى بلا شريط. ثم أخرى... جميعها بها عيب. لا واحدة منها صالحة للاستعمال. لم أستسلم، وبذلت جهدي كلّه لأستخلص من الركام واحدةً تعمل. لكنْ كان يكفي أن أضغط قليلًا لكي ينهارَ الركام كلّه في جَلَبة.

قال لي:

- لا فائدة.

وكان ما يزال يتأمَّل الكرونومتر.

وفي تلك اللحظة، انتبهت إلى أمرٍ بديهيّ: بالطبع، لم تكن ثمَّة أوراقٌ للكتابة عليها في الآلة الكاتبة، ولكنْ أيضًا لم تكن هناك مفكَّرة. لا جدوى إذن من البحث عن آلةٍ سليمة.

وما إن أدركتُ أنْ لا سبيل لي إلى تحرير الكلمات، حتى بدأت تتكاثر فيَّ، فملأني القلق.

«أصلحها بسرعة».

لاشعوريًّا، بدأت أصابعي تتحرَّكُ ساعيةً إلى تشكيل كلماتٍ «أصلحها بسرعة»، ولما لم تكن لها مفاتيح تضغط عليها، فقد اكتفتْ بتشكيلِ حركاتٍ تقريبيَّةٍ في الهواء. وإذ لم أعُد أطيقُ صبرًا، فقد أشرت له مرَّةً أخرى إلى آلتي.

«لِمَ لا تريد إصلاحَها؟ ما المشكل؟ إن لم أستطع التواصلَ بالكلمات، يخنقني قلقٌ لا يُطاق».

قبضت على كتفه محاوِلةً أن أوصل له بكلِّ قوَّتي ما أشعر به.

توقَّف بعدما أطلق تنهيدةً طويلةً، ووضع على الطاولة الكرونومتر ملفوفًا في قطعة المخمل.

ـ لعلمكِ، لن تستعيدي صوتك أبدًا.

لم أفهم لما قال لي ذلك. ليس المشكل الآن صوتي، وإنَّما الآلة الكاتبة.

«لا يمكن إصلاحها؟»

أخذ ينقر على المفاتيح كيفما اتَّفق. لم تكن الرافعات ترتفع ولو بميليمترٍ واحدٍ.

ـ إنَّ صوتَك محبوسٌ داخل هذه الآلة. هي ليست مكسورةً. إنَّها مختومةٌ، لأنَّها أتمَّت دورها.

مختومة، مختومة، مختومة... وحدها تلك الكلمة ظلَّت تدور كالدوَّامة فيّ.

ـ انظري، أليس هذا المشهدُ رائعًا؟ كلّ هذه الأشياءِ المكدَّسة هنا إنَّما هي أصواتٌ. ركامٌ من الأصوات الموهنة، تنتظر هنا، عاجزةً عن أن تهتزَّ في الهواء مرَّةً أخرى. واليومَ أتى صوتُك ينضمّ إليها.

رفع الآلة بيدٍ، ثم رمى بها مرَّةً أخرى في الموضع نفسه. تردَّد صوتٌ أصمّ، صوتُ أشياءَ صلبةٍ تتصادم. وتردَّد في نفسي مثلُ صوتِ بابٍ ثقيلٍ ينغلق دون صوتي.

«لماذا؟ لماذا تفعل هذا؟»

حرَّكتُ فقط شفتيَّ.

. يبدو أنَّكِ لم تفهمي. لا جدوى من كلّ هذه الجهود في سبيل الكلام.

وضع يده اليسرى على شفتيَّ. كانت راحتُها باردةً متجمِّدة. وهُيِّئَ لي أنِّي أشتمُّ رائحةً معدنيَّةً خفيفة. أهي رائحةُ الكرونومتر؟

. سوف تنسين أنَّكِ كنت تملكين صوتًا. بالطبع، قد يزعجك الوضع في البداية، لأنَّكِ غيرُ معتادةٍ عليه. ومثلما فعلتِ قبل قليل، ستحرِّكين شفتيْك، وسوف تستنجدين بالآلة الكاتبة، وتلتمسين مفكَّرةً. لكنَّكِ لن تلبثي أن تُدركي أنّ أفعالك سدًى. لستِ بحاجةٍ إلى الكلام. لا جدوى من نطق الكلمات. كلّ شيءٍ على ما يُرام. فلا داعي للقلق. أخيرًا تملَّكتُك.

مرَّر على امتداد خدَّيَّ أصابعَه الموضوعةَ على شفتيّ، ثم جعلها تنزلق على ذقني، ومن ثم، تنزل في خطٍّ مستقيمٍ إلى حنجرتي. ثم تمهَّل ما طاب له في مداعبةِ تجويف حنجرتي. كأنَّما يريد أن يتأكَّد ممَّا إذا كنتُ حقًّا قد فقدت صوتي.

كنت أريد أن أصرخ، أن أعبَّ الهواءَ. أن أدفعه عنِّي، وأهربَ من هذا المكان. لكنَّ الحقّ أنِّي كنتُ متخشِّبةً. جسدي متصلِّبٌ. لأنَّني كنت أحسُّ أصابعه تلتفُّ حول عنقي كسلكِ حديد.

سألني وأصابعه ما تزال في حنجرتي:

ـ فهمتِ لِمَ صرتُ معلِّمَ كتابةٍ على الآلة؟

«لا أفهم. لا أفهم شيئًا».

هززت رأسي مرَّاتٍ عديدة. لكنَّ أصابعه لم تُفلت حنجرتي.

. في الفصل، كانت أصابعكنَّ جميعًا تتحرَّك كما علَّمتكنَّ: بالنسبة لحرف T ، السبَّابة اليسرى باتِّجاه الأعلى مع ميلٍ إلى اليمين؛ حرف I ، وُسطى اليد اليمنى مفرودةً باتِّجاه الأعلى؛ وحرف Q ، بنصر اليسرى مائلًا إلى اليسار باتِّجاه الأعلى؛ ولكتابة النقطة، بنصر اليمنى نحو اليمين باتِّجاه الأسفل... لكلّ حركةٍ قاعدةٌ. وتجتهد الطالبات في حفظها. ليس مسموحًا لهنَّ تحريك أصابعهنَّ كما يحلو لهنَّ. لا يحقّ لهنَّ الاتِّفاق مع النظام للحصول على استثناءٍ خاصٍّ، أو إقحامُ فكرةٍ جديدة. كلّ النساء الجالسات أمامي مجبراتٌ على تحريك أصابعهنَّ وفق الاتِّجاه والأمر الذي أعيِّنُه لهنَّ. فإن لم يُطِعْنَ أوامري، ولو لمرَّةٍ واحدة، فلي أن أعاقبهنَّ العقوبة التي تحلو لي. أستطيع أن أجعلهنَّ يكتبن ألفَ مرَّةٍ الحرفَ الذي أخطأنَ فيه، أو يمكن أن أصيبهنَّ بالخزي، بأن أعلِّق عملهنَّ في الفصل باعتباره مثالًا لعملٍ سيِّء. أنا حرٌّ. أمامي، تصير أصابعكنَّ عاجزة.

«ماذا تقول؟ لقد علَّمتني الكتابةَ على الآلة، وهذا كلّ ما في الأمر».

. لا يحتاج المرء صوتًا لكي يكتب على الآلة.

اشتدَّت قبضتُه على حنجرتي. أطراف أصابعه تعضُّ لحمي. هل ينوي أن يستخرج من حنجرتي شظايا صوتٍ غير أكيد؟

. في الفصل، يصمتُ الجميع. فلا تثرثر أيُّ طالبةٍ بينما تنقر على المفاتيح. ينبغي أن تتركَّز الأعصاب كلُّها في الأصابع وحدها. الأصابع تحكمها قاعدةٌ، أمَّا الصوتُ فلا. وهذه هي النقطة التي تزعجني أكثر من غيرها. وسط ضجيج الآلات الكاتبة وحدها، تُواصل الأصابعُ بإقدامٍ إطاعةَ أوامري بدقَّةٍ، كاتبةً أكبر عددٍ ممكنٍ من الحروف... ألا ترينَه مشهدًا رائعًا؟ لكنْ ما يلبث الدرس أن ينتهي. وتفارق الأصابعُ المفاتيح. وإذّاك يبدأنَ في الحديث في أيِّ موضوعٍ يشأنَ: في طريق عودتي، سأتناول حلوى. أعرف مكانًا

يبيع حلوى لذيذة. آه، نعم. هل أنتِ مشغولةٌ يوم السبت؟ ما رأيكِ في أن نذهب إلى السينما؟... الأمر مرهق. الأصابع التي كانت قبل برهةٍ خاضعةً، فقدت الآن تماسكها، وها هي تغلق حقيبةً، أو تُصلح تسريحةً، أو تُمسك بذراعي.

«طبيعيّ. أنا أقول ما أرغب في قوله، وأحرِّك أصابعي كما يحلو لي أن أحرِّكها. لا سلطة لأوامرك إلَّا داخل الفصل».

. أنا سعيدٌ لأنَّني تمكَّنتُ من أن أمحوَ صوتك. هل تعرفين أنَّنا حين نبتُر قرون استشعار حشرةٍ، فإنَّها تسكنُ على الفور؟ مرعوبةً، تكمن ساكنةً، وينتهي بها المطاف إلى التوقُّف حتى عن التغذِّي. الوضعان متشابهان. ما إن فقدتِ صوتكِ حتى ضاع توازنك. لكنْ لا ينبغي أن تقلقي. أنتِ هنا. تعيشين وسط الأصوات الموهنة التي حُبست داخل آلات الكتابة. ومن الآن فصاعدًا، لن أفارقكِ، سوف أسيِّرُكِ. ليس هذا بالأمر الصعب. إنَّه يشبه تقريبًا تعلُّم الكتابة على الآلة.

وأخيرًا، أطلقني، فهرعتُ إلى الطاولة، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا. تركت أصابعُه في حنجرتي غرزًا.

ـ إنَّ درس الفصل المتوسِّط على وشك أن يبدأ. سوف أنزل.

خبَّأ الكرونومتر في جيبه الداخليّ.

ـ اختبارُ اليوم مقالٌ طبِّيّ. إنَّه على قَدْرٍ لا بأس به من الصعوبة. وهذا ما يُبهجني مسبقًا. حسنًا، ينبغي أن تنتظريني هادئةً.

أغلق البابَ خلفَه. سمعت صوتَ مفتاحٍ ثقيلٍ يدورُ في قفلٍ، ثم وقْع خطواته تبتعد. بقيتُ وحيدةً...

* * *

وأنا مستغرقة، أفكِّرُ في أنَّ الساردة لا بدَّ من أن تنتهي هي أيضًا محبوسةً في الرواية، لململتُ الأوراقَ التي كنت قد كتبتها ذاك اليوم، وبعد أن وضعتُ عليها ضاغطةً ـ الأوراق، أطفأتُ مصباح المكتب.

وكنت قد تخيَّلتُ أنَّ البطليْن، وقد صارت تجمعهما عاطفةٌ أشدُّ رقَّةً، سيذهبان معًا سيرًا على الأقدام بحثًا عن صوتِها المفقود، في مصنع آلاتٍ كاتبة، في فنارٍ عند رأسِ الشاطئ، في مجمِّدٍ بمختبر أمراض، في مخزنِ وراقةٍ؛ لكنَّ الأمورَ انتهت رغمًا عنِّي إلى حيث انتهت. لكنْ، بما أنَّ الحكاية كثيرًا ما تنحو أثناء الكتابة مناحيَ لم تكن متوقَّعةً في البداية، فقد نمتُ من غير أن أشغل بالي بها.

وحين استيقظتُ في اليوم التالي، كانت اليوميَّات قد اختفت.

* * *

جمعتُ كلَّ اليوميَّاتِ الموجودة في البيت، ولم يكن عددها يتجاوز ثلاثًا أو أربعًا. جميعها عطايا من شركاتٍ على سبيل الإشهار، أو هدايا من عند تجّارٍ، ولا واحدة منها مميَّزةُ الشكل. قطعًا لم يحزن ر لاختفاءِ اليوميَّات، حزنَهُ لاختفاء الصُّوَر الفوتوغرافيَّة. فبعد تفكير، هي ليست سوى أرقامٍ مسطَّرة. بالطبع، سيكون الأمر مزعجًا في البداية، لكنَّنا لا بدَّ من أن نجدَ طرقًا عديدةً نعدُّ بها الأيَّام.

أحرقت اليوميَّات في محرقة الحديقة الصغيرة. اشتعلت فورًا. وسرعان ما لم يبقَ منها إلا ثلاثة أسلاك حديديَّة لولبيَّة متفحِّمة.

كان كثيرٌ من الرماد في المحرقة. كتلةٌ ناعمة، وحين نبشتُها بالمحراك، ارتفعت منها على الفور سحابةٌ من غبار. وبينما أتأمَّلُ الرماد، بدا لي أنَّ الاختفاءات لم تكن شيئًا بالأهمِّيَّة التي تريد شرطة الذاكرة أن تصوِّرها. إذ يكفي أن تُضرمَ النار في الأشياء لتختفيَ على هذا النحو. وبغضّ النظر عن شكلها السابق، تتحوَّل جميعًا إلى رمادٍ تذروه الرياح.

من المنازل المحيطة أيضًا، كانت ترتفع أدخنةٌ، وسرعان ما تُسحب باتِّجاه السُحبِ المنخفضة. لم يكن الثلج يتساقط، ومع ذلك، كان البرد قارسًا ذاك الصباح. وكان الأطفال محشورين في معاطفهم الكبيرة، وحقائبُهم على ظهورهم. كلبُ الجيران بعينيْن غشاهما النعاسُ، قد أخرجَ رأسه فقط من وِجاره، ووضع طرف خطمه لصق الثلج. والناسُ اجتمعوا زُمرًا في الشارع يثرثرون.

قال لي صانعُ القبّعات ـ سابقًا، من تحت السياج:

ـ لم نعد نرى الجدَّ مؤخَّرًا، هل هو بخير؟

ـ آه، لم يكن على ما يرام، لكنَّه الآن بخير.

انقبض قلبي وأنا أتساءل عمّا إذا كان على علمٍ باستدعاءِ شرطة الذاكرة للجدّ، لكنْ بدا أنَّه لا يعلم شيئًا.

ـ مع هذا البرد القارس المتواصل، لا يكون المرء بخير.

تدخَّلت السيِّدةُ من المنزل المقابل:

ـ معك حقّ. خاصَّةً وأنَّنا مؤخَّرًا لم نعد نجد أشياءَ كثيرةً في السوق، ومن يرد التزوُّد بمؤونةٍ، عليه أن يقف في الصفِّ. ومن يقف في هذا الثلج نصف ساعةٍ، لا بدَّ من أن يتجمَّد حتى العظام.

قال الشيخ في البيت المجاور، وكان يعمل في البلديَّة:

. منذ ثلاثة أيَّام، أراد ابني الذي كان مُصابًا بالتهاب اللوزتيْن، تناول الكريم كاراميل، وقد بحثتُ في كلِّ مكانٍ، ولم أجد. لقد صار الكريم كاراميل في أيَّامنا هذه رفاهية. الدجاج لا يبيض بسبب البرد. أمس، وقفتُ في الصفِّ ساعةً، ولم أحصل إلَّا على أربع بيضات.

. وأنا، لكي أشتري قرنبيطةً، اضطررتُ إلى أن ألفّ على خمسة بائعي خضار وفاكهة. وحتى القرنبيط الذي استطعت الحصول عليه كان ذابلًا ومبقَّعًا!

. ما انفكَّت محلَّاتُ الجزّارين تفرغ يومًا عن يوم. في ما مضى، كان ثمَّة من المقانق ما يحجبُ السقف الذي تتدلَّى منه؛ أمَّا الآن، فلا يجد المرءُ أكثر من قطعةٍ أو اثنتيْن. بالإضافة إلى أنَّها كلّها تُباع منذ العاشرة والنصف.

تناوبوا على حكي همومهم مع الطعام.

قالت العجوز التي تسكن على بعد منزليْن من منزلي:

ـ ليس الطعامُ المشكلةَ الوحيدةَ. وقود الأفران أيضًا بدأ يقلّ. منذ فترةٍ قصيرةٍ، احتجتُه مساءً، وكان البردُ لا يُطاقُ، وركبتاي تؤلماني، فقصدتُ الجيران لكي يقرضوني بعضًا منه، لكنَّهم رفضوا رفضًا باتًّا.

ـ آه، لا ينبغي للمرء أن يسألَهم شيئًا. فحين تصادفهم، يتجاهلونك، وحين تطلب منهم رسوم المشاركة في جمعيَّة الحيّ، لا يعاملونك بودٍّ، لا يمكن للمرء أبدًا توقُّع ردَّة فعلهم.

كانوا يتحدَّثون عن الجيران، أصحاب الكلب. ولم أكن أعرف الجيران حقّ المعرفة، لكنْ كان يُقيم في المنزل زوجان شابَّان في الثلاثين من عمرهما، ليس لديهما أطفال، وكلاهما يشتغل.

ثم انقلب الحديث إلى نميمةٍ في الزوجيْن المذكوريْن. أردت أن أعود سريعًا إلى منزلي، لكنَّني لم أجد فرصةً مناسبةً للاستئذان، فاكتفيت بالإنصات مومئةً برأسي، وأنا أُسقِطُ بالمحراك الثلج المكدَّس على السياج. نَبَح الكلبُ مرَّتيْن أو ثلاثًا، كأنَّما خمَّنَ أنَّنا نغتابُ سيِّدَيْه.

بادر صانع القبّعاتِ ـ سابقًا إلى الكلام:

ـ لكنْ.. أتساءلُ عمَّا إذا كان الربيع سيعود في نهاية المطاف.

أومأ الجميع في الوقت نفسه.

غمغمت العجوز التي تؤلمها ركبتاها:

ـ ربَّما.. لن يعود أبدًا.

أفلتُّ:

ـ إه؟

رفع صانع القبّعات ـ سابقًا سحَّابَ بلوزته، بينما تناولتُ أنا المحراك مرَّةً أخرى.

ـ في السنوات الماضية، كان هذا الوقت الذي لا تُبطئ فيه الرياح الموسميَّة عن الانقلاب، حتى إنَّ البراعم تأخذ في النموِّ على الأغصان، بينما البحر يصفو. أمَّا هذه السنة، فما يزال ثمَّة الكثير من الثلج. أرى أنَّه أمرٌ غريب!

ـ لكنْ، ألا تحدثُ ظواهرُ جوِّيَّةٌ غير معتادة، مرَّةً كلّ ثلاثين سنة؟

ـ كلَّا، ليس الأمر بهذه البساطة. فكِّري، قليلًا. إنَّ اختفاء اليوميَّات، يعني أنَّنا لا نستطيع نزع ورقةٍ منها نهاية الشهر. وهذا يعني أنَّنا سنظلُّ ننتظرُ، ولن نشهد نهايةً للشهر مرَّةً أخرى. لذا لن يأتي الربيع.

كانت الجدَّةُ تفرك ركبتيْها من فوق جواربها الواقية الصوفيَّة.

ـ وما الذي سيحدث الآن إذن؟

ـ إن لم يأتِ الربيع، فمعنى هذا أنَّ الصيفَ أيضًا لن يأتي؟ كيف لنا أن نزرع الخضار والحبوبَ في حقولٍ يكسوها الثلج؟

ـ إنْ تواصلَ هذا البرد إلى الأبد، فيكون أمرًا مزعجًا. خاصَّة أنَّ الوقود قد صار أصلًا نادرًا.

أدلى كلّ واحدٍ بتعليقه القلِق. كنست الشارعَ هبَّةُ ريحٍ أشدُّ برودة. ومرَّت عربةٌ موحلةٌ ببطء.

قال صانع القبّعات ـ سابقًا:

ـ لا تقلقوا. أنتم تفكِّرون أكثر ممَّا ينبغي. ليست اليوميَّات إلَّا قِطعَ ورق. صبرًا. ستكون الأمور على ما يُرام، ستكون الأمور على ما يُرام. (كرَّرها مرَّتيْن كأنَّما ليُقنع نفسَه).

- بلى. بلى.

شاطره الجميعُ الرأيَ.

* * *

في نهاية المطاف، حدث ما توقَّعَتهُ الجدَّة: عبثًا انتظرنا، ولم يأتِ الربيع. ظللنا محبوسين تحت الثلج، مع رماد اليوميَّات.

١٦

قرَّرنا الاحتفال بعيد ميلاد الجَدّ في الغرفة السرِّيَّة.

قال الجدُّ:

ـ منذ اختفت اليوميَّات، ما عدنا نملك وسيلةً لتذكُّر تواريخِ أعيادِ الميلاد، لذا أرجوكما ألَّا تشغلا بالكما بعيد ميلادي.

كان متحرِّجًا، لكنَّنا دأبنا، من قبل أن أُولد حتى، على الاحتفال بعيد ميلاده في البيت. وحتى إن لم نكن نتذكَّر التاريخ، فإنَّنا متأكِّدون من أنَّه يوافق بداية موسمِ تفتُّح أزهار الكرز، وكان ينتابنا شعورٌ أكيد بأنَّ الموسم وشيك. ثم إنَّ قليلًا من المتعة في الحياة الفاترة، داخل الغرفة السرِّيَّة، سيكون فيه خيرٌ لـ ر أيضًا.

ذهبتُ إلى السوق كلّ أيَّام الأسبوع، حتى أشتري كلّ لوازم الحفل. ومثلما قال الجيرانُ، كانت رفوفُ المحلَّاتِ شبهَ فارغة،

وصفوف الانتظار في كلِّ مكانٍ. صار الحصول على أشياءَ جيِّدةٍ، أو غير معتادة، أصعبَ، فأصعبَ. لكنَّني جبتُ السوق بعزمٍ، من أقصاه إلى أقصاه.

في واجهة محلّ تاجر الخضار والفواكه، عُلّقت إشارةٌ تقولُ: «غدًا صباحًا، في التاسعة، تصل شحنةٌ: عشرون كيلوغرامًا من الطماطم، وخمسة عشر كيلوغرامًا من الهليون». منذ شهر أو أكثر، لم أرَ طماطم أو هليونًا. إن استطعتُ الحصول على بعضها، فسوف أُعدّ سَلَطة خضرة طازجة. وفي اليوم التالي، قصدت البائع، ساعتيْن قبل الموعد، لكنَّ صفًّا طويلًا كان أمام محلِّه ينتظر. انتظرت دوري بضيقٍ لدرجةٍ أنَّني أحصيتُ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ الناسَ الواقفين أمامي. وحين بلغني الدورُ، لم يكن قد بقي تقريبًا أيّ شيءٍ في قعر الكراتين. فضلًا عن أنَّ الطماطم كانت صغيرةً وخضراء، ورؤوسُ الهليون تالفةً. ومع ذلك، كنتُ محظوظةً، مقارنةً بأولئك الذين انتظروا طويلًا، ولم يحصلوا على شيء.

لففتُ بين محلَّات الخضار والفواكه كلّها، حيث حصلت على حزمةٍ صغيرةٍ من البقول، أُزيِّنُ بها الطبق، وأيضًا فطرٍ صغيرٍ لا أعرف اسمَه، وحفنةٍ من الفاصوليا بادٍ فيها السوس، وثلاث حبَّات فلفل حمراء، وثلاث خضراء، وساق كرفس ذابلة.

لكنَّني أعطيتُ الكرفس جدَّةً كانت تتسوَّل. اقتربت منِّي، وسألتني بأدب:

ـ اعذريني على فضولي يا آنستي، لكنْ، أليست الأوراق الخضراء البارزة من كيسك كرفسًا؟ هل لي أن أطلب منك بعضه؟ لقد سقطتُ على الطريق في الثلج، وأضعتُ حافظة نقودي. أنا ضائعةٌ لا أدري ما أفعل. هذا الطقسُ مأزقٌ بالنسبة إلى المسنِّين أمثالي. تأمَّلي فراغَ سلَّتي.

عرضتْ أمامي سلَّتها من البلاستيك المضفور. كانت فارغةً تمامًا. بالطبع، كنت أستطيع أن أكمل طريقي، ولا ألتفتُ لها، لكنَّ

فجوة الفراغ في سلَّتها بدت لي كئيبةً، فدسستُ فيها حزمة الكرفس.

في اليوم التالي، واليوم الذي بعدَه، رأيتُها على حالها، تعرضُ سلَّتها الفارغة أمام أحد المارَّة. وبحثتُ مجدَّدًا عن كرفسٍ، لكنَّني لم أجد.

كان السوق ما يزال غاصًّا بالناس. وفي الممرَّات، بين المحلَّات، تكدَّس الثلج وسطَ نوى الثمار وقشور الأسماك، وأغطية قناني العصير وأكياس البلاستيك. والناس يسيرون، شادِّين على مشترياتهم كيلا تسقط منهم، وأعينُهم تبرق مترصِّدةً ما يصلح للاستهلاك. وهنا وهناك، ترتفع أصواتُ الضحك أو الشجار، أمامَ الأرفف.

وكنتُ ما أزال أحتاج كلَّ شيءٍ تقريبًا. زبدةً لأصنع الحلوى، نبيذًا، توابل، فواكهَ لسَلَطة الفواكه، أزهارًا، مفرشَ مائدةٍ بالدانتيلَّا،

ومناديلَ جديدة... لكنَّني لم أستطع شراء حتى نصف هذه الأغراض، إذ كان عليَّ أن أحتفظ بالنقود للغرض الأهمّ: هديَّة الجَدّ.

استطعتُ أن أحصلَ بسهولةٍ على اللحم والأسماك. لقد كان الباعةُ أصدقاءً للجَدِّ. خرج الجزَّار من أغوار محلِّه، حاملًا رزمةً في يده، وقال لي:

- لقد احتفظت لك بشيءٍ من أنعم الأجزاء في الدجاجة.

وكان قد عقد الحزمة عقدةً جميلةً، كأنَّها هديَّة.

وسمح لي السمَّاك بأن أختارَ أيَّ سمكةٍ أريد من بين سمكاتٍ كانت تسبح في حوض. وقد تردَّدتُ كثيرًا قبل أن يقع اختياري على سمكةٍ بطول أربعين سنتمترًا تقريبًا، وزعنفتُها الظهريَّة مرقَّطة.

ـ تحسنين الاختيار يا آنسة. إنَّها سمكةٌ جيِّدة. لحمُها متماسك. يندُر أن تُصطادُ مثلها. أنتِ محظوظة.

وبينما يقول لي ذلك، كان قد أمسك بالسمكة التي راحت تقاومه، ووضعها على لوحٍ، فأجهز عليها بضربةٍ في الرأسِ من عصًا تُشبه المدقّ، ثم بشرها وأفرغ أمعاءها بإتقانٍ. وقد حملتُها إلى المنزل وأنا أحضنها بشدَّة.

* * *

يومها، أتى الجَدّ في موعده بالضبط. كان يرتدي سترته الوحيدة، وقد ربط في عنقه ربطةً مخطَّطةً، وسرَّح شعره بعنايةٍ بغسول الرأس.

ـ أنا سعيدةٌ لأنَّك أتيتَ. ادخل من فضلك.

هل كان مشغولًا بعقدِ ربطةِ عنقه؟

انحنى مرَّاتٍ يشكرني، ويده مشغولةٌ بياقته.

ولمّا وصل إلى عتبة سلّمِ الغرفة السرِّيَّة، أطلق صيحة دهشة.

ـ إنَّها حقًّا مذهلة!

أجبته بفخر:

ـ على الرَّغم من ضيق المكان، إلَّا أنّه قد صار له شكلٌ مميَّزٌ بفضل الديكور، أليس كذلك؟ لقد صنعت كلّ هذا بمعيَّة ر.

لقد رتَّبنا أوَّلًا، على الرفوف، كلّ الأشياء التي لا علاقة لها بعيد الميلاد، ووضعنا بين هذا الرفّ والسرير طاولةً قابلةً للطيّ، يمكننا أن نجلس حولها. هكذا صار الفضاء تقريبًا مشغولًا بأكمله. وكان البخار ينبعث من الأطباق التي وضعناها على الطاولة. وبين الأطباق، وُضعت زهورٌ برِّيَّةٌ قُطفت من على جنبات الطريق. وبما أنَّ الفرشَ القديم كان باليًا، فقد عملت على مضاعفةِ عددِ الصحون حتى أُخفيَ بها البقع. وقد قدَّمت السكاكين والشوكات والكؤوس والمناديل في أجمل تقديمٍ ممكن.

ـ هيَّا اجلس، مكانك هنا.

لم يكن من السهل علينا الجلوس جميعًا. إذ كان على الواحد منَّا أن يتحرَّك على أطراف أصابعه، محرِّكًا جسدَه في هذا الفضاء الضيِّق، محاذرًا أن يصدم الأطباق أو الزهور. وقد تمكَّن ر، بصعوبةٍ، من أن يُمسك بيدنا ويُجلسنا على السرير، قبل أن يجلس بدوره على الكرسيّ الوحيد في الغرفة.

ر هو من فتح قنِّينةَ النبيذ. في القنِّينة العتيقة التالفة، كان يبدو الشراب مثل ماء صابون عكر. لم أستطع الحصول إلَّا على هذا النبيذ المريب الذي صنَعه بائع خردواتٍ خلسةً في فناء متجره الخلفيّ. لكنَّني ارتحت حين رأيته يُصَبُّ في الكؤوس، فيروق ويتَّخذ تحت نورِ مصباحِ السقف لونًا ورديًّا باهتًا جميلًا.

ـ حسنًا، لنرفع نخبًا.

وإذ رفعنا أيدينا قليلًا، استطعنا أن نقرِّبَ كؤوسنا من بعضها، حتى تتماسَّ.

صحنا معًا، أنا و ر:

ـ عيد ميلاد سعيد!

وإلى نخبنا، أضافَ الجدُّ:

ـ لنصلِّ، كي تعبرا معًا هذه المحنة سالمِيْن.

ـ في صحَّتك.

قرعنا كؤوسنا. مضى علينا زمنٌ طويلٌ لم نجتمع فيه اجتماع فرحٍ كهذا.

كان ر. ثرثارًا أكثر على غير عادته، وكانت عيْنا الجدِّ تضيقان من السعادة، وكان يكفي أن أشربَ جرعةً من النبيذ لكي يستعيد

وجهي عافيتَه، وأحسّ بأنِّي في حالٍ أفضل. كان يبدو أنَّنا قد نسينا جميعًا المكان الذي نحن فيه. ومع ذلك، ما إن كانت تأخذنا نوبةُ ضحكٍ، حتى نسارع إلى إغلاق أفواهنا بأيدينا.

أمَّا تقاسُم السمكةِ، فكان قصَّةً. طُبخت بشراب الساكي، ووضُعت في صحنٍ بيضاويّ، وزُيِّنت حواشيها بخُضْرَةٍ خضراء.

ـ هل سأتمكَّن من هذا؟ لست ماهرةً بما يكفي. سوف أحوِّلها إلى فتاتٍ بلا شكّ. ألا ترغب في أن تقوم بهذا بدلًا منِّي؟

ـ كلَّا، إنَّ سيِّدة المنزل هي من ينبغي أن تقدِّم الطَّبَقَ الرئيسيّ.

ـ الحقُّ أنَّها سمكةٌ جيِّدة.

ـ أليس كذلك؟ لقد كانت زعنفتُها الظهريَّة مرقَّطةً جميلة، لكنَّها اختفت أثناء الطبخ.

. إنَّها مضغوطةٌ خفيفًا عند قمَّة الرأس.

. إنَّه الأثر الذي خلَّفته فيها ضربةُ السمّاك. منذ قليل فقط، كانت حيَّةً، لذا لا يمكنها أن تكون سيِّئة. ولو أنَّني نسَّمتها ببعض الكرفس، لكانت أطيب وألذَّ.

. هيَّا، قدِّمي له قطعةً كبيرةً من الظهر، هنا، من الجزءِ الأشدّ نعومةً.

. نعم، بالطبع. احذر الأشواك يا جدِّي.

. نعم، أشكرك.

لم يقطع حديثنا صمتٌ. أصواتُنا، قرقعة الأواني وهي تتصادمُ، وصوت النبيذ وهو ينسكب في الكؤوس، وصرير السرير، كلّها

كانت تختلطُ فتملأ بصخبها الغرفةَ السرِّيَّة، من دون أن نستطيع الإفلات إلى أيّ مكانٍ.

وفضلًا عن السمكة، كان ثمَّة حساءُ بازلّاء، وسلطة خضراوات، وفطرٌ مطبوخٌ، وبيلاف الأرزّ بالدجاج. كانت أطباقًا بسيطةً، بكمِّيَّاتٍ صغيرة. حرصنا أنا و ر على ألَّا يُفرغ صحنُ الجدّ من الطعام، فظللنا نملأه بأجود القطع. وكان الجدّ يأكل ببطءٍ وتروٍّ. وحين انتهينا من الأطباق، وضعنا الصحون تحت الطاولة كي نفسح المكان للكعكة.

قلت وأنا أضعها أمام الجدّ:

ـ آسفة لأنَّني لم أصنع واحدةً أكبر.

كانت كعكةً مزرية، يمكن أن تُحمل في راحة اليد، ولا تزيِّنُها شوكولاتة أو قشدة أو فراولة.

أجابني وهو يتأمَّل الكعكة:

. كلَّا! لا يمكن أن تكون ثمَّة كعكةٌ أجمل من هذه في العالم.

قال ر:

. سوف نزيِّنُها.

وأخرج من جيبه شموع عيد ميلادٍ رقيقة، وحملها بحرصٍ بين سبَّابته وإبهامه، ثم وضعها على الكعكة بلطفٍ. ذاك أنَّه يكفي القليلُ من الشدَّة لكي تصير الكعكة فُتاتًا، لأنَّ مقادير الموادّ (البيض، الزبدة، الحليب) كانت أقلّ بكثيرٍ من اللازم، لذا كانت النتيجةُ كعكةً صلبةً تفتقد المرونةَ.

وبعدما أوقد الشموع كلّها بعودِ ثقاب، ومدّ يدَه لزرّ المصباح أضاف:

. سأُطفئ.

وما إن انطفأ الضوء حتى تقاربنا لاشعوريًّا. كان لهيب الشمعات قريبًا جدًّا منّا، لدرجة أنَّ حرارته أدفأت خدودنا.

خلفنا تمتدّ الظلمات. ظلماتٌ ناعمة، كحجابٍ يغطِّينا، حجابٍ تخفَّيْنا فيه ثلاثتُنا. ونحن في معزل عن ضجيج العالم الخارجيّ، وبرده، وريحه. وحدها أنفاسنا ترعّشُ اللّهب.

قلت:

ـ هيَّا، أنفخ على النار.

ـ حاضر.

نفخ الجدّ، شيئًا فشيئًا، ببطءٍ، وكأنَّما يخافُ أن يبدِّد الكعكة واللهبَ في آن.

ـ هنيئًا.

. هنيئًا.

صفَّقنا أنا ور.

. عندي هديَّةٌ لك. هل تقبلها منِّي؟

وبينما يُعيد ر إيقاد النور، أخرجتُ الهديَّة التي أخفيتُها تحت غطاء السرير. كانت الهديَّةُ طقمَ حلاقةٍ من الخزف، وجدته عند بائع الأصباغ، طقمٌ يمكن أن يوضع فيه الصابون والموسى والبودرة.

. كيف أمكنك الحصول على هديَّةٍ أيضًا؟... لا أستحقُّ كلَّ هذا.

كالعادة، كلَّما أهديتُ له هديَّةً، يأخذها بتقدير بالغٍ، يتناولها بيديْه معًا كأنَّما سيعرضها على مذبحٍ.

علّق ر:

. إنّها هديّةٌ رائعة.

. سيُسعدني أن تضعها في مقصورة دورة المياه بالعبّارة، لكي تستعملها كلَّ صباح.

. طبعًا سأفعل. وسوف أعتني بها كلّ العناية. لكنْ ما هذا الشيء الناعم الموجود هنا؟

كان قد أمسك بأصابعه فرشاة بودرة، وأخذ ينظر إليها بغرابة.

. استعمال هذه البودرة، بعد الحلاقة، يجنِّبُ الالتهابات التي تخلِّفها الموسى. انظُر، هكذا نستعملها.

مسحتُ على ذقنه بالفرشاة، فأغمض عينيْه بشدَّةٍ حتى أخفى جفناه رموشَه، وزمَّ شفتيْه كأنَّما يدغدغه فعلي.

. هل تعلمين أنَّ هذا ممتع؟

ثم داعبَ ذقنه عدَّة مرَّاتٍ، كأنَّما لم يفارقه الإحساس بالفرشاة. وجعل ر يضحكُ وهو ينزع الشموع من الكعكة.

وبعدما أكلنا الكعكة التي لم تكن أكثر من ثلاث لقمات، وشربنا شاينا على مَهَلٍ، ولم تكن حصَّةُ الواحد منّا أكثر من فنجان. قال ر:

. عندي لك هديَّةٌ أيضًا.

قال الجدُّ بحيْرة:

. أنتَ في وضعيَّةٍ صعبة، ولا داعيَ لأن تشغل بالك برجلٍ مسنٍّ مثلي.

. بلى. أنا أيضًا أُريد أن أعبِّر لك عن امتناني. بالطبع، لم أستطع أن أصنع شيئًا تستحقّه، ولكن...

استدار على كرسيِّه نصف دورةٍ، وأخرج من درج مكتبه علبةً صغيرة من خشب، في حجمِ الكعكة التي حضَّرتُها. أفلتت من الجدّ صيحةٌ مكتومة. وتأمَّلنا باهتمامٍ العلبة الموضوعة أمام أعيننا.

كانت العلبة مطليَّةً ببنِّيٍّ غامق، وقد نُقشت عليها موتيفات هندسيَّة في شكل معيَّناتٍ متداخلة. وكانت بالقاعدة أربع أقدامٍ على هيئة مخالب قطّ. وغطاؤها المثبَّت بمفاصل، قد رُصِّع مركزُه بكُرَيَّةٍ زجاجيَّة زرقاء، يشعُّ بريقُها بلطائفَ دقيقة، بحسب الزاوية التي يتوجَّه منها النورُ إليها. لم يكن لها شكلٌ مميَّز، لكنَّ شيئًا فيها يجعلها مألوفةً ويجعل اليدَ تصبو إلى فتحها.

. كانت فيما مضى لي. كنت أستعملها لحفظ مشابك ربطات عنقي وأزرار أكمامي. آسف لأنَّها ليست جديدة. لكنْ ليس بوسع المرء أن يجد الآن واحدةً مثلها. ولهذا هي ثمينة.

وبينما يتحدَّث ر، رفع غطاءَ العلبة. وفي تلك اللحظة، خلتُ أنَّني قد رأيت شعاعَ نورٍ دافئًا يضيءُ يديْه.

أدنَينا وجهيْنا، أنا والجدّ، في آنٍ واحد، حابسَيْن أنفاسَنا. وبعدما صرَّت المفصِّلات صريرًا خاطفًا، تناهى من قلب العلبة صوتُ موسيقى.

لكنَّني لا أدري هل أستطيع أن أُسمِّي ما سمعتُه حقًّا موسيقى! كانت العلبة، مبطَّنةً باللبّاد، ورُصِّعَ الغطاءُ من الداخلِ بمرآةٍ. لكنْ لا يظهر أيّ ميكانيزم في العلبة. لا قرص يدور فيها، ولا تُخفي أيّ آلةٍ موسيقيَّة. ومع ذلك، يصدر عنها لحنٌ. لحنٌ قد يكون تهويدةً، كما قد يكون موسيقى فيلم أو نشيد دينيّ. بدا لي أنَّه ممَّا كانت أمِّي تدندن به، بين الفينة والأخرى، لكنَّني لم أستطع تذكُّره. كان الرنين مختلفًا عن رنين الآلات الوتريَّة أو النحاسيَّة، رنينًا لم أسمع نظيرَه من قبل. كان لحنًا بسيطًا، لكن بأسلوبٍ مميَّز، ومع أنَّه يبدو أشبه شيءٍ بالهمس، إلَّا أنَّه لم يكنْ لحنًا خافتًا. ولفرط ما بقيتُ

ساكنةً، مصخيةً سمعي، بدأت أحسُّ في نفسي تحرُّكَ المياه العميقة التي كانت تنغلقُ على كلِّ ما شهدْتُه من اختفاءات.

. هل تستطيع إخباري من أين يأتي هذا الصوتُ الذي نسمعه؟

كان الجدّ أوّل من فغرَ فاه دهشةً. فالصوتُ قطعًا كان الأكثرَ مدعاةً للعجب.

. العلبة هي التي تعزف.

سألتُه:

. لكنَّها ساكنة. لا أحد يلمسُها، ولا شيء فيها يتحرَّك. كيف تصدر منها الموسيقى إذن؟

لكنَّ ر اكتفى بالابتسام صامتًا.

ثم ما لبث الصوتُ أن خفت تدريجيًّا. اختلّ توازن الإيقاع، بدأت الأصواتُ تصمت صوتًا صوتًا. ألقى الجدّ نظرةً في المرآة مشرئبًّا برأسه بهيئةٍ قلقة.

فجأةً، وسط اللحن، انطفأت بغتةً نوتةٌ أخيرةٌ، واستعادت الغرفة السرِّيَّةُ هدوءَها.

همس الجدُّ قلقًا:
ـ هل تعطَّلت؟

أجاب ر:
ـ كلَّا، لا تقلق.

ثم قلَب العلبة، وأدارَ مفتاحًا في قاعدتها، ثلاث دوراتٍ، فانطلق اللّحنُ أجمل، وأشدَّ زخمًا من ذي قبل.

صحنا دَهشيْن معًا:

. آااه...

ومطّ الجدُّ دهشتَه:

. هذا سحر! كيف لي أن أقبل شيئًا بهذه الرَّوْعة!

وكأنَّما كان يتوقَّع أن يختفي السحرُ إن هو مسَّ العلبةَ، قرَّبَ يده منها بحذرٍ، ثم ما لبث أن تراجع ووضعَ يدَه على ركبته من غير أن يمسَّ العلبة. وما زال يكرِّر فعله مرارًا.

قال ر:

. لا سحر في الأمر: إنَّها علبة موسيقى أوروغورو(9) .

. أورو...

... غورو؟

نطقت نصف الاسم ونطق جدِّي نصفه الآخر.

ـ نعم، تمامًا.

ـ أرى أنَّه اسمٌ جميل.

ـ يبدو مثل اسم نبتةٍ أو حيوانٍ نادر.

ولكي نحفظ الاسم، كان علينا أن نردِّده همسًا عدَّة مرَّاتٍ.

ـ إنَّه صندوقٌ للزينة يعزفُ الموسيقى وحدَه، بفضل ميكانيزمٍ من التُروس. ألا تذكرانه؟ ألا يوقظ فيكما أيّ ذكرى؟ قطعًا، سيكون ثمَّة صندوقٌ أو صندوقان مماثلان في هذا المنزل. عند زاوية دولابٍ، أو في دُرْجٍ أو على مرآة زينة. وبين الفينة والأخرى، نتذكَّرُ وجودها، فنديرُ مفتاحها. ولبرهةٍ، ينبعث منها لحنٌ متكرِّرٌ يبعث على الحنين.

حاولت جاهدةً إيجاد جوابٍ مُرضٍ لـ ر، لكنْ سدًى ركَّزتُ تفكيري، لم أكن أرى إلَّا علبةً صغيرةً عجيبةً أمام ناظري.

بادر الجدُّ:

- هل تقصدُ أنَّها شيءٌ اختفى؟

- أجل، إنَّها شيءٌ من الماضي. أتساءلُ متى بالضبط انتبهتُ إلى أنَّني بخلاف الآخرين، لا أفقد أيّ شيء! لا أتذكَّرُ جيِّدًا، لكنَّني أظنُّ أنَّ الأمر وافق تقريبًا لحظة اختفاء صناديق الموسيقى. لم أُفصح لأحدٍ عن سرِّي. غريزتي نبَّهتني إلى ضرورة التزام الصمت. ثم قرَّرتُ أن أخفيَ ما استطعتُ من أشياء مختفية. كان يشقّ عليَّ التخلُّص منها. كنت أسعى إلى التحقُّق من تماسك قلبي، بواسطة ما تخلِّفه فيَّ مداعبَتُها من أحاسيسَ. صندوق الموسيقى هذا، هو أوَّل شيءٍ أخفيتُه. فتقتُ باطنَ حقيبتي الرياضيَّة لكي أُخفيه بداخلها.

رفع ر نظَّارته بطرف سبَّابته.

كانت أطباق التحلية والفناجين الفارغة تحيط علبة الموسيقى.

. وهذا دافعٌ مضاعفٌ لكي أرفض هديَّتك الثمينة.

. بالعكس، إذا ما كنت أريد أن أُهديك شيئًا، فأفضِّل أن يكون أحد الأشياء التي أخفيتها هنا. بالطبع، لا ينبغي أن يذهب تفكيرك إلى أنَّني أحاول تعويضك بهديَّةٍ تافهةٍ كهذه، عن كلّ ما واجهتَه من أخطارٍ بسببي. أُدرك ذلك تمامًا. إنَّما فقط أحاول ما استطعت أن أمنع الذبول من أن يصل إلى قلبك. لكنَّني لا أدري كيف السبيل إلى ذلك. أقول لنفسي قد يفيد كأن تُمسكَ بين يديْك شيئًا اختفى، أن تحسّ بثقله، أو رائحته أو صوته.

قلب ر صندوق الموسيقى مرَّةً أخرى ليُدير مفتاحه. فردَّد الصندوق اللحنَ من بدايته. وكنت أرى في المرآة انعكاسَ عقدةِ ربطةِ عنقِ الجدِّ وأذنه اليسرى.

سألته وأنا أنظر إليه:

. هل تظنُّ حقًّا أنّ قلوبنا تذوي؟

. لا أدري إذا ما كانت الكلمة مناسبةً، لكنّ قلوبكم تتشوَّهُ بشكلٍ أو بآخر. ثم إنَّ هذا التحوُّل، ليس بالأمر الذي يمكن قلبُه بسهولة. من جهتي، أتساءلُ عمَّا ستنتهي إليه الأمور: ماذا يوجد في الطرف الأقصى؟ وهذا أمرٌ مقلقٌ جدًّا.

نقل ر فنجانه من يده اليمنى إلى يده اليسرى. وكان الجدُّ ما يزال يتأمَّلُ صندوق الموسيقى.

غمغمت في نفسي:

. في الطرف الأقصى... أليس كذلك؟

لا أقول إنَّني لم يسبق لي أن فكَّرت في الأمر. النهاية، الطرف الأقصى، المآل، كم مرَّةً حاولت الاقتراب من غاية قلبي، متوسِّلةً

بأمثال تلك الكلمات؟ لكنَّ مسعايَ لم ينجح قطّ. لا أستطيع المضيَّ أبعدَ في سؤالي، فما إن أُلقيَ بنفسي في أعماق قلبي الذي لا قرارة له، حتى تتعطَّل حواسّي كلّها، وأختنق. وعبثًا حدَّثتُ الجدَّ في ذلك، كان يكتفي بالقول: لا تقلقي.

ـ لكنْ، ألا ترى أنَّ تأمُّل شيءٍ اختفى، يجعلُك في وضعٍ غريب؟ إنَّه في الواقع شيءٌ غير موجودٍ، أليس كذلك؟ ومع ذلك، ها نحن أولاء نتأمَّل شكلَه، ونسمَع موسيقاه! وننطق اسمَه: أو. رو. غو. رو. ألا تجد الأمر غريبًا؟

ـ لا غرابة في الأمر، لو تعلمين. هذا الصندوق موجودٌ حقًّا، وماثلٌ أمامنا. وسواء اختفى أم لم يختفِ، فإنَّه ما يزال يعزف موسيقى. يكرِّرُ لحنَه الوفيَّ، بحسبِ طول دورة المفتاح. دورُه ينحصر في هذا. ويُعيد دورَه دائمًا وأبدًا. ما تغيَّرَ، هو قلبُنا.

ـ نعم، فهمت. ليس خطأه إن اختفى. لكنْ ليس باليد حيلة. حين أتأمَّل أشياءَ اختفت، يهتزُّ قلبي، كأنَّما ألقيَ بغتةً شيءٌ قاسٍ وشائكٌ، وسطَ لجُّةٍ ساكنة. يتغضَّنُ وجهُ الماء، وتتشكَّل دوَّامةٌ في الأعماق، فيصعد الوحلُ. لذا نحنُ مجبَرون على أن نحرق الأشياءَ، أو نلقيَ بها في النهر، أن ندفنها، حتى نبعدها ما أمكنَ عنَّا.

ـ هل سماع لحنِ صندوق الموسيقى مؤلمٌ إلى هذا الحدّ؟

كان ر قد أحنى ظهره وعقد ذراعيْه على ركبتيْه.

سارعَ الجدّ إلى الإجابة:

ـ كلَّا. ليس بالمؤلم البتَّة. أقبله منك بسرور.

ـ أظنُّ أنَّ مع قليلٍ من الاعتياد، سيسكن الوجيفُ الذي يهزُّ القلبَ. لا أفضل من لحنِ صندوق الموسيقى مسكِّنًا للقلب. لذا، من الجيِّد أن تنصت إليه مرَّةً في اليوم. اِحرص على أن تُدير المفتاح

بتكتُّمٍ، في المقصورة الأشدّ انعزالًا بالعبَّارة، بحيث لا ينتبه إليك أحد. وأنا متيقِّنٌ من أنَّه لن يمضيَ وقتٌ طويلٌ حتى تصير قابلًا اللحنَ. أرجوك.

وضع ر جبينه على يديْه المتشابكتيْن.

ـ طبعًا سأفعل. سأحرص على ذلك غاية الحرص. سأضعه في دولاب حوض الغسل. وبما أنَّني أضع هناك علبةَ معجون الأسنان وقارورةَ غسول الشعر والصابون. فلا أحد سيتساءَل لمَ أضع هذه العلبة وسط تلك الأشياء. سأفتح غطاءها صباحًا بينما أحلق ذقني بالأدوات التي أهدتني إيّاها الآنسة، ومساءً بينما أغسل أسناني. أليس من الأناقة أن يعتني المرءُ بزينته وهو يسمع الموسيقى؟ أيُّ سعادةٍ أن أحتفل بعيد ميلادي في هذه السنّ!

كان وجهه متغضِّنًا، يعلوه تعبيرٌ لا يبين ما إذا كان يبكي أم يضحك. وضعتُ يدي على ظهره.

ـ إنَّه عيد ميلادٍ جميل على ما أرى.

ـ آه.. أشاطرك الرأي. هذه أوَّل مرَّةٍ أحضر فيها مناسبةً مفرحةً لهذه الدرجة. هاك يا جدِّي. تفضَّل.

مدَّ ر يده لكي يعطي الجدَّ الصندوقَ. ارتدَّت الموسيقى على جدران الغرفة السرِّيَّة، وأخذت ترقص حوالينا. أغلق الجدُّ الغطاءَ برفقٍ بيديْه معًا، كأنَّما يُرينا أنَّه يخشى كسر الصندوق إن عاملَه بشدَّةٍ. صرَّت المفصِّلات مرَّةً أخرى، وتوقَّفت الموسيقى مطلقةً تنهيدةً.

وكانت تلك هي اللحظة، بالضبط، التي قُرِع فيها جرسُ باب المدخل، قرعًا حادًّا.

(9) للأورغ.

١٧

تخشَّبتُ، وأمسكتُ غريزيًّا بذراع الجدّ. وطوَّقني هو بذراعه الأخرى، وصندوق الموسيقى ما يزال موضوعًا على ركبتيْه. أمَّا ر، فقد رفع عينيْه ساكنًا.

أثناء ذلك، كان جرس الباب يرنُّ بلا توقُّف. وكذلك كان يُسمع قرعُ قبْضاتٍ على الباب.

غمغمت:

ـ ملاحقو الذكريات.

ولم أتعرَّف على صوتي، لفرط ما كان يرتجف.

سأل الجدُّ:

ـ هل البابُ مغلقٌ بالمفتاح؟

. نعم.

. إذن، ينبغي أن تفتحي لهم.

. أليس الأجدر التظاهر بأنَّني غير موجودةٍ بالمنزل؟

قال الجدُّ بحزمٍ:
. كلَّا. سوف يكسرون الباب ويقتحمون البيت. وسوف تزداد الشبهةُ حولنا. سنستقبلهم بأريحيَّة، ونتركهم يفتِّشون المنزل كما يحلو لهم. لا مشكل. سيمرُّ الأمر.

ثم أضاف وهو يضع صندوق الموسيقى على الطاولة:
. أنا آسفٌ، لكنْ هل يمكنك أن تحتفظ لي به للحظة؟

وافق ر صامتًا.

- هيَّا يا آنسة، لنسرع.

تماسكنا باليديْن، وعبرنا، متصادميْن، الخطواتِ القليلةَ التي تفصلنا عن درجات السلّم.

وحين بلغ الجدُّ منتصف السلّمَ، قال مرَّةً أخرى:

- لا تقلق، سأعود لأخذ هديَّتي الثمينة.

اكتفى ر بأن هزَّ رأسَه موافقًا في صمت.

أغلقتُ مدخل الغرفة السرِّيَّة، مصلِّيةً ألَّا يفتحه أحدٌ غيرنا نحن الاثنيْن.

* * *

. شرطة الذاكرة. لا تلمسا شيئًا في المنزل، حتى تنتهي الأبحاث. اشبكا أيديكما خلف ظهريْكما. الكلامُ ممنوعٌ. من الآن، ليس لكما إلّا الطاعة. وفي حال خالفتما التعليمات، سنعتقلكما.

كانوا خمسةً أو ستّةً في المحصّلة. لا بدَّ من أنّهم معتادون على تكرار إعلانهم ذاك عند باب كلِّ منزلٍ يقتحمونَه. وما إن فرغ أحدُهم من تلاوة الإعلان سريعًا، حتى دخلوا جميعًا.

في الخارج كان الثلج يسقط. وأمام منازل أخرى مجاورة، كانت متوقِّفةً شاحناتٌ خضراءُ غامقة. وكان التوتُّر بارزًا في هدأةِ الليل.

وكالعادة، كان عملهم فعّالًا، وجذريًّا وممنهجًا، وخاليًا من أيّ عاطفة. تواصل البحث سريعًا، شاملًا المطبخ، وغرفة الطعام والصالون، والحمّام، والقبو. ولم ينزع الرجالُ أحذيتهم أو معاطفهم.

وكأنَّما قد حُدِّدت الأدوارُ مسبقًا، كان بعضهم يزيح الأثاث، وبعضهم الآخرُ يجسُّ الجدران، أو يفتِّش الأدراج. وكان الثلج على أحذيتهم يذوب، فيلطِّخُ الأرضيَّة.

وكما أمرنا رجالُ الشرطة، بقينا واقفَيْن لصقَ عمودٍ من أعمدة الرواق، شابكيْن ذراعيْنا خلف ظهريْنا. وكانوا يبدون مركِّزين في مهمَّتهم، لكنَّهم مع ذلك لم يكونوا يغفلون عنَّا، حتى إنَّنا ما كنَّا نستطيع أن نتبادل نظرةً، أو نتقارب.

ولأنَّنا كنَّا قد تركنا الغرفة السرِّيَّة على عجل، فقد كانت ربطةُ عنق الجدّ شديدة الاعوجاج، بخلاف نظرته التي لم يكن فيها زيغ. وحتى أهدِّئ من روعي، حاولت أن أستذكر لحن صندوق الموسيقى الذي سمعناه منذ قليل. وعلى الرَّغم من أنَّ اللحن لم يدُم إلَّا لحظاتٍ، فإنَّني استطعتُ أن أتذكَّره كاملًا، من البداية إلى النهاية.

ـ من أنت؟ ولماذا أنت هنا؟

كان الشرطيُّ الذي يبدو قائدهم، يُشيرُ إلى الجدّ.

أجاب الجدّ بنبرةٍ حازمة، بعدما أخذ نَفَسًا عميقًا:

ـ أعتني بالأشغال البسيطة في هذا المنزل، منذ زمنٍ طويلٍ وأنا أعمل هنا، حتى إنَّني صرتُ فردًا من العائلة.

تفحَّصه الرجل من رأسه إلى قدميْه، ثم انصرف إلى عمله.

قال الشرطيُّ المنهمك بتفتيش المطبخ وهو يستدير إلينا:
ـ حوض المطبخ متَّسخ. هل كنتما تطبخان؟

وكان في الحوض ركامٌ من المقالي، والقِدر، والإناءُ وخفَّاقُ البيض، أي الأواني التي استعملتها في عيد الميلاد. صحيحٌ أنَّه بالنسبة إلى امرأةٍ تعيشُ بمفردها، كان المطبخُ في فوضى عارمة. زد على ذلك، أنَّه لم يكن ثمَّة صحنٌ واحدٌ متَّسخٌ، لأنّنا تركنا الصحون المستعملة

في الغرفة السرِّيَّة. لم يكن على مائدة حُجرة الطعام أثرٌ لوجبةٍ. هل انتبه الشرطيُّ إلى أنَّ الأمر لم يكن طبيعيًّا؟ أدركت أنَّ اللحنَ الذي أردِّده في قلبي ما انفكّ يمضي متسارعًا.

أردتُ أن أُجيبه «نعم» بصوتٍ واضحٍ، لكنْ، لم يخرج من فمي إلَّا زفرةٌ واهنة.

دنا منِّي الجدُّ بنصف خطوةٍ.

ـ أحضِّرُ الطعام وأجمِّده لأسبوع.

أجبتُه، وأنا نفسي مندهشةٌ من هذه الفكرة العبثيَّة.

قلتُ لنفسي: الحقُّ، لو أنَّهم وجدوا في الحوض أوانيَ لثلاثة أشخاصٍ لكانت الشبهةُ أكبر، لذا عليَّ أن أعتبر نفسي محظوظة.

بعدما رفع الشرطيُّ المقلاة التي طهوتُ فيها الخضراوات الخضراء، والإناء الذي خلطتُ فيه الكعكة، وألقى عليهما نظرةً، ابتعد عن الحوض كي يفتِّش خزانةَ التوابل. ارتحتُ، فبلعتُ ريقي.

- والآن، إلى الطابق.

مع إشارة قائدهم، اصطفَّ رجالُ الشرطة، ثم ارتقوا الدرج واحدًا في إثر آخر. وتبعناهما بدورنا.

كنت أفكِّرُ: هل كانت تصل ر هذه الجلبةُ، ووقع الأقدام؟ وبما أنَّ الإنسان يشعر بأمانٍ أكبر كلَّما انطوى على نفسه، هل يجلس مقوَّسَ الظهر حاضنًا بذراعيْه رُكبتيْه. وبما أنَّ السرير والكرسيَّ يَصرَّان، فإنَّه يجلس على الأرض لكي لا يُصدر أيّ صوتٍ. ولكي لا يفلت نفَسُه إلى الخارج، لا بدَّ من أنَّه يقتصد في تنفُّسه. وصندوق الموسيقى، بجانبه يحرسُه.

كان التفتيش في الطابق أشدّ دقَّةً، خاصَّةً وأنَّ عددَ الغرف أقلّ. وكان رجال الشرطة يتقصَّدون إصدارَ أصواتٍ صاخبة، يرفعون أشياءَ ليفحصوها في نور الكهرباء، ويعبثون بأسلحتهم. وكان يبدو لي أنَّ كلّ حركةٍ من حركاتهم لها دلالةٌ مهمَّة، فما انفكّ تنفُّسي يضيق.

كنَّا نقف لصق نافذة البهو الشماليَّة. ويداي المضمومتان خلفي ما انفكَّتا تثقلان. النهرُ تحت النافذة يغوص في الظلام، وما عاد بالإمكان تمييزُ مجراه. هل منازل الجيران أيضًا بين أيدي ملاحقي الذكريات؟ أنوارُ منازلهم جميعًا مشتعلة. سعل الجدُّ سعلةً مكتومة. وعبر فُرجة الباب، أبصرنا المكتبَ من الداخل. أخرج شرطيٌّ الكتبَ كلّها، وسلَّط ضوء مصباحه اليدويّ على المسافة الفاصلة بين خشب قعر المكتبة والحائط. وآخرُ رفع فرشة السرير، وحاول أن ينزع غطاءها. بينما ثالث يفحص الأوراق المخطوطة، الموضوعة في دُرج المكتب. وبسبب معاطفهم المربَّعة الأكتاف، كان حجمهم يبدو أضخم. كانوا مرعبين، كأنَّما يهيمنون على كلِّ شيء.

سأل شرطيٌّ، وفي يده حزمةُ أوراق:

. ما هذا؟

في تفتيشهم المكتبَ، مصدرُ خطر. لأنَّ خلف القواميس، أُخفي مكبِّر الصوت.

أجبتُ باتِّجاه فُرجة الباب:

. إنَّها رواية.

. رواية؟

ردَّد الشرطيُّ الكلمة، كأنَّما ينطق كلمةً مخجلةً، قبل أن يرمي حزمة الأوراق على الأرض مغمغمًا. تناثرت الأوراقُ في كلِّ جانبٍ. كان على الأرجح رجلًا من أولئك الذين لم يقرأوا قطّ روايةً، وربَّما لن يقرأوها أبدًا. وهذا أفضل لهم. وفي اللحظة نفسها التي انصرف فيها عن الاهتمام بالمخطوط، ابتعدَ عن القواميس.

الأحذية الطويلة تدوس البساط. كانت مشرَّبة بالدهن وملمَّعةً جيِّدًا، فتبدو ثقيلةً ولا بدَّ من أنَّ نزعها يحتاج وقتًا طويلًا. وفي تلك اللحظة، انتبهت إلى أمرٍ خطير. أحد أركان البساط، على صغره، كان مقلوبًا.

كنتُ أنا آخر من خرج، فأغلقت المدخل، وأعدت البساطَ إلى موضعه. وحتى إن كنتُ مستعجلةً، لِمَ لم أقم بالأمر على أكمل وجه؟ إن انتبهوا إلى الأمر ورفعوه ولو قليلًا، سينكشف مدخل الغرفة السرِّيَّة.

ما عدتُ أستطيع مفارقة المكان بعينيَّ. وكنت أعرفُ أنَّني بتصرُّفي هذا أضاعفُ من إمكان الخطر، لكنَّني لم أستطع غير ذلك. هل انتبه الجدُّ إلى الأمر؟ ألقيت إليه بنظرةٍ. كان يكتفي بالنظر إلى البعيد، كأنَّما يريد أن ينفذ في الليل.

الأحذية الطويلة تدوس ركن البساط، مرَّةً بعد مرَّة. لم يكن مقلوبًا إلَّا بأربعة سنتمترات أو خمسة، وفي ظروفٍ عاديَّة، ما كان قطعًا ليُلحَظ؛ أمَّا الآن، فإنَّ الثنية تبدو بارزةً للعيْن، شاغلةً مجالي البصري بأكمله. وعلى الرَّغم من أنَّه لم يكن يتجاوز بضعة سنتمترات، إلَّا أنَّه كان مناسبًا تمامًا لتمسك به اليدُ بين الإبهام والسبَّابة.

فجأةً، سألنا أحد رجال الشرطة:

- ما هذا؟

ظننتُه قد لاحظ البساط، فوضعت رغمًا عنِّي يديَّ على فمي.

- ما هذا؟

كان الرجل يقترب بخطواتٍ هائلة.

أفلتُّ شظيَّةً من لحن صندوق الموسيقى، كأنَّما انكسرت تُروس الميكانيزم، وإلَّا فإنَّني كنتُ على وشك أن أُطلق صيحةً.

صاح آمرًا بصوتٍ حلقيٍّ ضخم:

ـ أبقي يديْك مضمومتيْن خلف ظهرك.

شادَّةً يديَّ اللتين بدأتا ترتعدان، أعدتُهما بهدوءٍ خلفَ ظهري.

ـ لِمَ ما يزال هنا؟

أشهرَ في وجهي شيئًا صغيرًا مربَّعًا. رمشتُ بعينيَّ. كان الشيء مفكّرةً نسيتُها في حقيبتي.

أجبتُه بعدما أوقفت ميكانيزم صندوق الموسيقى في ذهني:

ـ لا سبب معيَّنًا لذلك. فقط نسيتُها. لأنَّني ما كنتُ أستعملها تقريبًا...

حاولت أن أُقنع نفسي:

ـ لقد سألني الرجلُ عن المفكَّرة، لأنَّه لم يلاحظ البساط. لا مشكلة مع المفكَّرة. فلم أدوِّن عليها شيئًا مهمًّا. لا شيءَ أكثر من موعد تسلُّم الغسيل من المكوى، ويومَ تنظيف مزاريب الشارع، وموعد طبيب الأسنان.

ـ إنَّ اختفاء اليوميَّات يعني أنَّ الأيَّام والتواريخ صارت بلا فائدة. ينبغي أن تُدركي أيّ خطرٍ تعرِّضين نفسك له حين تحتفظين بشيءٍ اختفى.

كان الرجل يتفحَّص المفكَّرة من غير أن يبدو عليه اهتمامٌ بمحتواها.

ـ ينبغي أن تعجِّلي بالتخلُّص منها.

قال ذلك وهو يُخرِج من جيبه قدَّاحةً، فيُضرم النارَ في المفكَّرة ويُلقي بها إلى النهر عبر النافذة الشماليَّة. ومن بين قدميْه، لمحتُ البساط. لفَّت المفكَّرة في الهواء مطلقةً شرارًا، كألعابٍ ناريَّة، قبل أن يبتلعها النهر. وظلَّ المنحنى البرَّاق مرسومًا لوهلةٍ في الظلام. وفي البعيد، حدثت رجَّةُ ماءٍ خاطفة.

وفي تلك اللحظة، كأنَّما صوتُ سقوط المفكَّرة في الماء كان إشارةً متَّفقًا عليها سلفًا، صاح رئيس الفريق: «انتهينا!» فتركوا أماكنهم من فورهم، وانتظموا في صفٍّ، ثم نزلوا الدَّرج. ومن دون أن يستأذنوا بكلمة، أو يعيدوا دُرْجًا أو رفًّا إلى موضعه، انطلقوا تصحبهم قعقعةُ أسلحتهم المشدودةِ إلى خصورهم.

وإذ كنتُ على وشك الانهيارِ، لُذت بصدر الجدّ.

همس لي باسمًا:

- انتهى الأمر.

لم ينتبهوا إلى ركن البساط المقلوب.

* * *

في الخارج، بعدما أكمل رجالُ شرطة الذاكرة عملهم، وأنهوا جولةَ صيدِ الذكريات، ها هم يركبون واحدًا تلو آخر في الشاحنات المتأهِّبة للانطلاق.

الجيران يتأمَّلون المشهد لائذين بظلِّ أعمدة أبوابِ بيوتهم. وكان الثلجُ المتساقطُ على خدودهم وأقفائهم وأياديهم، باردًا جدًّا، لكنَّهم لم يكونوا يشعرون به. فما كانوا يشعرون به من رعبٍ وتوتُّرٍ لم يكن يترك مجالًا لغيره من الأحاسيس.

أضواءُ الشاحناتِ الأماميَّةُ، وأنوار الشارع، والثلجُ، تضيءُ الظلمات. بينما اجتمع حشدٌ من الناس غارقين في الهدوء. وكان بالإمكان سماعُ صوت الثلج خارقًا الليلَ المظلم.

وفي تلك اللحظة، رأينا ثلاثة أشباحٍ تغادر منزل الجيران الواقع شرقًا. لم نكن نميِّز ملامحهم، لكنَّهم كانوا يسيرون في الثلج بأظهرٍ محنيَّة، وقد خارت قواهم. وخلفهم رجال الشرطة يدفعونهم دفعًا. وكانت أسلحة رجال الشرطة تومضُ عنيفةً.

غمغم صانع القبّعات ـ سابقًا المسنُّ، مناجيًا نفسَه:

ـ لم أنتبه البتَّة! من كان ليتصوَّر أنَّ في هذا المنزل يختفي أناسٌ؟

ـ يبدو أنَّ الزوجيْن كانا ينتميان إلى منظَّمةٍ سرِّيَّةٍ تقدِّم يد العون لهؤلاء الناس.

ـ ربَّما لهذا السبب كانوا يتجنَّبون الاختلاط بالجيران.

- انظروا. إنَّه ما يزال طفلًا.

- مساكين...

كانت تتناهى إلينا أصداءُ أصواتٍ متقطِّعة. وأنا والجدّ، يدًا في يد، نتأمَّلهم وهم يُصعدون إلى الشاحنات. كان مراهقًا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، يمضي محشورًا بين والديْه، كأنَّه مرفوع. يبدو متين البدن، لكنَّ وشاحه الصوفيّ الذي تنتهي أطرافُه بكُرياتٍ يُضفي عليه بقايا من مظهر الطفولة.

أُسدلت أغطيةُ الشاحنات، فانطلق موكبها وما لبث أن اختفى. ثم أتى الدَّوْر على الجيران ليختفوا في منازلهم. وحدنا أنا والجدّ ظللنا، يدًا في يد، نحدِّقُ بعيدًا في الظلام.

كلب الجيران، وقد تُرك لنفسه، أخذ يفرك رأسه في الثلج متشمِّمًا.

* * *

تلك الليلة، بكيتُ في الغرفة السرِّيَّة.

كانت تلك المرَّة الأولى في حياتي التي أُهرق فيها هذا القَدْر من الدموع.

ما دام ر سليمًا معافىً، فالأحرى بيَ الفرحُ، لكنَّني لا أدري لمِا كنت عاجزةً عن كبت أحاسيسي، تركت نفسي تنقادُ في اتِّجاهٍ أذهلني. لكنَّني لا أدري حقًّا ما إذا كانت الكلمة «بكاءِ» مناسبةً لهذا المقام. لم أكن حقًّا حزينةً. ولا تحرَّرتُ من التوتُّر الذي ألفيتُ نفسي فيه. إنَّما هي فقط كلّ الأحاسيس التي كانت تطفو في قلبي، منذ أن آويتُ ر، قد تحوَّلت إلى دموعٍ مهراقة. وما كنت أعرف السبيل إلى كَفْكَفَتِها. سدًى ضغطت أسناني، مقتنعةً بأنَّني لا ينبغي أن أطلع عليه بهيئتي تلك، وعبثًا بذلَ لطيفَ الكلماتِ ليهدِّئني. لم أكن أستطيع إلَّا الاستكانة صامتةً صحبة دموعي التي كانت تسيل من تلقاءِ ذاتها.

قلت له وأنا مكوَّمةٌ على السرير:

ـ ما ظننتُ قطُّ أن أكون مدينةً لهذه الغرفة الضيِّقة.

ـ لِمَ؟

كان جالسًا بقربي، يداعبُ شعري ويحكّ ظهري، كأنَّما يحاول أن يفعل أدنى ما بوسعه لتهدئتي.

ـ لأنَّه كلَّما ضاق المكان، أحسسنا بأنَّنا أقربُ إلى بعضنا بعضًا. في الليالي التي لا أستطيع أن أظلّ فيها وحدي، شأنَ هذه الليلة، هذا الضيقُ تحديدًا هو ما ينقذني.

كان غطاءُ السرير عند خدِّي دافئًا ومبلَّلًا. لُمَّت الطاولةُ والصحون التي استعملناها لحفلتنا، فاستعادت الغرفةُ مظهرها الاعتياديّ. فقط كان ينتابني الانطباعُ بأنَّ المكان ما يزال يفوح برائحة الحلوى المسكَّرة بعض الشيء.

قال وهو ينحني عليَّ، كأنَّما ليتفحَّص تعبيرَ وجهي:

. تستطيعين البقاء هنا ما شئتِ. لا أظنُّ أنَّ مُلاحقي الذكريات قد يأتون مرَّتيْن في ليلةٍ واحدة.

. اعذرني. الحقّ أنَّني أنا من يُفترض أن يواسيك.

. كلَّا. أنتِ خائفةٌ أكثر منِّي. يكفيني أنا أن أبقى هنا، من غير أن أُصدر أيّ صوت.

. كان رجال الشرطة يذرعون المكان فوق مكمنك، في جلبةٍ كبيرة. هل سمعت وقع خطواتهم؟

أجاب موافقًا:

. آااه.

ـ كان طرف البساط مقلوبًا قليلًا. حين خرجنا أنا والجدّ من هنا، كنّا هلعيْن، فلم نعده كما ينبغي. فكّرت في أنّهم إن انتبهوا للأمر، فسيُقضى علينا. لأنَّه كان مقلوبًا بشكلٍ يحثّ الناظر إليه على رفعه والنظر تحته. ما أقسى، في نظري، أن يتعلّق مصير المرء ببساطٍ تافه. نازعتني الرغبةُ إلى أن أُهرع إليه، فأسير فوقه. وددتُ لو أدوس عليه، مرّاتٍ ومرّاتٍ، إلى أن يلتصق بخشب الأرضيَّة. لكنَّه بالطبع، أمرٌ غير ممكن. كنت فزعةً كأرنبٍ وقع في الشَرَك.

وبينما أتكلَّم، لم تكفّ دموعي عن الانهمار. كنت أبكي كثيرًا، فكيف لم يكن ينقطع كلامي؟! كنت أجد الأمر غريبًا. الأحاسيسُ، والدموع، والكلماتُ، تفيضُ، كلٌّ من جهتها، في مكانٍ لا سبيل إلى بلوغه.

ـ لم أكن أدري. لم أعرف أنَّني أنا من أقحمكِ في هذه الحال.

كان خافضًا عينيْه إلى المدفأة الكهربائيَّة عند قدميْه.

ـ كلّا، ليس عندي ما ألومك عليه. لست أبكي بدافعٍ من إحساسٍ بهذه البشاعة. صدِّقني. لو أنَّني كنتُ أخشى ملاحقي الذكريات، لما عرضتُ عليك الاختباء عندي. لكنْ، لِمَ أبكِ على هذا النحو؟ لا أفهم. لا أستطيع أن أشرح الأمر حتى لنفسي. فكيف لي إذن أن أتجاوزَ ما لستُ أفهمه؟

أخرجت وجهي من تحت أغطية السرير، ورفعت الشعر المتساقط على جبيني.

ـ ليس من الضروريّ أن يبذل الإنسانُ جهدًا هائلًا في سبيل شرح ما لا يمكن شرحُه. بدلًا من ذلك، أرى أنَّني وضعتُكما، أنتِ والجدّ، في وضعيَّةٍ شائكة. وما دمت هنا، يُستحسن أن تتصرَّفي كما يحلو لكِ.

ـ إن كنتُ أبكي بلا سببٍ، فربَّما لأنَّ قلبي بلغ حدًّا من الوهن، حتى ما عاد بإمكاني أن أساعد نفسي!

ـ بل العكس. إنَّما قلبك يطالب بوجوده بكلِّ ما فيه من قوَّةٍ. إنَّ بإمكان شرطة الذاكرة أن تصادر ما تشاء من ذكريات، لكنَّها أبدًا لن تستطيع تحويل القلب إلى حالة الصفر.

ـ تظنُّ ذلك؟...

نظرتُ إلى ر. ولو أنِّي ملت قليلًا فقط، لأمكنني أن ألمسه. رفع يده، ومسح بأطراف أصابعه دمعةً من طرْف عيني. كانت أصابعه دافئةً. ورأيتُ دموعي تسيل على ظهر يده. وضمَّني إليه. عادَ هدوء الليل. وبدا لي غيرَ قابلٍ للتصديق ما حدثَ منذ قليل، أقصد حين رنَّ جرس الباب، وداست الأقدامُ بعنفٍ في الأعلى. أمَّا الآن، فما عاد يصلني إلَّا خفقاتُ قلبه خلَل نسيج سترته.

من دون أن يشدَّ عليَّ، كانت ذراعاه تطوِّقان ظهري برفقٍ. وأخيرًا، استطعت كفكفة دمعي. شراءُ المستلزمات من السوق، موتُ السمكة، لهيب الشمعات الموضوعة على الكعكة، صندوق

الموسيقى، الدفاتر وهي تحترق.. كلّ ذلك يبدو منتميًا إلى ماضٍ بعيد. لا حاضرَ إلَّا هذه اللحظة التي تجمعنا، أنا وهو، حيثُ ندورُ في دوَّامةٍ لا نهاية لها، من غير أن نجد لنا مخرجًا.

«خلف دقَّات قلبه، هل ثمَّة ذكرياتٌ نسيتُها»؟ تساءلت وخدِّي لصق صدره. وددتُ لو أمكن أن أتناولها واحدةً واحدة، وأصفَّها أمام عينيّ. كنتُ على يقينٍ من أنَّ الذكريات فيه تنبض، من أنَّها طريَّةٌ بحيثُ إنْ أنا لمستُها بطرَف إصبعي لأحيَتهُ. ذكرياتٌ، قطعًا، لا تُقارنُ بتلك الذكريات المبهمة التي بقيت عندي عن البَتَلات الذابلة التي غمرها الماء، أو بقايا الرماد في المحرقة. أغمضتُ عينيّ. لامست رموشي نسيجَ سترته.

همستُ له:

ـ لقد اقتادوا الجيران الواقع بيتهم شرقًا، حملوهم في شاحنةٍ مغطَّاةٍ. كانوا يؤوون طفلًا ما يزال في سنّ البراءة. أتساءل منذ متى وهم

يخفونَه! لم أنتبه البتَّة إلى أنَّ شخصًا يختبئ على مقربةٍ منَّا، بالطريقة نفسها التي تختبئ بها أنت.

. وإلى أين اقتيد الطفل؟

كنت أشعر بصوته، يمتصّهُ شعري.

. هو السؤال نفسُه الذي طرحتُه على نفسي. لذا ظللتُ أسبر الظلام، حتى بعدما اختفت أنوار الشاحنة الخلفيَّة. بقيتُ هناك، واقفةً بلا معطفٍ أو قفّازٍ، غير آبهةٍ بالثلج المتساقط على خدَّيَّ. وكأنَّما إن بقيتُ هناك طويلًا، سينتهي بي المطاف يومًا ما إلى أن أدرك المكانَ الذي تقصده الذكريات.

أمسكني من كتفيَّ، وجعل بيننا مسافةً، ثم أخذ يتأمَّلني منها. أردت أن أقول له «لكنَّني عبثًا انتظرتُ، ولم أرَ شيئًا»، لكنَّ صوتي لم يستطع الخروجَ، لأنّ شفتيْه غطَّتا شفتيَّ.

١٨

أتساءل كم يومًا مرَّ عليَّ مُذ حُبستُ في البرج؟ لست أملك أدنى فكرة. بالطبع، مع الساعة العظيمة الموجودة هنا، أستطيع أن أعرف الوقت متى شئتُ. ومرَّتيْن في اليوم تُدقُّ الأجراس، في الحادية عشرة صباحًا، ثم في الخامسة مساءً. في البداية، كنت أحصي الأيَّام: كلّ يومٍ أصنع بظفري حزَّةً في رِجل كرسيٍّ، لكنَّ اليومَ ما عدتُ أدري إلى أين وصلت أيَّامي. ملأتِ الحزَّات الكرسيَّ، ثم ما عدت أتبيَّنُ فيها تلك التي أحدثتُها بنفسي. صارت الأيَّام تمضي رتيبةً، من غير أن أُدرك لها تاريخًا، أو شهرًا أو يومًا. لكنْ فيمَ تُفيدني معرفة التاريخ واليوم، أنا السجينة بين أصواتِ جثثٍ شتَّى؟ ما الفائدة بعدما نالَ مرادَه، وصيَّرني أسيرته؟

في البداية، لم أكن أرى إلَّا آلاتٍ كاتبة، وميكانيزم الساعة الهائلة، لكنْ بعد مدَّةٍ، انتهى بي المطاف إلى أن ميَّزتُ تفاصيل الحُجرة.

عند منتصف الحائط الشرقيّ تقريبًا، انهار ركامُ الآلات الكاتبة فجأةً. ويكفي أن أخطو من فوقه لكي أجد البابَ، وخلفَ الباب حمّامٌ صغير. وفوق صنبور الحمَّام منْور. من حينٍ إلى آخر، أصعد على حوض الصنبور، وأفتح نافذة المنْور، فأتأمَّل المنظر في الخارج. ألمح أسقُفًا، وحقولًا، ونهرًا صغيرًا، ومنتزهًا. وبما أنَّ هذا البرج هو أعلى بنايةٍ في المدينة، فلا شيءَ يقع فوقي. لا شيء غير السماء الممتدَّة. من الرائع، من حينٍ إلى آخر، استنشاق هذا الهواءِ النقيِّ. غير أنَّ الحوض لا يبدو متينًا بما يكفي ليتحمَّلَ ثقل جسدي، فما لبثَت أن ظهرت شقوقٌ بين وعائه وبلاط الحائط، ومنها بدأ يتسرَّبُ الماءُ.

اكتشافٌ آخر اكتشفته: محتوى دُرج الطاولة. ولو أنَّني لم أجد شيئًا جديرًا بالاهتمام، أقصد شيئًا من قبيل مطرقةٍ أكسر بها القفل. حلقات ألاعيبٍ سحريَّة، دبابيس تثبيت، أنبوب كريمة منثول، علبة شوكولاتة فارغة، علبة سجائر، عودٌ لتنظيف الأظافر، صدَفةٌ، قفّاز إصبع، مِحرارٌ، وغمد نظّارات... هذا تقريبًا كلّ

شيء. أفضل من لا شيء. صحيحٌ أنَّ هذه الأشياء تضفي على حياتي طعمًا. أحاول أن أتخيَّل كيف وصلت هذه الأشياء إلى هنا. لا شكَّ أنَّ في ما مضى، في الزمن الذي لم تكن الساعةُ فيه بعدُ أوتوماتيكيَّةً، كان الرجل المكلَّف بها يسكنُ هنا. وكان شغله يتلخَّص في رفع الزنبرك، وتزييت التُروس، ودقّ الأجراس في ساعاتٍ محدَّدة. وربّما كان، في أوقات فراغه، يساعد في أعمال الكنيسة. شيخٌ مسنٌّ، بلا روابط، صموتٌ وجادٌّ. ولا بدَّ من أنَّ السجائر وغمد النظّارات، أشياؤُه. ما تزال ثمَّة بعض السجائرِ، لكنَّها فقدت تقريبًا كلّ نكهة. العلبة من نوعٍ قديمٍ، لم نعد نرى أمثالها في أيَّامنا هذه. وغمد النظَّارة من نسيجٍ بلي كلّ البلى. هل مات الرجلُ المسنُّ في هذه الحُجرة؟

فلأتسلَّ، على الأقلِّ، بالحلقات السحريَّة. خليّة البال، كنت أقضي الوقتَ أتأمَّل الحلقاتِ المطليَّةَ بطِلاءٍ برَّاق. على أيِّ حالٍ، إنَّ التلاعب بالأشياء يحسِّنُ مزاجي. وحين أتذكَّر القلق الذي

اعترى أصابعي حين عُلِّمتُ الكتابة على الآلة، فلا يسعني أن أتذمَّر من الحلقات السحريَّة.

على أنَّ أصابعي انتهت إلى أن حفظتِ الطريقةَ التي تتداخل بها الحلقات السحريَّة، فصارت تقضي وقتًا أقلّ، فأقلّ، في فكِّها، وفي ذلك مصدرُ عذاب.

كذلك نفعني مرهم المنثول. دهنت منه على صدغيَّ، وتحت أنفي، وعلى رقبتي. وكلَّما استنشقت عطره الحرِّيف، أحسست بمعنويَّاتي ترتفع. لا أعني أنِّي أُستثارُ، وإنَّما ينتابني الانطباعُ بأنَّ ريحًا رُخاءً تهبّ في جسدي، فتريحُ بعضًا من أعصابي. ويستمرّ الإحساس نحو عشر دقائق، إلى أن يتبخَّر المنثول. وبما أنَّ نصف الأنبوب أصلًا فارغ، فإنَّني أستعمله بحذرٍ، فلا أضع منه إلَّا كمِّيَّاتٍ صغيرة.

ومن بين الأشياء الأخرى التي غيَّرت جوّ الحُجرة العامّ: السريرُ. وكان هو من أتى بالسرير.

سريرٌ، هو في الواقع مجرَّد أريكةٍ، لكنَّني أظنُّ أنَّ نقلها عبر سلّم البرج لم يكن بالأمر السهل. حين أتى بها، بالكاد كان يُرى جسدُه المتواري خلف الفرش، وقد تقشَّر طِلاء القوائم الأنبوبيَّة بفعلِ جرِّها على الأرض. يداه احمرَّتا من الجهد، وكتفاه مشدودتان والعرقُ يتلألأ على جبينه. ولأنَّه نادرًا ما كان يبدو عليه في منزله أثرُ التعب، فقد شعرتُ بالانزعاج من منظره.

كان يتحكَّم في نفسه طيلة الوقت. ملابسه، وشعره، وزغب جسمه، وطريقته في تحريك أصابعه، وكذلك الكلمات التي يستعملها؛ كلّ ذلك كان خاضعًا لإرادته. وأنا على يقينٍ من أنَّ إظهار العرق على جبينه لم يكن أمرًا مقصودًا. لكنْ لم يكن تعبه سدًى، فعلى السرير الذي حمله فَعَل بي الكثير.

* * *

إنَّ قرعَ الجرسِ هنا، في الحُجرة، أشدُّ رعبًا منه في المدينة. طبيعيّ، ما دام قريبًا منِّي، لدرجة أنَّني أستطيع لمسَه. حين تدنو الساعةُ الخامسة أو الحادية عشرة، ألوذ بركنٍ من أركان الحُجرة، وأضع رأسي على ركبتيَّ. أغمض عينيّ وأحبس أنفاسي، لأنَّني أظنُّ أنَّ الصدمةَ ستكون أوهنَ وقعًا إن أنا أغلقت منافذ حواسِّي. لكنْ في اللحظة الأخيرة، حين تنطلق عصا الجرس، وتبدأ في التأرجح، أُدرك أنَّ كلّ احتياطاتي تلك، بلا معنى. يسري رنين الجرس على السقف، ويرتطم بالجدران، فتهتزّ له الأرضيَّةُ، وإذ لا يجد منفذًا يسلك منه، فإنَّه يملأ الغرفةَ لساعاتٍ طوال. يجثم عليَّ كموجةٍ ثقيلة. وسدًى أهزّ نفسي لأطردَه.

في اليوم الأوَّل من مقامي هنا، حسبتُ، لما دُقَّ الجرسُ، بأنَّ كلّ الآلات الكاتبة قد صرَّت في آنٍ. والحقُّ أنَّه لو شرعت المفاتيحُ جميعًا تنقر في الآن نفسه، فسوف تكون النتيجة ضجيجًا لا يقلّ إفزاعًا عن ضجيج هذا الجرَس، إن لم يفُقه.

الآن، ما عدت أُميِّزُ آلتي بينها. في البداية، كان معدن الرافعة والغطاء ما يزالان يحتفظان ببريقهما ومرونتهما، لكنَّ شيئًا فشيئًا، غطَّى الآلة الغبارُ وانطفأ لونُها، فما عدتُ أتبيَّنها. دُفنَت تمامًا تحت الركام.

هل صحيحٌ ما قاله: كلّ آلةٍ هنا سجنٌ لصوتٍ؟ فإن صحَّ أنّ الأصواتَ تذوي كالأجساد، وككلِّ الأشياء التي يسحقها ركامٌ، فلا بدَّ من أنَّ الأصوات وقد انقطع نَفَسُها، قد انطفأت.

وفي لحظةٍ، انتبهت إلى أنَّني ما عدتُ أتذكَّرُ صوتي، فذُهلتُ. لم أتخيَّل قطّ نفسي أنسى صوتًا عاشرتُه أطولَ ممَّا فارقتُه.

يبدو أنَّ الأشياء التي كنت أظنّها مُلكي وحدي، وستظلُّ مُلكي حتى وإن انقلب العالم رأسًا على عقبٍ، قد تفارقني في الواقع بأيسر ممَّا أتخيَّل. فلو أنَّهم مزَّقوا جسدي أشلاءً، وخلطوها بأشلاء أشخاصٍ آخرين، ثم قالوا لي: «هيَّا جِدِي عينك اليسرى بين عيون

الآخرين»، فلا شكّ أنَّ القيام بذلك سيكون صعبًا. الأمرُ مماثلٌ: لا بدَّ من أنَّ صوتي ملقًى، وحيدًا، في فجوة رافعةٍ في جوف آلةٍ كاتبة.

* * *

يعاملني كما يحلو له. حرفيًّا «كما يحلو له». الوجباتُ هو من يأتيني بها. أظنُّه يُعدِّها بنفسه في الحُجرة الصغيرة التي نسخِّنُ فيها الماء، الغرفة الواقعة خلف قاعة الدروس. ليست وجباتٍ فاخرة، لكنَّها مقبولةٌ جدًّا: حساء، غْراتان، يخنة، يبدو لي أنَّه يُكثر من الأطباق بالصلصة. يضع الصينيَّة أرضًا، ويجلس قبالتي. ثم يحدِّقُ فيَّ متأمِّلًا، وذقنه على راحته. لا يحمل أيّ لقمةٍ إلى فمه. وحدي آكُل.

لم أعتد بعدُ على الأكل بهذه الطريقة. بلا موسيقى، ولا ضحك، ولا أحاديث؛ أن أتناول الطعام تحت مرمى بصره الذي لا يفارقني لحظةً، وضعٌ يرهق الأعصابَ. كذلك لا تكون شهيَّتي مفتوحةً. أتمثَّلُ لُقمات الطعام وهي تنزل على امتداد حنجرتي، ثم تتشبَّث

بجوانحي، وتنزل بمشقَّةٍ حتى معدتي. وكلَّما أكلت نصف الطعامِ، اكتفيتُ، لكنَّني أُجبر نفسي على تناولِ طعامِنا كلّه. وإلَّا فإنَّني لا أعرف ما قد يفعل بي بما تبقَّى من طعام.

بين الفينة والأخرى، يقول لي:

ـ على شفتيْكِ بعضُ الصلصة.

فألحس شفتيَّ بسرعة. ما دمت لا أملك منشفةً، فلا حلّ لي غير ذلك.

يقول لي:

ـ إلى اليمين قليلًا.

أو:

ـ إلى الأعلى.

هكذا يجعلني ألحس شفتيَّ من أقصاهما إلى أقصاهما.

ـ هيَّا، إلى البقيَّة.

يتصرَّف بلباقة نادلٍ في مطعمٍ فخم. وأنا أفتُّ خبزي إلى قطعٍ صغيرة، وأقطع اللحم ببطء، وأشرب ماءً، وبين الفينة والأخرى، أختلس النظر إليه من أسفل.

ليلًا، يُعرِّيني، ويُبقيني واقفةً، ثم يعمد إلى جسدي ليعتني بزينته. الماءُ الذي يحمله في وعاءٍ، ساخنٌ جدًّا، فيملأ الحُجرةَ بُخارُه. ويقضي وقتًا طويلًا في تنظيف جسدي بالماء، حتى يختفي البخار من الحُجرة. يمسحني بالحركات نفسها التي يصقل بها الكرونومتر. أتساءلُ بدهشةٍ ما إذا كان الجسدُ البشريُّ أيضًا مكوّنًا من قَدْرٍ مماثلٍ من الأجزاء. يبدو عملًا لا نهاية له: الجفنان، ومنابت الشعر، والموضع خلف الأذنيْن، والترقوة، والإبطان، والحلمتان، والبطنُ، وتجاويف الحوض، والفخذان، وربلتا الساقيْن، وبين الأصابع...

ليس يهملُ موضعًا. من غير أن يُبدي كللًا، أو ينضح منه عرق، أو تتبدَّلَ ملامحه، يلامس جسدي كلّه.

وبالطبع، حين يفرغ من تنظيفي، هو من يختار أيّ الملابس أرتديها. ملابسُ غريبةٌ، ممَّا لا نجده في العادة في محلَّات الألبسة. حتى إنَّني أتساءل: هل بوسعي أن أُسمِّيها ملابس؟ فأوَّلًا، مادَّتها ليست من مُعتادِ موادِّ الملابس؛ وإنَّما هي من بلاستيك، أو ورق، أو معدن، أوراق شجر، أو قشور فاكهة. فمتى ضغطتَ عليها، انسلخت عن الجسم، جارحةً الجلدَ، وعاصرةً الجسدَ. لذا ينبغي اتِّخاذ الحَذَر أثناء لبسها.

ثم ذات يومٍ، اعترف لي بأنَّه هو من يصنعها. يتخيَّلُ أوَّلًا صورتها، ويرسم نموذجها الأوَّليّ في كرَّاس، فيصنع لها مجسَّمًا، ثم يلتمس الموادّ من كلّ مكانٍ. إذّاك، انتابني إحساسٌ عبثيّ لا سبيل إلى وصفه: لا بدَّ من أن تكون أصابعُه جميلةً وهي منهمكة في صنع زيٍّ. ذاك ما خطر ببالي. إنَّ تخيُّل أصابعِهِ وهي تُدخل الخيط في

إبرةٍ، أو تقطع بمقصٍّ قشرَ ثمرةٍ، لا يقلُّ عندي جاذبيَّةً من رؤيتها وهي تنقر على الآلة الكاتبة.

كان يبتسم راضيًا وهو يقف على الجهد الذي أبذله لأنحشرَ في لباسٍ غريبِ الشكل، وأنا أشقى لإدخال كتفيَّ، أو ثنْي قدميَّ، أو ليّ ردفيَّ.

في ماء الإناء، وقد برد تمامًا، ينعكس ضوءُ مصباح السقف. وحين يطلع النهار، يكون اللباسُ على الأرض مرميًّا متهالكًا مثل خِرقةٍ أبلاها الاستعمال.

* * *

كما هو متوقَّعٌ، صرتُ عصبيَّةً بسبب تكرار حياتي اليوميَّة معه في مكانٍ لا صوت فيه. يقهرني حبسُ صوتي أكثر ممَّا يقهرني حبس جسدي. كما قال هو نفسه: أن يُحرم الإنسان من صوته، يُضاهي أن يختلّ كيانُه كلّه.

بين الفينة والأخرى، يسألني:

- هل تريدين إخراج صوتك؟

أهزّ رأسي نافيةً بشدَّةٍ، لأنَّني أدري أنَّ موافقتي على كلامه لن تؤدِّي إلى أيّ نتيجة، أمَّا هزُّ رأسي بشدَّةٍ، فهو تمرينٌ يُريح أعصابي.

في الآونة الأخيرة، بتُّ أشعر بأنَّ جسدي يبتعد عن قلبي. كأنَّما رأسي وذراعاي، ونهداي، وجذعي وقدماي تطفو في مكانٍ ما لن تبلغه يداي. لم أكن أستطيع إلَّا أن أتأمَّله وهو يعبث به. وهذا راجعٌ كذلك إلى أنَّني فقدتُ صوتي. لقد اختفى صوتي الذي كان يربط بدني إلى قلبي، وما عدت أستطيع أن أضع كلماتٍ على أحاسيسي أو إرادتي. كياني يتداعى بسرعةٍ. أَمِن الممكن الهروب من هنا؟ يعرض لي أن أفكِّر في ذلك. أستطيع، في اللحظة التي يُفتح فيها الباب، أن أدفعه وأنزل السلّم ركضًا. أو أن أضرب على الأرض بآلةٍ كاتبة كي أنبِّه الطالبات في حُجرة الدروس. أو أن أفكِّك آلةً وأرمي بِقِطَعِها عبر المنْوَر... لكنَّها جميعًا حِيَلٌ لا يعوّلُ

عليها. ثم، حتى لو إنَّني عدتُ إلى العالم الخارجيّ، كيف لي أن أُلَملِم وأرتِّب الأجزاء المتساقطة من جسدي؟

بينما يدرِّسُ هو في الفصل، أُلقي أنا نظرةً إلى العالم الخارجيّ من خلف ميناء الساعة: حديقةُ الكنيسة معتنًى بها على أحسن وجهٍ، ثمَّة دائمًا موضعٌ تينع فيه الزهور. الكثير من الناس يتجمَّعون هنا. يثرثرون في ظلال الأشجار، أو يجلسون على مقعدٍ يقرأون كتابًا، والأطفال يلعبون البدمنتون، وطالبات دروس الآلة الكاتبة يخترقن صفوفهم بالدرَّاجات. ومن حينٍ إلى آخر، يريد أحدهم أن يعرف الوقت، فيرفع رأسه إلى الساعة، لكنْ بالطبع لا أحد ينتبه إلى وجودي.

وإن أصختُ السمع، تتناهى إليَّ أصواتُهم، لكنَّني لا أتبيَّنُ ما يقولونه. في البداية، كنت أظنُّ أنَّ الأصوات لا تصلُ إليَّ بسبب بُعد المسافة. لكنْ في الواقع، لم يكن ذلك السببَ. وإنَّما السبب ببساطةٍ هو أنَّني لم أكن أفهم كلماتهم.

وذات يومٍ، لمحته في الحديقة يثرثر ضاحكًا مع طالباته. من يتأمَّله من بعيدٍ يراهُ رشيقًا، مثقَّفًا، ومميَّزًا. تبدو الطالباتُ المحيطاتُ به واقعاتٍ في سحره. وحدي أعرفُ كيف يصير في أعلى البرج.

ـ مهما نازعَتكُنَّ الرغبةُ إلى النظر في المفاتيح، لا تفْعلْنَ. هو ذا سرُّ الصنعة: نلتمسُ المفاتيح بأصابعنا وليس بأعيُننا.

كان يبدو أنَّه يتحدَّث في فنّ الكتابة على الآلة. الريحُ تحملُ كلامَه، فتوصله إليَّ مباشرةً عبر فجوةِ ميناء الساعة.

ثم التفتت إليه طالبةٌ، شعرها قصير وفي أذنيْها يتأرجحُ قرطان ببطءٍ، وقالت:

ـ ...

لقد سمعتُ بالفعل صوتَها، لكنَّني لم أفهم ما تقولُه. انتابني الانطباع بأنَّ كلماتها، إذ تحملُها الريح، تتجاوز مدى البرج، محلِّقةً صوب السماء.

ـ من الجيِّد إغماضُ العينيْن حتى تحسّ أطرافُ الأصابع بالآلة على نحوٍ أفضل. هكذا، لن تتذكَّر الأصابعُ ملمسَ المفاتيح فحسب، وإنَّما أيضًا شكل الرافعة وسُمك الشريط، ومحيط الآلة بأكمله.

كان يكرِّر الكلام نفسَه الذي كرَّره عليَّ أيّامَ كان يدرِّسني. التقطتُ حديثَه كلمةً كلمة.

ـ ...

ـ ...

ـ ...

ـ ...

فتحت عدَّةُ فتياتٍ أفواههنَّ، واحدةً بعد أخرى. لكنَّني لم أفهم كلمةً ممَّا يقلن.

قال:

ـ من الآن فصاعدًا، كلَّما نظرتْ إحداكنَّ إلى المفاتيح، سأعاقبها.

- ....

كما توقَّعتُ، حدث الأمرُ نفسه. لم أستطع سماع كلام الطالبة.

- حسنًا، جيِّد.

صفَّق بيديْه، فتفرَّقن من فورهنَّ، وهنَّ يطلقن صوتًا بين الصياح والضحك.

ومذّاك، اتَّضحت لي الأمور: ما عدتُ أفهم إلَّا كلامه. كلمات العالم الخارجيّ تصلني كصرير نشازٍ من آلةٍ موسيقيَّةٍ غير مُدَوزنة. وفي هذا، الدليلُ على أنَّ وجودي دخل في صيرورة ضمورٍ. في هذا الجزء من الساعة، كلّ الأشياء التي ليست ضروريَّة، سرعانَ ما تختفي. لذا، لا بدَّ لي أنا أيضًا أن أنتهي، ذات يومٍ، مدفونةً في هذا المكان.

وهَبْ أنِّي فررتُ الآن، ألَم يفُت الأوانُ؟! إذ يبدو أنَّ ضموري قد بلغ مرحلةً متقدِّمةً. إن خطوتُ خطوةً خارج هذا المكان، ربَّما يتهشَّم جسدي ألفَ قطعةٍ.

الآن، لا شيء يُبقيني إلَّا هو. لا شيء غير أصابعه. ولذلك تراني هذا المساء أيضًا أترقَّبُ وقع خطواته...

* * *

منذ ليلةِ مُلاحقي الذكريات، لم تطأ قدماي الغرفةَ السرِّيَّة.

كالعادة، حين أحمل إليه الطعام أو الماء، أراهُ، لكنَّني لا أُبادله إلَّا كلمتيْن أو ثلاثًا، واقفةً على درجات السلّم العليا أو الدنيا.

أفكِّر في كلّ الذرائع الممكنة لكي أنزل عندَه، لكنَّني أغلق المخبأ في نهاية المطاف، ولما أتفوّه بكلمة.

يبدو ر مهزوزًا بما خلَّفته فيه زيارةُ مُلاحقي الذكريات من صدمة، فوجهه لا تضيئُه إلَّا ابتسامةٌ شاحبة، وكثيرًا ما يترك طعامه من غير أن يمسّه. ربَّما لشدَّةِ صدمتي تلك الليلة، لم يجد هو الفرصة لينفِّس عن قلقه. ألمٌ حادٌّ من جرحٍ متقيِّح. حين أهمّ بإغلاق المخبأ، أوقف حركتي برهةً، لأتأمَّل عبر اللوح الخشبيّ ما يجري بالداخل،

ممنِّيةً النفسَ بأنَّه قد يقول لي شيئًا قبل أن أنصرف، لكنَّه يكون إمَّا جالسًا في صمتٍ إلى مكتبه موليًا ظهرَه إليَّ، وإمَّا ممدَّدًا على سريره. يقهرني التفكير في انعدام فرصة أن يفتح القفل من الداخل، ويرفع البوَّابة، ويخرج من تحت البساط ليلحق بي هنا. بالطبع، كان كلّ ذلك بسبب وضعيَّته الحاليَّة، لكنَّني لا أستطيع أن أطرد من ذهني فكرةَ أنَّه ربَّما يتجنَّبُني لأنَّه لا يريد النظر إليَّ.

كلَّما استعدتُ تفاصيل الليلة المعلومة، إلَّا وصارت أبعَد عن الواقع. الطعام المتنوِّع، الكعكة، كومة الأواني، الهدايا، النبيذ، الأحذية الثقيلة، المفكّرة المحروقة، طرف البساط المقلوب، الأشباح الثلاثة، الشاحنة المغطَّاة، الدموع... لا أستطيع التصديق بأنَّ كلّ تلك الأحداث نزلت عليّ في ليلةٍ واحدة.

بسبب كلّ تلك الأشياء تحديدًا، لم أجد مفرًّا من الليلة المرعبة إلَّا أن أشاركه الفِراش. لكي نحميَ نفسيْنا، لُذنا بآخر موضعٍ ما يزال بوسعنا أن نلوذ به.

كذلك كنتُ أقول مواسيةً نفسي.

* * *

جمعت الأوراق التي كتبتها ذاك اليوم، ثم تناولتُ مكبِّر الصوت المخبَّأ خلف القواميس، وألصقتُه بأذني. في البداية، لم أسمع شيئًا. لكنْ، بعد طول المثابرة في إرخاء أذني، انتهى به المطاف إلى تمييز الأصوات المكتومة في الغرفة السرِّيَّة.

أوَّل ما ميَّزتُه ضجيج ماءٍ، وسعلةً خفيفة، فحفيفَ ثوبٍ، ثم هديرَ المروحة. أخذتُ القمع في يدي بقوَّة، وضغطته على أذني بشدَّة. كان يغتسل. مساءً، حين حملت له طقم الاغتسال المعتاد: الحوض، وجرَّة الماء الساخن، وفرشةً من بلاستيك، ومنشفةً، قال لي:

ـ آه.. اليومَ يومُ الحمَّام. لقد نسيت.

ـ ليس حمَّامًا بالمعنى الفعليّ للكلمة. اعذرني.

صدمتُ قعرَ الحوض مع السلّم صدمةً خفيفةً.

قال لي وهو يحضن بين ذراعيْه طقم الاغتسال:

. لكنْ، إن كانت اليوميّات قد اختفت بالفعل، فإنّها لمعجزةٌ أن تتذكَّري كلّ المواعيد المقرَّرة.

كنت أسمع صوتَ الماءِ على فتراتٍ متقطِّعة. بالطبع، لم يسبق لي أن رأيته يغتسل، لكنْ حين أُمسك القِمْع على هذا النحو، يتهيَّأ لي أنَّ حركاته تصلني عبر أذني.

فرَش أوَّلًا فرشة البلاستيك كيلا يُبلِّل الأرض، وقرفص عليها عاريًا. ملابسه التي نزعها موضوعةٌ على السرير. يبلِّل المنشفة قبل أن يبردَ الماءُ في الحوض، وبسرعةٍ، يمسح بها على عنقه وظهره، وكتفيْه وجذعه وذراعيْه. وحين تبدأ المنشفة تجفُّ، يبلِّلها مجدَّدًا في الماء الساخن. بشرته التي لا يلامسها الهواءُ، شاحبةٌ، وإن بالغ في فركها تترك المنشفةُ عليها آثارًا. يعمل صامتًا، ووجهه خالٍ من كلّ تعبير. رذاذ ماءٍ يبرق على الفرشة البلاستيكيَّة...

أستطيع أن أتبع، بلا خطأ، محيطَ جسده. أستطيع أن أتمثَّل طريقةَ تحرُّكِ كلِّ عضلةٍ من عضلاته، والزاوية التي تتَّخذها مفاصلُه، وأرى شبكةَ عروقه الدمويَّة شفَّافةً. وبقدر ما ظلَّت الأصواتُ تنتقل من طبلة أذني إلى ذاكرتي، صار الإحساسُ بها واضحًا حتى وإن لم أضع القِمعَ على أذني.

عَبْر فُرجة الستائر، برزت النجومُ في حدثٍ نادر. وكان الليل قد نشر طبقةً من عتمةٍ على الثلج الذي يغطِّي المدينة.

بين الفينة والأخرى، تهزّ الريحُ النوافذ. ففككت خرطوم المطّاط. وصار القِمعُ في راحتي دافئًا. أوراقُ المخطوط منظَّمةٌ وموضوعةٌ على المكتب تحت ضاغطة الأوراق. تبدو لي بمثابة التذكرة الوحيدة الصالحة لكي أنزل إلى الغرفة السرِّيَّة.

سمعت سيلَ الماءِ الساخنِ الرفيعَ والطويل، وهو ينسابُ في الحوض.

١٩

مرَّت أسابيعُ طويلةٌ منذ أمسية عيد ميلاد الجدّ. وأثناء ذلك، وقعت بعض الحوادث، لكنْ لا حادث منها كان ذا شأنٍ، قياسًا إلى ما حدث مع مُلاحقي الذكريات.

أوَّلُ حادثٍ وقع حين صادفتُ، بينما أتنزَّه، فلّاحةً عجوزًا. وكانت قد فرشت حصيرًا من نبات الأسل، لتبيع عليه خضراواتها. لم تكن تعرض الشيء الكثير، لكنْ بما أنَّ السعر الذي تطلبه كان أدنى من سعر السوق، فقد ابتهجتُ، واشتريت منها حبَّة كرنب، وشيئًا من بقلة الماش، وفلفلًا، بقدر ما كنت أستطيع أن أحملَ. لكنْ حين مددت لها النقودَ، أدنت وجهها منِّي بغتةً، ووشوشت في أذني:

ـ ألا تعرفين منزلًا آمنًا، يمكن الاختباء فيه؟

كدت أن أُسقط الخُضارَ من الدهشة. وإذ حسبتُ أنَّني لم أسمع جيِّدًا، فقد ردَّدتُ «إه؟»

. أبحث عمَّن يخبِّئني.

قالت ذلك بالفعل، من غير أن تنظر إليَّ وهي تدسّ النقود في المحفظة المعلَّقة على حزامها.

نظرتُ حواليّ، ولم أرَ أحدًا غير الأطفال الذين كانوا يلعبون في الحديقة العموميَّة في الجانب الآخر.

سألتها وأنا أتظاهر بأنَّني أجادلها في البضاعة:

. هل تلاحقك شرطة الذاكرة؟

لزمت الجدَّةُ الصمت. لا بدَّ من أنّها لا تريد الإفصاح أكثر. تفحَّصتها مجدَّدًا بتمعّنٍ. كانت تبدو متينةً، لكنَّ ما تلبسه كان مزريًا. سروالٌ باهتٌ فُصِّلٍ من كيمونو قديم، وشالٌ ملبَّدٌ وضعته على عنقها، وحذاءٌ رياضيٌّ مثقوبٌ من رأسه. وقد تجمَّع الرَّمَصُ

عند جوانب عينيْها، وتورَّمت كفَّاها من لسع الصقيع. عبثًا أمعنت التفرُّس فيها، وجهها لا يشي بشيء.

لكنْ لِمَ تطلب طلبًا بهذه الدرجة من الحساسيَّة، من غريبةٍ لا تعرفها البتَّة؟ اضطرب ذهني. ما الذي ستفعله إن أبلغتُ بها شرطة الذاكرة؟ ألهذه الدرجة هي في مأزقٍ؟ في هذه الحال، حتى إن كان مستحيلًا توفير ملجأٍ لها، فإنَّني أرغب في أن أساعدها بشيء. لكنْ، لا ينبغي أن نستبعد فرضيَّة فخٍّ نصبته شرطةُ الذاكرة. ربَّما تقصَّدَت استثارة الشفقة لكي تكشف سرَّ المخابئ بين صفوف المشترين. إنَّها طريقةٌ حقيرةٌ تناسبهم تمامًا. كلَّا، ربَّما كانت هذه الجدَّة على علمٍ بأنَّ في بيتي مخبأً. لذا، هي تتشبَّث بي سعيًا إلى أن تستفيد منه هي أيضًا... لكنَّ هذا الاحتمال بعيدٌ. لا شكَّ في أنَّ سرَّنا لم يطَّلع عليه أحدٌ، ما دامت شرطة الذاكرة نفسُها لم تنتبه إلى المخبأ.

عبرت ذهني في تلك اللحظة كلُّ الخواطر، لكنْ في نهاية المطاف لم ينطق فمي إلَّا بهذه العبارة الموجزة:

ـ لا أرى ما أستطيع مساعدتك به.

ضممت كيس الخضراوات إلى صدري. ولم تزد الجدَّةُ كلمة. من غير أن تتبدَّل ملامح وجهها، انصرفتْ إلى تنظيم خضراواتها، على وقع رنين النقود في الكيس المعلَّق في حزامها.

قلت قبل أن أحثّ الخطى:

ـ عذرًا.

بعد ذلك، صار قلبي يوجعني كلَّما تذكَّرت يديْها المتورِّمتيْن من أثر الصقيع. لكنْ في مثل هذه الحالات، لا يسعنا إلَّا أن نقول: ما باليد حيلة. لأنَّني إن تصرَّفت بغير حذرٍ، فقد أعرِّض ر للخطر. وعلى الرَّغم من كلّ شيء، ولأنَّني ظللتُ مشغولةً بالجدَّة، مهمومةً بحالها، فقد واظبت على المرور من المكان نفسه، كلّ يومٍ أثناء

نزهتي. وكان يحدث أن أشتري منها شيئًا، كما كان يحدث أن أواصل طريقي من أمامها صامتةً.

واصلت هي، على عادتها، عرض خضراواتها ببساطة، من غير أن تُبديَ أيّ رد فعلٍ لمرآيَ، ولا عادت إلى الحديث عن الملجأ. كان يبدو كأنَّما انشغلت بمصيبتها عن شخصي.

بعد ذلك بأسبوع، اختفت هيأة الجدَّة فجأةً. ألم تعد تملك خضرًا تبيعُها؟ أم أنَّها قد غيَّرت موضعها؟ هل وجدت ملجأً في مكانٍ ما؟ هل وقع عليها مُلاحقو الذكريات؟ لم أكن أملك سبيلًا للتحقُّق من ذلك.

أمَّا الحادث الثاني، فهو أنّ بائع القبّعات ـ سابقًا، وزوجته اللذيْن يسكنان المنزل المقابل، قد قضيا ليلةً عندي. صبغا جدران بيتهما، فطلبا منّي أن أعيرهما غرفةً يقضيان فيها الليلة، ريثما تزول رائحة الطِّلاء.

وبالطبع، آويتهما في الحُجرة اليابانيَّة بالطابق السفليّ، في أبعد نقطةٍ عن الغرفة السرِّيَّة. على الرَّغم من أنّ استضافتهما تفرض عليّ أنا و ر البقاء حذريْن طيلة يومٍ، إلَّا أنّ ذلك أهون من الرفض الذي قد يوقظ الشكوك.

قال الزوج:

ـ يلزم يومٌ أو يومان على الأقلّ ليجفّ الطِّلاء، ولا نستطيع أن ننام بنوافذ مفتوحةٍ في هذا البرد. نأسفُ على إزعاجك.

أجبتهم مصطنعةً أشدّ ابتسامةٍ ودودٍ:

ـ على الرحب والسعة، البيتُ بيتكما. ثمَّة الكثير من الحُجرات الفارغة في المنزل.

يومها استيقظت باكرًا، وصنعت الكثير من السندويتشات، وأنزلتها إلى الغرفة السرِّيَّة قبل مجيئهما.

قلت له:

ـ اليوم، حاوِلْ أن تقسِّم هذا الطعام على وجباتك الثلاث.

وأجابني موافقًا بهزَّةٍ من رأسه.

هو أيضًا كان متوتِّرًا بعض الشيء.

ـ وانتبه، ألَّا تُصدر ضجيجًا وأنت تتحرَّك في الغرفة. واحذر من أن تصبَّ ماءً في المرحاض.

كرَّرت وصاياي حتى عطشتُ، قبل أن أُغلق بعنايةٍ الغرفةَ التي لا يمكنني أن أفتحها قبل الغد.

لم يكن صانع القبَّعات وزوجته، وهما شخصان بسيطان وصريحان، من النوع الذي يجيل عينيْه في كلِّ مكانٍ، أو يطرح أسئلةً تخصّ حياة المرء الشخصيَّة. قضت المرأة يومها تُحيك مغلقةً

على نفسها الغرفة التقليديَّة، أمّا الرجل، فقد قضى يومه في العمل، وحين عادَ تعشَّينا ثلاثتُنا، وبعد أن شاهدنا التلفاز ونحن نثرثر، انصرفا إلى النوم بعد التاسعة بقليل.

أثناء ذلك، ظلَّت أعصابي مشدودةً باتِّجاه الطابق. أدنى ضجيجٍ، بما في ذلك هدير البحر، أو أبواق السيَّارات في الشارع، أو عويل الريح، أي بالجملةِ كلّ صوتٍ لا علاقة له بـ ر، كان يُفزعني، فأتحسَّس جانبهما. لكنْ لم يكن يبدو عليهما أنَّهما يشكَّان في شيء. لا ريب في أنَّهما كانا أبعد شيءٍ عن الظنِّ في أنَّ ثمَّة شخصًا مختبئًا في ملجأٍ، في الطابق، على مقربةٍ منهما. فأنا نفسي كان يتهيَّأ لي أحيانًا أنَّ الغرفة السرِّيَّة قد تكون مجرَّد وهمٍ، ثمرة خيالي.

في اليوم التالي، وقد جفَّ الطِّلاء، عادا إلى بيتهما، وقد أهدياني، على سبيل الشكر، كيس طحين، وعلبة سردين بالزيت ومظلَّةً صلبةً صناعةً يدويَّة.

ثم الحادث الثالث، إن جاز لي تسميته حادثًا: كان عليَّ الاعتناء بالكلب المهجور، كلب الجيران من الجانب الشرقيّ.

ففي اليوم التالي، عادت شرطة الذاكرة في شاحنةٍ لنقل متاع العائلة كلّه؛ لكنَّهم، لسبب أجهله، تركوا الكلب. ظللتُ أقدِّم له الطعام أو الحليب عبر السياج، وأنا أراقب ما يجري، وحين تأكَّد لي بأن لا أحد يهتمّ لأمره، راجعتُ رئيس الحيّ لأخذ موافقته الشكليَّة، ثم كفلت الحيوانَ.

طلبت عونَ الجدّ في نقلِ وِجاره، ودقِّ إسفينٍ أربط إليه سلسلته. كما حملت وعاءه المصنوعَ من الألمنيوم الصقيل، والملقَى في الثلج. على وِجاره، كُتب بقلم اللّبد «ضون»، فقرَّرتُ أنا أيضًا أن أُناديه ضون. هل يُقصد باسمه ضون كيخوته أم ضون جوان(10) ؟ لا أدري. لكنَّه كان كلبًا وديعًا ومطيعًا. وقد ألِفَني وألِفَ الجدَّ فورًا. كان كلبًا هجينًا مرقَّطًا بالبُنّيِّ، طرفُ أذنه اليسرى مثنيٌّ قليلًا. وممَّا يدعو إلى العجب أنَّه كان يحبُّ السمك الأبيض ولعق حلقات

سلسلته. وانضافت إلى جدولي اليوميّ نزهةٌ في ساعات اليوم الأشدّ حرارةً. وبما أنَّ الطقس مساءً يكون صقيعًا، فقد وضعتُ له عند جانبٍ من المدخلِ غطاءً. أقول لنفسي، سوف أعطي ضون كلّ الحبِّ الذي أقدر عليه، بدلًا من الزوجيْن اللّذين كانا سيِّديْه، والولد الذي ألجأهُ، وآل إنوي وقطّهم ميزوري.

* * *

وبعدما مضت عليَّ أسابيعُ من غير حادثٍ يُذكر، حدث اختفاءٌ جديد.

ظننتُني قد اعتدت الاختفاءات، لكن هذه المرَّة لم يكن الأمر يسيرًا عليَّ. لقد اختفت الروايات.

* * *

كالعادة، بدأ الاختفاء صباحًا، وسار تدريجيًّا. خلال فترة الصباح، لم يشهد مظهرُ المدينة تغييرًا ملحوظًا.

كنت في الشارع أنظر حواليَّ، حين بادرني صانع القبّعات. سابقًا بالكلام:

. في بيتنا، ليست ثمَّة روايةٌ واحدة. لذا، ليس الوضع علينا بالشاقّ. أمّا بالنسبة إليكِ أنتِ، فلا بدَّ من أنَّه فظيع. لأنَّكِ تكتبين روايات. إن احتجتني في أيِّ خدمةٍ فلا تتردَّدي، لأنَّني أعرف أنَّ الكتب ثقيلة.

لم أستطع إلَّا أن أجيبه بصوتٍ واهن:

. آه، شكرًا!

بالطبع، اعترض ر اعتراضًا صارمًا على اختفاء الروايات.

قال لي:

. ينبغي أن تأتي إلى هنا بكلِّ الكتب الموجودة في المنزل. وبالطبع، لا ينبغي أن تستثني مخطوطك.

قلت وأنا أهزّ رأسي:

. إن فعلت ذلك، امتلأت الغرفةُ بالكتب، ولن تجد لك موضعًا.

. لا أحتاج أكثر من موضعٍ لجسدي. إن أخفيت الكتب هنا، فلا خوفَ، لن يجدها أحد.

. نعم، لكنْ ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ ما الفائدة من حفظ كتبٍ اختفت أصلًا؟

ضغط بأصابعه على صدغيْه متنهِّدًا. هكذا الحالُ كلَّما طرقنا موضوع الاختفاءات، سدًى يحاول كلٌّ منَّا فهم كلمات الآخر، كلانا لا يتغيَّر قلبُه مقدارَ ذرَّةٍ. كلَّما تحدَّثنا أكثر تفاقم حزننا.

. لطالما كتبتِ رواياتٍ. لذا يسهلُ عليك أن تُدركي أنْ ليس من السهل تصنيفها في خانة الأشياء النافعة أو في خانة الأشياء غير النافعة.

ـ أجل، بالطبع. كان الأمر كذلك حتى أمس. لكنَّ اليوم، تغيَّر كلُّ شيء. «تدهورُ» قلبي يمضي متفاقمًا.

نطقت كلمة « تدهور» بحذرٍ، كأنَّما أقدِّم إليه كلمةً شديدة الهشاشة.

ـ إنَّ فقدان الروايات أمرٌ صعبٌ جدًّا بالنسبة إليَّ. أشعر كأنَّ الرباط المتينَ الذي يجمعنا، ينحلُّ.

كنت أحدِّقُ فيه.

ـ لا ينبغي أن تحرقي مخطوطك. سوف تواصلين الكتابة، وهكذا لن ينحلّ رباطنا.

ـ لكنَّ الأمرَ مستحيل، لقد اختفت الرواياتُ كما تعلم. حتى إنْ احتفظنا بالروايات أو المخطوطات، لن تكون إلَّا علبًا فارغةً.

باطنُها أجوف. سدًى سنحدِّق فيها، أو نصيخ إليها السمع، أو نتشمَّم رائحتها؛ لن تُخبرنا بأيِّ شيء. ماذا بوسعي أن أكتب؟

ـ لا تستعجلي. حاولي التذكُّر بهدوء. من أين انطلقنا، وكيف وجدنا الكلمات؟ وهكذا.

ـ لا أشعر بالثقة. حتى كلمة «رواية» قد صار يشقُّ عليّ نطقُها. وهذا الدليلُ على أنَّ الاختفاء بدأ يستقرّ. قريبًا سوف أنسى كلّ شيء، ويصير التذكُّرُ مستحيلًا.

خفضت رأسي، وخلَّلتُ بأصابعي شعري. مال عليَّ لينظر إليَّ من أسفل، واضعًا يديْه على ركبتيَّ.

ـ كلَّا، ستكون الأمور على ما يُرام. لا شكّ في أنَّكِ تظنِّين أنَّ الذكرى تنمحي عقب كلّ اختفاء، لكنَّ الأمر ليس كذلك. إنَّما هي فقط تطفو على مياهٍ لا يبلُغها النورُ. لذا، يكفي أن يجرُؤ المرءُ

على الغوص بيده في القعر، ليلمس شيئًا ما، ثم يرفعه إلى النور. لا أطيق أن أتفرَّج، مكتوف اليديْن، على هلاك قلبك.

أمسك يديّ وجعل يدفِّئ كلّ إصبعٍ من أصابعهما.

- إن واصلتُ كتابة الروايات، هل أستطيع أن أحميَ قلبي؟

- بالطبع.

هزَّ رأسَه. وأصابَ تنفُّسُه أصابعي.

* * *

خلال المساء، تسارعت وتيرةُ الاختفاء فجأةً. شبَّت النارُ في المكتبة البلديّة، وأُحرقت كتب الساكنة في الحدائق العموميَّة والحقولِ والأراضي القفر. عبر نافذتي، كنت أتابع النارَ والدخانَ يرتفعان من كلِّ مكانٍ في الجزيرة، فتمتصّهما الغيومُ التي تلبِّد السماءَ. وغدا الثلجُ، وقد امتصّ السخامَ، رماديًّا.

وقع اختياري، في النهاية، على نحو عشرة كتبٍ، أخفيتُها والمخطوطَ الذي أشتغل عليه، عند ر. وما تبقّى من كتبٍ، حمَّلتُه أنا والجدّ على عربةٍ يدويَّة، وسُقناهُ إلى موضعٍ نحرقه فيه. لأنَّ إخفاءَ كلّ الكتب كان مستحيلًا من الناحية الفيزيائيَّة، ثم إنَّني كنت لأوقظ الريبة إن لم أفعل شيئًا عقبَ هذا الاختفاء، وأنا المعروفة بأنَّني أكتب الروايات.

كان صعبًا فرزُ ما ينبغي أن أحتفظ به، وما يجب أن أتخلَّص منه. عبثًا كنت أقلِّبُ الكتاب بين يديّ، فقد فقدتُ أصلًا كلّ صلةٍ بمحتواه. لكنْ، بما أنَّ شرطة الذاكرة قد تأتي لتنبش هنا، فيجدر بي أن أُسرع. لم أجد من طريقةٍ أميِّز بها بين الكتب، إلَّا أن أحتفظ بتلك التي أهدَنيها أناسٌ أُعزُّهم، أو تلك التي لها أغلفةٌ مصوَّرةٌ جميلة.

وفي الخامسة مساءً، الساعة التي كانت الشمس فيها قد جنحت إلى الغروب، انطلقنا أنا والجدّ نجرُّ عربتنا.

دنا ضون من قدميَّ كأنَّما يقول لي: «ألا تريدين أن تأخذيني معك؟»

أجلستُه على البطَّانيَّة عند مدخل الباب، قائلةً:

ـ لسنا ذاهبين في نُزهة. لدينا عملٌ هامٌّ نقوم به. أعتمد عليك في حراسة المنزل، فهمت؟

وفي طريقنا، صادفنا أُناسًا كُثُرًا يحملون أكياس ورقٍ ثقيلة، أو رزمًا. كان الصقيع يملأ بعض المواضع على الطريق، كما أنَّ الثلج يتراكم في مواضع أخرى بحيث يصعبُ جرّ العربة فيها. وكانت الكتب المكدَّسة تنهار، لكنَّنا لم نكن نأبه لذلك، لأنَّنا في جميع الأحوال، ماضون بها إلى المحرقة.

قال لي الجدّ:

ـ إن تعبتِ، فلا تتردَّدي في الاستراحة. كما أنَّ بوسعك الصعود إلى العربة إن شئتِ.

أجبته:

ـ شكرًا. أنا بخير، لا تقلق.

سرنا مسارَ الباص، وحاذيْنا السوق، ثم حين بلغنا الحديقةَ العموميَّة وسط المدينة، كانت تملأ المدينة أنوارٌ وحرارةٌ لم نشهد لها من قبل مثيلًا. ركامٌ هائلٌ من الكتب يحترق في لهبٍ عظيمٍ وسط الحديقة، مطلقًا شراراتٍ في السماء الليليَّة. وقد احتلَق حوله عددٌ من الناس. وخلَل حُزم الأشجار، كنّا نلمح أشباحَ رجال الشرطة.

غمغم الجدُّ مناجيًا نفسه:

ـ هذا... حقًّا... ليس بالشيء البسيط...

كانت النيران، مثل كائنٍ حيٍّ هائلٍ، ترتفع مترنِّحةً إلى السماء، أعلى من أعمدة الأنوار وأسلاك الكهرباء. وحين تهبُّ الريح، ترتفع دفعةً واحدةً أوراقٌ متَّقدةٌ، وتتطاير في الهواء. ذاب الثلج في الأرجاء، وكلَّما خطا المرء خطوةً، غاصت قدمه في الوحل. ضوءٌ

برتقاليٌّ يغمر المزلَقة، والأرجوحة، وجدران المراحيض العموميَّة. أمّا القمر والنجوم فقد اختفت، كأنَّما بهت نورُها في وَهْج النيران. وحدها بقايا الكتب المحترقة تصبغُ السماءَ بالحُمرة.

بخدودٍ حمراء، كان الناسُ يرفعون أعينهم صامتين نحو المشهد الذي يجري أمامهم. كانت الشرارات تحوطهم من كلِّ جانبٍ، لكنَّهم لا يحاولون تجنُّبها، وإنَّما ظلُّوا ساكنين كأنَّما يحضرون مراسيم مهيبة.

وكان ركام الكتب أعلى منِّي قامةً. وفي أسفله، بعض الكتب لم تطلها بعدُ النيران، لكن لا يمكن قراءة عناوينها. ركَّزت نظري على كلِّ مجلَّدٍ منها محاولةً قراءة عنوانه، لكنْ حتى وإن تعرَّفت على روايةٍ منها، فلن يُحْدِث الأمر فرقًا.

كنت أظنُّ أنَّني إن لم أفارقها بعينيَّ حتى آخر لحظةٍ شاهدةٌ على اختفائها، فسيكون بمقدوري الاحتفاظ بشيءٍ ممَّا تحتويه صفحاتها.

كُتبٌ من كلّ نوعٍ: كتبٌ في علب، كتبٌ مجلَّدة، كتبٌ سميكة، كتبٌ صغيرة، كتبٌ تبدو وديعةً، وأخرى ذات هيئةٍ شرِّيرة... بعضها لصق بعض، تنتظر دورها في المحرقة.

وبين الفينة والأخرى، ينهار الركامُ في ضجيجٍ مكتوم، بينما تستعرّ النيران متضاعفة.

وفي تلك اللحظة، انفصلت امرأةٌ فجأةً عن حلقة المتفرِّجين، وارتقت مقعدًا، ثم أخذت تصرخ بكلامٍ ما.

دُهشتُ أنا والجدّ، وتبادلنا النظرات. وسمعها أناسٌ حولنا، فاستداروا صوبها.

كانت تصرخ عاليًا، حتى إنَّ لا أحد كان يفهم ما تقوله. كانت هائجةً، تهزّ يديْها، ورذاذُها يتطاير، ولا يعرف الناظرُ إلى ملامح وجهها أهيَ غاضبةٌ، أم تبكي. وكانت ترتدي معطفًا مزريًا وسروالًا

بمربَّعاتٍ، شعرُها الطويلُ مجدول، وتعتمرُ شيئًا غريبًا. شيئًا مصنوعًا من نسيجٍ رخوٍ، وقد وضعتهُ على رأسها مائلًا قليلًا. وكلَّما اهتزّ جسدُها بعنفٍ، تساءلتُ هل سيسقطُ الشيءُ من رأسِها.

همستُ في أذن الجدّ:

ـ هل هي مجنونة؟

قال ضامًّا ذراعيْه:

ـ لا أدري حقًّا، أظنُّ أنَّها تطلب إطفاء النار.

ـ لِمَ؟

ـ تريد منع اختفاء الروايات.

ـ طيِّب، هذا يعني أنَّها...

. إنَّ المسكينة عاجزةٌ عن فقدان ذكرياتها.

صيحاتها تتخذ شيئًا فشيئًا هيئة صرخات ألم. لكنْ بالطبع، لم يبادر أحدٌ إلى إخماد الحريق الهائل. اكتفى الناس بالنظر إليها مشفقين.

. إن استمرَّت في فعل هذا، سوف تُعتقل. ينبغي أن تهرب. علينا أن نفعل شيئًا.

أردت الاقتراب من المقعد، لكنّ الجدّ منعني فورًا.

. لقد فات الأوان يا آنسة.

برز من بين الأشجار ثلاثةٌ من رجال الشرطة، وسحبوها لينزلوها من فوق المقعد. قاومت متشبِّثةً بالمقعد، لكنْ بلا فائدة. سقطَ في الوحلِ الشيءُ الغريب الذي كانت تعتمره.

. «لا أحد سيمحو ذكرى الروايات».

كانت تلك كلماتها الوحيدة التي سمعتها بوضوحٍ، حين اقتادها رجال الشرطة.

تنهَّد الناسُ كأنَّ المشهدَ شاقٌّ بالنسبة إليهم، ثم عادوا إلى النظر قدَّامهم. وكانت نظرتي أنا مسمَّرةً في الشيء الذي أسقطَته على الأرض. الشيء ملقًى على الأرض، ملطَّخًا بالوحل، رخوًا أكثر ممَّا كان حين كانت تضعه على رأسها. وما انفكّ يتردَّد في أذني صوتها:

. لا أحد.

. «لا أحد سيمحو ذكرى الروايات».

ثم فجأةً تذكَّرتُ، فقلتُ لنفسي:

ـ بلى، إنّها قبّعةٌ. قبّعةٌ مثل تلك التي كان يصنعها، فيما مضى، جارنا في المنزل المقابل. لقد اختفت القبّعات منذ سنواتٍ عديدة. كانت توضع على الرأس، مثلما وضعتها هي، أليس كذلك؟

رفعت عينيّ إلى الجدّ، لكنّه كان يبدو حائرًا فقط.

وفي تلك اللحظة، خرج من حلقة المتفرّجين شخصٌ، فحمل القبّعة من الوحل، ثم ألقى بها إلى النار من غير أن ينبس بكلمة. طارت القبّعة في الهواء لافّةً حول نفسها، ثم سقطت في مكانٍ لا يُبلغ.

ـ آنسة، سيحين دورنا بعد قليل، أتسمحين؟

أجبته وأنا أنظر إلى الموضع الذي سقطت فيه القبّعة:
ـ أنت محقّ.

أوقفنا العربة قرب النافورة، وحاولنا أن ندنو من النار، والكتبُ ملء أذرعنا. لكنّ الهواءَ الحارّ الذي كان يدور حولنا، كان يقذف إلينا بشراراتٍ تحرق سترتي وشعري، فما استطعت الاقتراب.

ـ الأمرُ خطير. أظنّ أنَّه يُستحسن أن تتراجعي يا آنستي، وتتركيني أتكلَّف بالأمر.

ـ كلَّا، لا بأس. على أيِّ حالٍ، لن نستطيع الاقتراب أكثر. سنُلقي بالكتب من هنا.

ألقيت إلى النار بكتابٍ؛ الكتاب المرسوم على غلافه هيئةٌ صفراء برتقاليَّة، على خلفيَّةٍ تركوازيَّة. رميته بكلِّ ما فيّ من قوَّة، لكنَّه لم يسقط في النيران، وإنَّما هوى عند قاعدة الركام. أمّا الكتاب الذي قذف به الجدّ، فقد سقط أعلى قليلًا في الركام. واكتفى الناس حولنا بالنظر إلينا، من غير أن يبادلونا كلمةً أو تعبيرًا.

واصلنا القذف بالكتب، واحدًا بعد آخر. وما عدنا ننظر في الأغلفة، ولا نتصفَّح الأوراق. كنَّا نُعيد الحركات نفسها تلقائيًّا، كأنَّما نريد أن نتخلَّص من مهمَّتنا. غير أنَّ ذلك لم يمنع من أن أشعر، كلَّما فارقت كتابًا، بصريرٍ في نفسي، كأنَّما ذاكرتي تنحفرُ أكثر فأكثر.

قلت:

. لم أكن أعرف أنَّ الكتب مناسِبةٌ جدًّا للاحتراق.

أجابني الجدّ من غير أن يوقف عمله:

. حجمها صغير، لكنَّها متخمةٌ بالأوراق.

. لكي تختفي كلّ الكلمات المكتوبة في هذه الصفحات، يلزم بلا ريب الكثير من الوقت.

. لا تقلقي. غدًا سيكون الأمر قد قُضي، من غير مشاكل.

أخرج الجدّ من جيبهِ خرقةً ومسح عن وجهه العرق والسخام.

وكنّا قد أحرقنا نصف الكتب تقريبًا، حين تركنا الحديقة العموميّة خلفنا، وعبرنا المدينة نجرُّ عربتنا. لقد كان العملُ في حرارة اللهيب متعبًا، لدرجة أنّنا قرّرنا البحث عن نارٍ أصغر.

كانت المدينة هادئةً. في الأجواء، إحساس خشونة الهواء الذي يطبع الاختفاءات، لكنْ من غير اضطراب. باستثناء شاحنات شرطة الذاكرة، لم تكن تجوب المدينة أيّ مركبةٍ. ومع أنَّ الحشدَ كان كبيرًا، إلّا أنَّ الناسَ لم يكونوا يتوقّفون ليثرثروا. على أنَّك أينما ولّيت وجهك لن تسمع إلّا صوتَ احتراقِ الكتب.

كنّا نمشي كما يحلو لنا، من غير أن ننتبه إلى طريقنا. وقد صارت العربة أسهل في الجرِّ، بعدما تخفّفتْ من نصف حمولتها. دُرنا شمالًا في شارع الترامواي، وعبرنا مرآب مبنى البلديّة، فبلغنا حيًّا سكنيًّا.

وكان الاختفاءُ ماضيًا في تقدُّمه، هنا وهناك، وسط الأراضي الخالية.

وبعد تمعُّنٍ، أدركنا أنَّ النيران التي كانت أصغر حجمًا من نار الحديقة العموميَّة، كانت مناسِبة جدًّا لندفِّئ فيها أيدينا.

وقبل أن نُريح أيدينا من العربة، لنحرق بعض الكتب، سألنا الحشدَ المجتمع:

. عذرًا على الإزعاج، هل تسمحون لنا بالانضمام إليكم؟

أجابنا معظم الناس:

. تفضَّلا، تفضَّلا. بوسعكما حتى أن تُلقيا بما لديكما هنا.

لكنَّنا رفضنا قائليْن:

. كلَّا، إن نحن ألقينا بكلِّ ما لدينا من كتبٍ، قد تستعرّ النار، فتمتدّ إلى المساكن. سوف نبحث عن مكانٍ آخر.

كنَّا نُلقي بالكتب إلى النار، ونجرّ العربة، ثم نتوقَّف مجدَّدًا حين نجد مكانًا آخر. وهكذا دواليك.

ثم ما لبث الليلُ أن استقرَّ وازداد الظلامُ حلكةً. وما كنتُ أحسب أنَّ عدد الروايات في الجزيرة يبلغ هذا الكمَّ، لكنَّ دخان الحرائق الصاعد في السماء، كان يُشير إلى أنَّها غير موشكةٍ أن تنخمد.

مررنا من أمام قاعة الأفراح، ومحطَّة البنزين، ومعمل التصبير، ومأوى العُزّاب، فبلغنا تقاطع طرق على شكل T ، يُحاذي البحر. وبدءًا من ذلك، سرنا على طول الشارع الساحليّ. على الرمل أيضًا، اجتمع أُناسٌ. والبحر الذي غشَّاه الظلامُ، يمتدُّ سواده حتى الأفق البعيد حيث يتَّحد بالسماء. ولم يكن قد بقي في العربة الكثيرُ من الكتب.

لمحنا التلّ. وعند منتصف ارتفاعه، كان حريقٌ مستعرّ.

قلت هامسةً:

ـ إنَّها المكتبة.

ـ نعم، يبدو ذلك.

وضع الشيخُ يده على جبينه كحاجز قبَّعةٍ، وضيَّق عينيْه، وأخذ ينظر مذهولًا.

وبما أنَّ الطريق إلى التلّ كانت ضيِّقةً ووعرةً، فقد قرَّرنا ترك العربة، وحمل ما بقي من كتبٍ في أيدينا.

في العادة، يسود الظلام هذه الأرجاء، حتى لا يدري الساري بها أين يطأ بقدمه، لكنَّ الحريقَ في المكتبة كان مهولًا لدرجة أنَّ الفضاء كان مضيئًا كأنَّ الوقتَ نهارٌ. عند منتصف الطريق، تمتدّ حديقة النباتات التي اختفت كلّ ورودها. الآن، فقط بعض

الأغصان تنتصب ببؤسٍ، هنا وهناك، عاريةً شبهَ ميتةٍ. وفوقها، تتطاير شراراتٌ كبَتَلاتٍ برَّاقة.

كانت المكتبة غارقةً في أتون النيران. وكانت تلك المرَّة الأولى التي أرى فيها شيئًا يحترق بهذه الروعة وهذا الجمال. أنستني روعةُ النور والدفءُ واللونُ، حزنيَ. بدا أنِّي أطرد سريعاً عن نفسي ما كان ر يحاول إقناعي به، وما كانت فتاة القبّعة تصرخ به.

. لم يكن من داعٍ لإحراق المكتبة بأكملها.

. كلَّا، إنَّ المكتبة لا تحوي غير الكتب؛ لذا، فالأسهلُ أن تُحرقَ كاملةً دُفعةً واحدة.

. وماذا سيكون مصير الخرائب؟

ـ مثل مصير حديقة الزهور، ستصير أرضًا قفرًا، وتسري الإشاعات بأنَّ شرطة الذاكرة تنوي أن تُقيم بها مقرًّا لها.

ذاك ما كنَّا نسمعه من الأصوات التي يُطلقها الحشدُ الذي تحلَّق حول النار من بعيد.

واصلنا ارتقاء التلّ حتى بلغنا مرصد الطيور. وهناك، ما عدنا نرى أحدًا. حين كنَّا نتجوَّل صباحًا، لم نكن نشعر حقًّا بما طال المرصدَ من الخراب، لكنْ بالليل صار جليًّا. تهشَّمت النوافذ، وغطَّى المكانَ نسيجُ العناكب، وانقلب الأثاث رأسًا على عقب. امتلأت الأرضيَّة بركامٍ من الأشياء غير القابلة للاستعمال، فناجينُ، أحقاقُ أقلامِ رصاصٍ، أغلفةٌ، ملفَّاتٌ ممزَّقة. عبرنا الحُجرةَ محاذرين ألَّا نتعثَّر، ووضعت الكتب أسفل النافذة التي كنت أراقب منها الطيور بواسطة منظار أبي.

قال الجدّ:

ـ انتبهي، قد تكون ثمَّة شظايا زجاج.

أومأتُ موافقةً قبل أن أستند إلى إطار النافذة.

كنتُ أرى المكتبةَ الواقعةَ أسفل المرصد خلف غطاءٍ نباتيٍّ كثيف. كان يُهيَّأ لي أنَّه يكفي أن أمدّ يدي لألمسها، وفي الآن نفسه، ينتابني الانطباع بأنَّني أرى مشهدًا على شاشة السينما. وحدها ألسنةُ اللهب تتماوج في الظلام.

بقيتُ هناك، ساكنةً، كاتمةً أنفاسي، كأنَّما أخشى أن أخدش المشهدَ الجميل الذي اجتمع فيه البحرُ والأشجار ونحن.

قلت:

ـ أذكر قول أحدهم: « حيثما يحرقون الكتب، سينتهي بهم المطاف إلى حرق البشر».

وضع الجَدّ يده على ذقنه، وقال متنهِّدًا بصوتٍ خافت:

ـ من قال هذا؟

. لا أذكر. على كلِّ حال، كان القائل شخصًا مهمًّا. لكنْ هل تظنّ حقًّا أنَّنا قد نصل إلى هذا؟

. هذا... ما لا أستطيع الإجابة عنه. إنَّ سؤالكِ صعب.

كان الجَدّ يتأمَّل السقف، وهو يداعب ذقنه ويرمش بجفنيْه.

. على أيِّ حالٍ، ما دام الأمر يتعلَّق بالاختفاءات، فلا مفرَّ منه. ليس كأن نحرق الكتب عشوائيًّا، بلا هدف. لو أنَّ هذا الشخص المهمّ كان يعرف أنَّ حرق الكتب قد حدث بعد اختفائها، لما اعترض. لا أعتقد أنَّ شيئًا فظيعًا مثل حرق البشر، قد يحدث هكذا بسهولة.

سألته:

. وماذا لو اختفى البشر؟

انتفض كأنَّما ضاق تنفُّسه، وتسارعت وتيرة رمشه.

ـ كالعادة يا آنسة، تفكِّرين في أشياء معقَّدةٍ جدًّا، أليس كذلك؟ حسنًا... ماذا أقول؟... بلى يا آنستي. لا علاقة للكائنات البشريَّة بالاختفاءات. إن تركناهم وشأنهم، فسوف يموتون. الأمرُ واضحٌ وصريح. يكفي أن نترك القدَر يفعل فعله.

وإذ اطمأنَّ، بدرجةٍ ما، إلى إجابته عن سؤالي، فقد طقطق مزلاجَ النافذة ذات الزجاج المهشَّم.

وأثناء ذلك، كانت المكتبة ما تزال تحترق. أخذتُ كتابًا من الكتب عند قدمي، وألقيت به من النافذة. انفتح على دفَّتيْه في السماء، ومرَّ من فوق الغطاء النباتيّ، ثم هوى بهدوءٍ وسط اللهب. أوراقٌ تحلِّق في الريح. كانت الكتب تبدو كأنَّما تنزل مرفرفةً، بدلًا من أن تهويَ في اللهب.

ثم قذف الجدّ بكتابٍ آخر. ولأنَّه كان أخفَّ وأقلّ سُمكًا، فقد اختفى متماوجًا بأوراقه في أناقةٍ أشدَّ.

وما زلنا نكرِّر الحركات نفسها بالدَّوْر. متناوليْن كلّ مجلَّدٍ بعنايةٍ.

وكلَّما دارت الريح هبَّت علينا ريحٌ ساخنة. ولأنَّنا قد أطلنا المسير على أرضٍ متجمِّدة، فقد تجمَّدت أطراف أصابعي، فقط خدَّايَ كانا ملتهبيْن.

سألته:

- بماذا شعرتَ حين اختفت العبَّارةُ؟

أجابني:

- حدث ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ، وقد نسيت.

- كيف لي أن أواصل العيش ابتداءً من الغد؟

كان الكتاب الذي تناولته بعد ذلك سميكًا ومتينًا، غلافه من ورق الكرافت.

أجابني وهو يحدِّق عبر النافذة إلى البعيد:

ـ لا تقلقي، ستمضي الأمور كما ينبغي لها أن تمضي. أنا أيضًا شعرت بنفس ما تشعرين به الآن. ليس من السهل على المرء أن يفقدَ عمله، لكنْ مع الوقت، يتمكَّن من أن يتكيَّف. سرعان ما يجد عملًا جديدًا يعوِّضه عن القديم، ثم ينتهي به المطافُ إلى نسيان ما كان يفعله من قبل.

ـ لكنَّني أفكِّر في أن أواصل الكتابةَ سرًّا.

أطلق تنهيدةً وهو يلتفت إليّ.

وبيديَّ الاثنتيْن قذفتُ، وسعَ قوَّتي، بالكتاب السميك عاليًا في السماء. أطلق ورق الكرافت صوتًا أشبه ما يكون بالنحيب.

ـ هل تظنّين أنَّكِ تستطيعين؟

ـ لا أدري. لكنَّ ر يقول إنَّ عليَّ أن أفعل، وإلَّا طال الخرابُ قلبي.

ـ هل قال لكِ هذا؟...

وضع يده مجدَّدًا على ذقنه، واستغرق في التفكير متغضّنَ الوجه:
ـ أنا أيضًا أفعل كما قال لي، أستمع كلّ يومٍ إلى صندوق الموسيقى، ولكنَّني لا ألمس في نفسي أيَّ تغيير. الذكريات ترحلُ، ولا تعود أبدًا؛ لا حياة في قلبي. ما زلتُ لا أسمع إلَّا سلسلةً من الأصوات الغريبة تنبعث من علبة.

ـ أعلم ألَّا فائدة، مهما فعلتُ. لكنَّ المخطوط الذي بدأت في كتابته، مخفيٌّ بعناية. وإنّ مواصلةَ كتابةِ روايةٍ بعد اختفائها أمرٌ

مقلقُ وخطير. لكنَّني لا أريد أن أخيِّب رجاء ر. إنَّ قلبًا يذوي أمرٌ هيِّنٌ، ليس حتى مؤلمًا، لكنْ يشقّ عليَّ أن أرى الحزنَ في وجه ر.

. وأنا أيضًا سوف أواصل الاستماع إلى صندوق الموسيقى. لأنَّها هديَّة عيد ميلادي، ولأنَّني مدينٌ له بها.

وبينما يقول الجدّ ذلك، مَسَحَ الرمادَ عن شعري.

. أرجوكِ لا تحاولي المستحيل. وإن احتجتِ إلى أيّ شيء، أطلبيه منِّي، متى شئتِ.

أجبته:

. شكرًا.

أخيرًا، ألقينا بآخر كتابٍ. وبدأ هيكل المكتبة يتداعى شيئًا فشيئًا. بين الفينة والأخرى، ينقضّ السقف أو جدارٌ من الجدران في صَخَبٍ. النيران تحرق قاعةَ المطالعة ومكتبَ استعارة الكتب.

تابعت مسارَ آخر الكتب، واضعةً يديّ على وجنتيّ. وفجأةً، بدا لي أنَّ للكتاب هيأةً أَلوفًا.

فيما مضى، كنت أجلس على ركبتيْ أبي أمام هذه النافذة، وكنت أرى شيئًا مشابهًا.

استنشقت نَفَسًا عميقًا. أحسست وجعًا خفيفًا، كأنَّما شرارةٌ من هذه الشرارات قد وقعت في أعماق قلبي الغويطة.

ـ طائر.

وتذكَّرت. الطيور أيضًا كانت تفرد جناحيْها هكذا في الفضاء لتحلِّق بعيدًا.

غير أنَّ هذه الذكرى أيضًا ما لبثتْ أن كنستْها النيرانُ، مخلِّفةً وراءها بساط الليل لا غير.

(10) نفضِّل كتابة دون جوان ودون كيخوته و«دون» بالعموم بالدال، لكن فضَّلنا كتابة اسم الكلب هنا بالضاد كي لا يختلط بكلمة دون.

٢٠

مثلما قال الجدّ، وجدت على الفور عملًا جديدًا. عرضني رئيس الحيّ على شركةٍ تجاريَّةٍ كان يعرف صاحبها.

ـ إنَّها شركةٌ صغيرةٌ تبيع التوابلَ بالجملة. المديرُ شخصٌ مرموق، ومكان العمل مناسبٌ جدًّا. يبدو أنَّه يبحث عن موظَّفةٍ تكتب على الآلة الكاتبة.

أجبته متسائلة:

ـ على الآلة الكاتبة؟

ـ ألا يروقكِ الأمر؟

ـ بلى. لكنَّ معرفتي بالكتابة على الآلة تتلخَّص في الدروس التي تعلَّمتها أيَّامَ كنت في الثانوي. لا أدري ما إذا كنت سأنجح، وهذا الأمر مقلق...

همست في نفسي كلمة «الكاتبة على الآلة» عدَّة مرَّاتٍ، لأنَّها بدت لي، لسببٍ أجهله، مميَّزة.

قال:

ـ ستكون الأمور على ما يُرام، أؤكِّد لكِ. ستتعلَّمين تدريجيًّا وأنتِ تشتغلين. وإن كان عليكِ في البداية أن تقومي بأشياءَ كثيرة.

ـ شكرًا جزيلًا. آسفة، لأنَّني أتعبتك معي.

انحنيتُ له شكرًا، والعبارة ما تزالُ تتردَّد في داخلي همسًا. حاولت أن أرجّ ذاكرتي الموهنة، لكنْ لم يطلع إلى السطح شيء.

ـ كلَّا، كلَّا، لا داعي لأن تشكريني. لستُ إلَّا سببًا. في مواجهة الاختفاءات ينبغي أن نتَّحد. أليس كذلك؟

كان رئيس الحيّ يبتسم راضيًا.

على أيِّ حالٍ، قبلت شركةُ التوابل توظيفي. وبالطبع، كان عليَّ أن أغيِّر جدولي اليوميّ. صباحًا، أستيقظ باكرًا كي أحمل إلى ر في الغرفة السرِّيَّة الطعامَ، والماء الساخن، وكلّ المستلزمات التي يحتاجها في يومه. ومساءً، حين أعود، أبدأ بتفقُّده لأطمئنّ، ثم أُنزِّهُ ضون، وبعد ذلك، أحضِّر العشاء. في البداية، كان يرهقني أن أترك المنزل ما يقارب عشر ساعاتٍ في اليوم. لأنَّني لم أكن أستطيع كبحَ نفسي عن تخيُّل حوادثَ كثيرةٍ قد تقع في غيابي: سرقة، أو حريق، أو مرض، أو زيارةُ شرطة الذاكرة.

جدولي الزمني صار مزدحمًا أكثر من ذي قبل. وكان شاقًّا العملُ في المكتب والاعتناء في الآن نفسه بالمنزل و ر وضون. وصارت فُرص زيارة الجدّ بالعبّارة أندر فأندر. لكنَّني بالجملة، استطعتُ أن أتدبَّر أيَّامي دونما مشاكل.

كان المكتب صغيرًا، لكنْ منظَّمًا بشكلٍ جيِّد، ويسود فيه جوٌّ عائليّ. وكان عملي يتلخَّص في أعمال التنظيف وترتيب أرقام

الهواتف والملفَّات. وقد أعطوني آلةً كاتبة، وكرَّاسًا شارحًا، لكي أتمرَّن على الكتابة في المنزل.

هي المرَّةُ الأولى التي أشتغل فيها خارج منزلي، ويبدو لي أنَّني قد أبليت بلاءً حسنًا. على أنَّ شيئًا كان ينغِّصني: الرائحةُ النفَّاذة التي تنبعث من الموادّ المحفوظة في مخزنٍ خلف المكتب، وتفوح تابعةً اتِّجاه الريح. كانت تحوطني روائحُ من كلِّ نوعٍ، أخلاطُ توابل، روائحُ نباتاتٍ طبِّيَّةٍ مُرَّة، أو فواكه فاسدة. لكن بفضل تلك العطور، كان يحدث أن أَغْنَمَ أطعمةً من عند الزبائن: نقانق، أو جبنًا، أو لحمًا معلَّبًا، ممّا لم يعد يُعثر على نظيره في أيّ سوق، صارت أطعمةً ثمينةً بالنسبة إلينا أنا و ر والجدّ.

* * *

أدركت سرَّ حساسيَّتي المفرطة تجاه عبارة «الكاتبة على الآلة»، حين أردتُ أن أقف على مصير روايتي، فعدتُ إلى المخطوط الذي كنت قد خبَّأته بعنايةٍ في الغرفة السرِّيَّة.

ولكي أكون دقيقةً، كنت قد صرت عاجزةً عن قراءة رواية. حتى وإن كنت أستطيع قراءة الكلمات بصوتٍ عالٍ، إلَّا أنَّني لم أكن أستطيع فهمها باعتبارها حكايةً مسترسلة. لم تعد الكلماتُ إلَّا حروفًا تملأ مساحةَ الورقة، ولا تُثير فيَّ أيّ عاطفةٍ، أو جوٍّ عامّ، أو مشهد.

وما زلتُ أتبع الخانات بإصبعي، حتى استوقفتني «الكاتبة على الآلة»، فتذكَّرت أنَّني كنت أكتب روايةً بطلتها كاتبةٌ على الآلة. وضمن هذه الملابسات، لم تكن كتابةُ تتمَّةٍ للرواية أمرًا يسيرًا كما ادَّعى ر.

الجمعة، والسبت مساءً، أجلس إلى مكتبي. أرفع الضاغطة عن الأوراق، وأتصفَّح المخطوط بحَذرٍ، من أوَّل صفحة. لكنَّ الأمر لا يسير وفق ما أرغب. أقرأ السطرَ الواحدَ مرَّاتٍ، وأتأمَّل كلمةً بعناية، وأحرِّك نظري بإيقاعٍ منتظمٍ: أقوم بكلِّ ما ينبغي، لكنْ لا أحصِّل فائدةً كبيرة. أبلغ الصفحة الخامسة أو السادسة، ثم ما

تلبث همَّتي أن تفتر. فأتصفَّح المخطوط عشوائيًّا، وأقرِّر أن أنطلق من نقطةٍ تبدو لي مثيرةً للاهتمام، لكنْ كما هو متوقَّع، لا يحدث شيء. ثم ينال منِّي التعب، حتى إنَّ منظر الورقة المربَّعة وحدَه يُصيبني بالدوار.

ثم أراجع نفسي قائلةً، حتى إن لم أكن قادرةً على الكتابة، فلعلِّي أستطيع الكتابة. وهذه المرَّة، أُحضر ورقًا أبيضَ. وتمرينًا لأصابعي، أكتب في البداية a، i، u، e، o . ثم أنتقل إلى كتابة ka، ki، ku، ke، ko ، من غير أن أغفل التوازنَ بين المربّعاتِ، وحجمَ الحروف. وحتى وإن كنت أكتب أصواتًا لا معنى لها، إلَّا أنّ شعورًا بالرضا يجتاحني، شيئًا فشيئًا، لأنَّني أساير رغبة ر. لكنْ ما إن أمحو السطرَ، فتستعيد الورقةُ بياضها حتى تتخشَّب أصابعي فورًا، ويملأني القلق، فينتهي بي المطافُ لا أدري ما عليّ أن أكتب.

أسأل نفسي: ماذا كتبت؟ وليلًا، أحاول تذكُّر اللحظة ـ أيّ لحظةٍ ـ التي كنت فيها جالسةً إلى مكتبي أحاول النبش عن كلمات. الآلة الكاتبة، الموضوعة في ركن الطاولة، لم تكن توحي إليَّ بشيء.

لحسن الحظّ، لم يكن زملائي في المكتب يعلِّقون على الأمر، لأنَّ تعلُّمي الآلة الكاتبة لم يكن يحرز تقدُّمًا.

أحاول أن أكتب أيَّ شيء. لكنْ لا تكون النتيجةُ إلَّا ضجيجًا معدنيًّا: كلانغ، كلانغ، كلانغ. وعلى الفور، ينتابني الإحساس بأنَّني أستعيد الروايةَ، فأحاول القبض عليها غريزيًّا. لكنَّ يدي تعود إليَّ صفرًا، لا شيء فيها إلَّا نُقبٌ صغير.

ثم يضيق بي ألَّا أرى إلَّا خاناتٍ فارغةً مدَّةً طويلةً، فأكتبُ a، i، u، e، o . ثم أمسحُ الحروفَ آملةً أن أستطيع كتابةَ شيء. لكنْ، كما أتوقَّع، لا يخطر ببالي شيء. وإذ لا يكون لديَّ خيارٌ

آخر، أعود إلى كتابة a، i، u، e، o . ويظلّ الأمر يتكرَّر. ولفرط ما أمحو الورقة، ينتهي بها المطافُ فُتاتًا.

* * *

. لا داعي إلى مقارعة المستحيل. يكفي أن تجعلي ذاكرتك تسترخي بهدوء.

يقول لي مواسيًا، من دون أن يُبديَ أيَّ استياءٍ، مع أنَّني أريته، معتذرةً، للتوّ ورقتي بيضاء.

. حاولتُ كثيرًا، يبدو أنَّ ذاكرتي ضاعت، وقُضيَ الأمرُ.

. كلَّا. بين الزمن الذي كنتِ تكتبين فيه، والآن، لم يحدث أيُّ تغيير. الفرق الوحيد هو أنَّ الكتب قد أُحرقت. وإن اختفى الورقُ، تبقى الكلمات. لذا لا بأس، فنحن لم نُضِع الرواية!

ضمَّني إليه كالعادة. السرير رخوٌ ودافئ. بشرته ما انفكَّت تزداد بياضًا، وعضلاته فقدت شكلها، وبدت كأنَّما انصهرت. وشعره الذي طال صار يظلِّلُ عينيْه.

. لم تتوقَّف الحرائقُ طيلة المساء. حتى إنَّني فكَّرت بأنَّها إنْ استمرَّت على ذلك النحو، فقد لا تنتهي الليلةُ أبدًا. ولم ينصرف أحدٌ، حتى بعدما لم يبق ثمَّة كُتبٌ تُحرقُ. ظلّ الناس يحدِّقون في اللهب. وكنت أسمع صوت الورق يطرطق وسط النيران، لكنْ كان ينتابني الانطباع بأنَّني وسط محيطٍ من الهدوء. وكأنَّما شُلَّت طبلتا أذنيَّ. هذه أوَّل مرَّةٍ يحدث اختفاءٌ تصاحبه مراسيم مهيبةٌ على هذا المستوى. ولعلمك، كنت أشدُّ بقوَّةٍ على يد الجَدّ، لأنَّني كنت أخال أنَّني إن لم أُمسك بجسد شخصٍ ما، فسوف تبتلعني النيران.

حكيتُ له بالتفصيل ما جرى تلك الليلة. ما إن فتحتُ فمي حتى اندفعت منه الكلمات التي كنت أريد أن أحكيها له، ولم أستطع أن أوقف تدفُّقها. المشقَّة التي واجهتها في سحب العربة،

وألعاب الحديقة العموميَّة التي كانت تحوطها هالةٌ حمراء، و«القبَّعة» التي سقطت في الوحل، والمكتبة التي تقوَّضت، و«الطيور»... تحدَّثت عن كلّ ذلك، لكنَّني لم أستطع أن أمحوَ من ذهني الانطباعَ بأنَّني أغفلت أهمّ شيء.

وكان هو يُصغي إليَّ بانتباه. وحين أرهقني الكلامُ، أطلقت تنهيدةً عميقة، فرفع عينيْه وبدا لي أنَّ نظره يهيم في البعيد. وخلفه، لمحت أواني العشاء فارغةً. حبَّة بازلَّاء وحيدة ظلّت مستقرَّة في وسط صحنه. وعلى الرفّ، صُفَّت بعنايةٍ الكتبُ التي لم تُحرق.

قال وهو يداعب شعري:

ـ لا بدَّ من أنَّ العالم في الخارج قد تغيَّر كثيرًا. أليس كذلك؟

أحسستُ بصوته يملأ الفراغ بين جسديْنا.

سألته:

. ألا تشمّ في شعري رائحةً غريبة؟

. أيُّ رائحةٍ؟

. رائحة التوابل.

. كلَّا. إنَّه يضوع برائحة الشامبو الجميلة.

خلَّل بأصابعه شعري.

غمغمتُ:
. لحسن الحظِّ.

ثم، قرأ بصوتٍ عالٍ رواية «الكاتبة على الآلة».

وأنصتُّ إليه كأنَّني أنصتُ إلى حكايةٍ خرافيَّةٍ آتيةٍ من بلادٍ بعيدة.

* * *

سألني الجَدّ وهو يضع طقمَ الشاي على الطاولة:

ـ هل يُتعبك العمل الجديد الذي لم تعتاديه بعد؟

كان قد ارتدى، فوق قميصه السميك، السترةَ التي أهديته إيَّاها، وانتعلَ نعله اللبد.

أجبته:

ـ كلَّا. الجميع لطفاء معي، والعمل ممتع.

ولم نكن قد اجتمعنا لشرب الشاي على متن العبَّارة منذ أمدٍ بعيد. ولسعادتي، كان ثمَّة يومئذٍ بان كيك. وجدتُ، استثناءً، بعض البيض والعسل، فحضّرناها معًا. وقد قسَّمنا الفطائر إلى ثلاثة أجزاءٍ متساويةٍ، وغلَّفت جزءًا منها في منديلٍ لأحمله هديَّةً إلى ر.

كان ضون تحت الأريكة، ويبدو أنَّه قد شمّ الرائحة الطيِّبة، فأخذ يحرِّك خطمه على حاشية المفرش مطالبًا بنصيبه.

ـ الضربُ على الآلة الكاتبة صعبٌ، لكنَّ التمرُّن عليها ممتع. نحرِّك أصابعنا فقط، ومن غير أن ننتبه، تتشكَّل جملةٌ، شيءٌ أشبه بالسحر. كُفَّ عن جرِّ المفرش يا ضون. سوف أعطيك قليلًا، فقط اهدأ وانتظر.

داعبتُ عُنُقَه.

ـ هيَّا، اصبر قليلًا.

صبَّ الجدُّ العسل على البان كيك، محاذرًا ألَّا يهدر أيّ نقطة.

ـ يبدو أنَّ أمور الشركة تسير على خير ما يُرام. الأعشابُ العطريَّة لا تحتاج ترابًا كثيرًا لتنمو، لذا وحتى لو لم يتوقَّف الثلج عن التساقط،

سيظلّ المحصول وافرًا. أمَّا الأغذية فسيِّئةٌ، اللحوم والخُضر الفاسدة توزَّع بسهولةٍ، أليس كذلك؟ ونتيجةً لذلك، يرغب الجميع في تغطية روائح الأطعمة السيِّئة. وعمّال الشركة سعداءُ بما سيجنونه من زيادة المبيعات.

قال الجَدّ وهو يرفع غطاء الإبريق ليرى كيف يسير نقعُ الشاي:

ـ هذا أمرٌ جيِّد.

طرقنا كلَّ المواضيع، ولم نتحدَّث في شيءٍ يُذكر، وشربنا الشاي، وضحكنا من ضون، وأكلنا البان كيك هادئيْن. كنَّا نقتطع منها بسكِّينٍ مقدارَ لُقمةٍ، فنتركها تذوب في فمنا على مهلٍ، حتى نتلمَّظ ما أمكن بحلاوتها. ولقدر ما كان حجمها يتقلَّص بقدر ما كنّا نجعل لُقيماتِنا أصغرَ.

وأعطى كلٌّ منّا ضونَ لقمةً. فابتلعها فورًا من غير أن يتذوّقها، ثم رفع عينيْه مجدَّدًا إلينا كأنَّما يقول: (ماذا؟ لا تقولان إنَّني لن أحصل على لقمةٍ غيرها!)

شمسٌ مشرقةٌ تتسلَّل من المنور، حتى ليخالُ الناظرُ إليها أنَّها بشائر الربيع. كان البحر هادئًا، وكذلك العبَّارة التي تصرُّ بالعادة حين تضربها الأمواج. وكان برَّاقًا ركامُ الثلج الذي بدأ يذوب على الرصيف.

وبعدما أنهينا الباان كيك، أخرجنا صندوق الموسيقى الذي يُخفيه الجدّ في حمَّام المقصورة، ووضعناه على الطاولة لنستمع إليه. وكان يردِّد بأمانةٍ اللحن نفسه. أوقفنا ثرثرتنا، وجلسنا مستقيميْن، وأغمضت أنا عينيَّ. لم أكن أعرف أيّ وضعيَّةٍ تُسمعُ فيها هذه الموسيقى في الأصل، لكنَّني أحسب أنَّني إن أغمضت عينيَّ، فسوف تزداد فرصُ إحساسي بـ «الأثر» الذي يتحدَّث عنه ر.

كان اللحن المنبثق من الصندوق بسيطًا، لكنْ عذبًا وصافيًا. وكنتُ أشعر به حقًّا. لكنَّني لم أكن على يقينٍ ممَّا إذا كان بوسعه أن يُزيل ضمورَ قلبي. لأنَّ اللّحنَ ما إن يغوص في غيابة القلب، حتى ينمحي من غير أن يخلِّف وراءَه دوّامةً أو زبدًا.

أمَّا ضون فكان يتأمَّل صندوق الموسيقى متقصِّيًا. وكلَّما أكمل المفتاح دورته، وعادت الموسيقى على بدء، كان يتراجع إلى الخلف، وينبطح على بطنه ويهزّ أذنيْه، ويبدو غير قادرٍ على كبحِ جُماحِ فضوله. وضعت الصندوق على راحة يدي، كي أقرِّبها من خطمه، فهرع إلى الجَدّ يحتمي بين قدميْه.

أغلق الجدّ صندوق الموسيقى، وسألني:

. آنستي.. ماذا عن تتمَّة... روايتك؟ كيف تجري الأمور؟

بدا لي أنَّ نطق الكلمة قد بدأ يشقّ عليه.

أجبته:

. آه، أحاول جاهدةً، لكنَّ الأمور لا تتقدَّم.

. الحقّ، أنَّ الاهتمام بالأشياء التي اختفت مهمَّةٌ شاقَّة. لأصدقَكِ القولَ، كلَّما أدرت المفتاحَ لفَّني إحساسٌ بالخواء، فأحثّ نفسي قائلًا إنَّني هذه المرَّة سأنجح، وأكتشف كشفًا ما، لكنْ دائمًا يخيِّب أملي. لكنْ بما أنَّها هديَّة ثمينةٌ، فإنَّني أتشجَّع، وأُدير المفتاح مجدَّدًا.

. أنا أيضًا، أمدُّ ورقةً بيضاء على مكتبي، فأعجز عن القيام بأوَّل خطوة. لا أدري أين أنا، ولا إلى أين المسير! كأنَّما أنا تائهةٌ في ضباب! إذّاك ألتمس وسيلةً، وأبدأ في النقر على الآلة. فقد صرت الآن أملك آلةً موضوعةً على مكتبي، آلةً أعاروني إيَّاها في العمل. وحين نتأمَّل آلةً كاتبة، نرى أنَّ لها هيئةً فاتنة. إنَّها معقَّدةٌ، ودقيقةٌ ومذهلة؛ فأُصيخُ السمْع لصوت النابض الذي يرفع رافعة الحرف، آملةً أن أُدرك فيها ما يربطني بالرواية...

. آه، أيّ شخصٍ شهد النيران المرعبة التي بدت أنّها تلتهم الجزيرة كلّها، لا بدَّ من أن تُشلَّ أعصابه!

. نعم، أنا أيضًا، تلك الليلة، سمعت صوت ذاكرتي تُستهلك.

تثاءب ضون. كان يعرف الجانب من الغرفة الذي تُنيره الشمس أكثر من غيره. وقد ظلَّ يتبعها في حركتها، خطوةً خطوةً، من غير أن ننتبه إليه.

من بعيدٍ، تتناهى إلينا صيحات الأطفال، لا شكَّ أنّهم مبتهجون بهذا الطقس الجميل الذي عاد إلينا بعد طول غيابٍ. وأمام مستودعات الرصيف رجالٌ في بدلاتِ عتّالين يتقاذفون كرةَ بيسبول.

واصلت الحديث:

. على أنَّني... أتساءل لِمَ خطر لي أن أكتب قصَّة كاتبةٍ على الآلة. مع أنَّني لم ألمس طيلة حياتي آلةً كاتبة، ولا عرفتُ كاتبةً

عليها. غريب! أصِف الآلةَ الكاتبة بتفصيلٍ دقيق. وفي الرواية فصولٌ كثيرةٌ يُكتب فيها على الآلة.

سألني الجَدّ وقد اتَّسعت عيناه ذهولًا:

ـ هل يستطيع كاتبُ الرواية أن يكتب مشاهدَ لم يشهَدها؟

ـ نعم، أظنُّ ذلك. حتى وإن لم يرَ المؤلِّفُ أو يسمع، يكفيه أن يتخيَّل ليكتب. يبدو أنْ ليس من الضروريّ أن تطابق الكتابة الواقعَ، لا بل إنَّ حتى الكذبُ مسموحٌ به. هو من قال لي ذلك.

ـ قال لكِ إنَّه يمكن كتابة أكاذيب؟

كان حاجباه يرجفانِ كأنَّها علامةٌ عن أنَّ فهمه يضيق أكثر فأكثر.

ـ نعم. لا يُلام الروائيّ على شيء. لأنَّنا عندما نكتب الرواية ننطلق من صفر. نصف أشياءً لا نراها، كأنَّنا نراها. وبواسطة الكلمات، نبعث الحياة في أشياء لا وجود لها. لذا يبدو أنَّه لا ينبغي الاستسلام البتَّة، حتى وإن اختفت الذكريات.

كنت أنقر نقرًا خفيفًا بشوكتي على حافَّة صحني. بدا ضون شبهَ غافٍ، وقد أسجى رأسه على قائمتيْه الأماميَّتيْن. ولا بدَّ من أنَّ الاستراحة قد انتهت، إذ لمحتُ العتَّالين يتوجَّهون إلى المستودعاتِ، وفي أيديهم قفَّازاتُ البيسبول.

بادرني بهدوءٍ بعدما تأمَّل لبرهةٍ البحرَ في صمتٍ:

ـ لا أدري ما إذا كان لي أن أسألك هذا السؤال، لكنْ يا آنسة: أنتِ تحبِّينَه، أليس كذلك؟

لم أدرِ بما أُجيبه، خانتني بدايةُ الكلامِ، فلُذت بضون، طوّقت رقبتَه وهززتُه. فتح جفنيْه منزعجًا، وأطلق صوتًا بين السعال والتجشُّؤ، ثم انزلق من بين ذراعيّ. وبعدما تابعته يلفّ محيط المقصورة، ويعود إلى بِركة أشعَّةِ الشمس، أجبتُ الجَدَّ بـ « نعم» غامضة، قد يحملها محمل الموافقة، كما قد يحملها محمل الانخراط في التفكير.

ثم سألته بدوري:

ـ هل تظنُّ أنَّه يستطيع الخروج من مخبئه؟ تظنُّه يستطيع ترك الغرفة السرِّيَّة والعودة إلى زوجته وابنه؟

جوابًا عن سؤالي، تناول صندوق الموسيقى متنهِّدًا.

ـ أمَّا أنا فلا أظنّ. لا أعتقد أنَّه يستطيع العيش إلَّا في تلك الغرفة. لقد صار قلبه شديدَ الكثافة. فإن أُجبر على الخروج إلى العالم

الخارجيّ، مثل سمكة أعماقٍ تُصعَد إلى السطح، فإنَّ قلبَه سيتشظَّى. لذا، أضمُّه بذراعيَّ لأُبقيه في أعماق البحر.

قال من غير أن يرفع عينيْه عن يديْه:

ـ الأمرُ إذن هكذا؟

وكان ضون يتهيَّأ لأن يغفو قليلًا بعد، بعدما حكّ بقائمته أسفل ذقنه، واستلقى بهيئةٍ راضية.

وفي تلك اللحظة، انطلق بغتةً هديرٌ هائلٌ بلغ مداه أعالي السماء. وبدافعٍ غريزيٍّ، قمنا أنا والجدّ، مستنديْن بأيدينا إلى الطاولة. واستفاق ضون من نومته، ووثب واقفًا على قوائمه وعيناه جاحظتان. وفي اللحظة نفسها، بدأت العبَّارة تتحرَّك بقوَّة. كدتُ أسقط منقلبةً إلى الخلف، فجثوتُ وتشبَّثت بقدم الأريكة. انهار كلّ ما في المقصورة، من دولاب الأدراج إلى الصِّوان، والراديو، والمصباح، والبندول.

صاح الجدّ:

ـ هزَّةٌ أرضيَّة!

وحين انتهت الهزَّة وفتحت عينيّ، كان ضون هو أوّلُ ما وقع عليه بصري وسط كلّ الأشياء المتناثرة، وكان اختبأ أسفلَ الأريكة، وأخذ يرتعد بشكلٍ مزرٍ.

ـ هيَّا، تعال، لقد انتهى الخطر.

بسطتُ يدي في الفجوة بين دُرجٍ خَرَج من دولابه والمصباح الكهربائيّ المنقلب، لكي أضمّ ضون إليَّ. وأخرجت جسده من المكان الضيِّق.

ـ جدِّي، جدِّي.

نظرت حواليَّ. كانت المقصورة مقلوبةً رأسًا على عقب، حتى إنِّي لم أستطع تمييز الموضع الذي كان يجلس فيه قبل قليل. نبح ضون مرَّاتٍ، كأنَّما يناديه.

ثم أخيرًا أتاني الجوابُ:

ـ نعم. أنا هنا.

وكان صوتُه واهنًا. لقد حُبس تحت الصِّوان. واختفى جسده تحت أنقاض الأواني التي انكسرت. والدم يملأ وجهه.

ـ هل أنت بخير؟

أردت أن أزيح الصِّوان، لكنَّه كان ثقيلًا جدًّا، لم أستطع أن أزحزحه، وخشيتُ أن أؤذيَ الجدَّ.

ـ لا تقلقي بشأني، اذهبي لتحتمي بمكانٍ آمن.

بالكاد كنت أسمع صوته الذي خنقته الأنقاض.

ـ ماذا تقول؟ تعلمُ أنَّني لا أستطيع أن أفعل هذا.

. هيَّا، اهربي فورًا. إنَّ التسونامي على وشك الحدوث.

. التسونامي؟... ماذا يعني التسونامي؟

. لا وقتَ للشرح. إنَّها موجةٌ هائلةٌ تأتي من الجانب الآخر للأفق. بعد حدوث هزَّةٍ أرضيَّة، لا بدَّ من أن تعقبها موجةُ تسونامي. إن بقيتِ هنا، تضيِّعين وقتك، فلا بدَّ من أن تجرفك.

. لا أفهم ما تقوله حقًّا، لكنْ أيًّا كان سنهربُ معًا.

حرَّك يدَه اليسرى التي كانت بالكاد تظهر من تحت الأنقاض، لكيْ يشير إليَّ بأن أرحل، لكنَّني تجاهلته محاولةً مجدَّدًا أن أزحزح الصِّوان، فلم أستطع إلَّا أن أرفعه قليلًا. وكان ضون يراقبنا قلقًا.

. قد يؤلمك الأمر، لكنْ صبرًا. ما إن يُفسح لك مجالٌ كافٍ، حاول أن تُخرج جسدك شيئًا، فشيئًا.

لم أكفّ عن الحديث إليه، لكي أشجّع نفسي. شظيَّةُ زجاجٍ جرحت ركبتي، وتمزَّق جوربي، وكنت أنزف بشدَّة، لكنّني لم أكن أشعر بالألم.

ـ سوف أعطيك إشارةً لكي نتحرَّك معًا. إن تضافرت جهودنا، سوف تخرج من هنا.

ـ أرجوكِ لا تقلقي بشأني.

صرختُ فيه بغضبٍ:
ـ كلَّا، لا تتفوَّه بالحماقات. كلَّا، لن أرحل بدونك.

ثم تناولتُ الخطَّاف الذي يُفتح به المنور، وكان قد سقط عن قائمتَي ضون، لكي أستعمله عتلةً أرفع بها الصوان.

ـ واحد، اثنان، ثلاثة.

وهذه المرَّة، رفعتُه أعلى. سمعت صريرًا ربَّما كان مصدره الأرضيَّةُ، أو الصِّوان، أو عمودي الفقري، لكنَّني لم أعر الأمر اهتمامًا، وواصلتُ دفعَ العتلةِ بأقصى ما فيَّ من جهد.

ـ هيَّا، مرَّةً أخرى. واحد، اثنان، ثلاثة.

برزت أذنُه، ثم كتفه اليسرى. وفي تلك اللحظة، بدأت العبَّارة تهتزّ مرَّةً أخرى. ولم تكن هذه الهزَّة بقوَّة الأولى، لكنَّني فقدت توازني، فكدتُ أنقلبُ، فتمسَّكت بالخطَّاف بكامل قوَّتي.

ـ قُل، أهذا هو التسونامي؟

ـ كلَّا. التسونامي لا يكون بهذا اللطف.

ـ على أيِّ حالٍ، ينبغي أن نُسرع، أليس كذلك؟

هل كان ضون يريد أن يمدّ لنا العون؟ لقد أمسك بأسنانه سترة الجدّ، وحاول سحبه.

صارت راحتاي حمراويْن، وتحت صدغيَّ تصلَّبت أسناني، وأوشكت أوصالُ ذراعيّ أن تتمزَّق، ولم يتزحزحِ الصِّوان كما أردت. شطتُ غضبًا، وأنا أتساءل كيف لقطعة أثاثٍ بهذا الثقل أن تتحرَّك من موضعها حتى هنا، لكنَّني لم أوقف جهدي، فما لبث جسد الجدّ أن ظهر بأكمله شيئًا فشيئًا.

ما التسونامي؟ حاولتُ ألّا أفكِّر في هذه الكلمة، لكنَّني لم أستطع إخراجها من رأسي. بما أنَّ حتى الجدُّ خائفٌ، فلا بدَّ من أنَّه أمرٌ خطير. أهو وحشٌ يسكن أعماق البحر؟ اللّهمَّ إلّا إن كان، شأنَه شأن الاختفاءات، ضربًا من الطاقة الخفيَّة التي لا أحدٌ يستطيع مواجهتها؟

زدتُ من ضغطي على العتلة، كي أطردَ أيضًا عن نفسي الخوفَ من تلك الصورة.

وحين تخلَّص آخر عضوٍ من أعضائه العالقة، كاحله الأيسر، جثوتُ في مكاني أرتاح. وفي اللحظة نفسها التي قام فيها الجَدُّ مترنِّحًا، صاح:

ـ هيَّا يا آنسة، ينبغي أن نغادر المكان بسرعة.

وعلى الفور، حملت ضون بين ذراعيَّ لألحق بالجَدّ.

* * *

لا أذكر كيف استطعنا عبور العبَّارة حيث كلّ شيءٍ مقلوب، ولا أيَّ اتِّجاه سلكناه انطلاقًا من الرصيف! لكنْ على أيِّ حالٍ، لما التقطنا أنفاسنا، أنا والجَدّ وضون، كنَّا جالسين بين أنقاض المكتبة عند منتصف منحدر التلّ، محاطين بعددٍ كبير من الناس الذين فرُّوا مثل فرارنا. وفي حين كان الجوّ رائقًا منذ وقتٍ قصيرٍ فقط،

اجتاحت السماءَ غيومٌ، في غفلةٍ منَّا، منذرةً بعاصفةٍ ثلجيَّةٍ قد تنطلق في أيِّ لحظة.

نظر إليَّ الجدُ قائلًا:

. لستِ مصابة؟

. كلَّا، وأنتَ؟ هل أنتَ بخير؟ الدم يغطِّي جسدك.

أخرجت منديلًا من جيبي أمسحُ به وجهه.

. لا تقلقي، ما هي إلَّا خدوشٌ بسبب شظايا الزجاج.

. مهلًا، أنت تنزف من أذنك اليسرى.

وقد سالت قطراتُ دمٍ من شحمة أذنه صوبَ ذقنه.

. ليس جرحًا خطيرًا، هو فقط خدش.

. نعم، لكنْ إن بلغ الجرح باطنَ الأذن أو الدماغ فسيكون الأمر خطيرًا جدًّا.

. كلَّا. كلَّا. ليس الأمر بهذه الخطورة. اطمئنِّي.

ثم ببراعةٍ، أخفى أذنه بيديْه. وفي تلك اللحظة بالضبط، ارتفع خطُّ الأفق في هديرٍ مهولٍ، وانطلقَت سريعًا صوبَ الشاطئِ موجةٌ بيضاءُ هائلةٌ.

سألته وقد أوقعتُ منديلي:

. ما هذا؟

أجاب الجَدُّ ويداه ما تزالان تغطِّيان أذنه:

. التسونامي.

وفي لحظةٍ، انقلب المشهد أمام عيوننا. بدا البحر في آنٍ، يُمتصُّ صوبَ السماء، ويهوي في شقٍّ بالأرض. وماء البحر الهائج، يرتفع أعلى فأعلى، ويتهيَّأ لأن يبتلع الجزيرة. بدأ الناس حولنا يئنُّون جميعًا.

ابتلع البحرُ العبَّارة، وجاوز السدّ، وهدم المنازل على الشاطئ. لا شكَّ أنَّ كلّ ذلك قد حدث في غمضة عيْنٍ، لكنْ بدا لي أنَّني قد ميَّزتُ بوضوحٍ قِطَعًا من المشهد: كرسيَّ سطح السفينة، حيث كان الجَدّ يقضي قيلولته، وكرةَ بيسبول تطفو على ذروة الموجة، وسقفًا أحمرَ طُويَ مثل أوريغامي(11) على وشك أن يبتلعه البحر.

وبعدما صفَا المشهدُ مجدَّدًا، كان ضون المبادرَ إلى الحركة. صعد فوق جذعِ شجرة، مقابلًا البحر، وأطلق نَبْحةً طويلةً مكتومة.

وكانت نبحتُه تلك بمثابة الإشارة: تحرَّك الجميعُ، شيئًا فشيئًا. فبعضهم يتهيَّأ للنزول من التلّ، وبعضهم يلتمس هاتفه، وآخرون يشربون أو يبكون، كلٌّ على طريقته.

سألته وأنا ألتقط منديلي من الأرض:

ـ هل تظنُّ أنَّ الأمر انتهى؟

أجابني الجدّ:

ـ نعم، بلا شكّ. لكنْ يجدر بنا أن نمكث هنا قليلًا، ونراقب الوضع.

تأمَّلنا بعضنا بعضًا مرَّةً أخرى: كان مظهرنا حقًّا مزريًا. سترةُ الجَدّ صارت مِزقًا، وشعره مغبرًّا، وقدماه حافيتيْن. ولم يكن يحمل في يده إلَّا صندوق الموسيقى. وكان الصندوق سليمًا على الرَّغم من كلِّ ما مررنا منه. أمَّا أنا، فقد انحلَّت عقدُ تنُّورتي، وجواربي اللاصقة

تسرَّبت خيوطها حتى ما عادت تغطِّي ركبتيَّ، وكذلك ضاع كعبُ فردةٍ من حذائي.

سألته:

ـ هل أخذتَ صندوقَ الموسيقى قبل أن ننطلق؟

ـ لا أذكر. حين انحبستُ تحت الصَّوان، أحسستُ به تحتي. لكنَّني لا أذكر كيف التقطتُه قبل أن أركض حتى هنا. لا أذكر هل كنت أحمله بيدٍ واحدة، أم بيديَّ معًا، أم تراني وضعته في جيبي!..

ـ جيِّد أنَّك استطعت أن تنقذ شيئًا واحدًا على الأقلّ. أمَّا أنا، فلم أستطع أن أحمل غيرَ ضون.

ـ نعم، وإنَّ سلامة ضون أهمّ من كلّ شيء. لا يحتاج شيخٌ مسنٌّ الكثيرَ من الأشياء في حياته اليوميَّة. ليجرفها التسونامي، فلن أفتقدها حقًّا. ثم إنَّ العبَّارة نفسها قد اختفت منذ زمنٍ بعيد.

التفت صوبَ البحر. كانت تحجب الساحلَ أكوامٌ من الخشب والأنقاض. وسيَّارات عديدةٌ تعوم وسط كلّ ذلك. وأبعدَ، في عُرض البحر تقريبًا، كانت العبَّارةُ تغوص منقلبةً، وكوثلُها(12) في الهواء.

قلت:

ـ لقد ضاعت فطيرة البان كيك التي تركناها لـ ر.

أجابني الجدّ هازًّا رأسَه:

ـ نعم!

* * *

كذلك كانت المدينة مدمَّرةً، هنا وهناك. انهارت حواجز إسمنتيَّة، وتصدَّعت الشوارع، واندلعت النيرانُ في أماكنَ عديدة. حولنا تتحرَّك بلا توقُّفٍ، جيئةً وذهابًا، سيَّاراتُ الطوارئ وشاحناتُ شرطة الذاكرة.

لم تكد تنمحي آثارُ اختفاء الروايات، وها هي ذي مصيبةٌ أخرى تضرب الجزيرة. ولكي يكتمل المشهدُ، بدأ الثلج يسقط.

من الخارج، لم يكن يبدو على المنزل خرابٌ بالغ، فقط بعض البلاطات اقتُلِعَتْ، وانقلب وِجار الكلب. لكنَّ المشهد في الداخل كان فظيعًا. انقلب كلّ شيءٍ: المقالي، والأواني، والهاتف، والتلفاز، والمزهريَّات، والجرائد، وعلب مناديل الورق...

قيَّدنا ضون إلى وثاقه قبل أن نهرع إلى الغرفة السرِّيَّة. كان أكبر همّنا أن نرى كيف واجهت الغرفةُ الصغيرةُ الهزَّةَ الأرضيَّة. رفعتُ البساط، ثم سحبتُ البوَّابة. لكنَّها لم تتزحزح قيد ميليمتر.

صاح الجَدُّ إلى الأسفل:

ـ هيه، هل تسمعني؟

بعد ذلك بقليل، سمعنا طرقًا من داخل اللوح.

ثم سمعنا صوت ر:

ـ نعم، أنا هنا.

ـ هل أنت بخير؟ لست مُصابًا؟

استلقيتُ على بطني، وأدنيتُ فمي من شقّ اللوح.

ـ شكرًا، أنا بخير، هل أنتِ والجَدّ على ما يُرام؟ كنت قلقًا جدًّا، لأنَّني لا أعرف كيف الوضعُ بالخارج. وكنت أتساءلُ عمَّا عسايَ أفعل إن لم تعودا.

ـ كنَّا معًا على العبَّارة، وقد نجونا بأعجوبة. لكنَّ العبَّارة غرقت.

ـ حقًّا؟ لقد أردت أن أطَّلع ولو قليلًا على الوضع، فحاولت الخروج، لكنَّ البوَّابة كانت مقفلةً. حاولت كلّ شيءٍ، دفعتُ، وسحبتُ، وضربتُ، لكنْ لا فائدة.

قال الجَدّ بعدما حاول أيضًا بلا فائدة:

. سأحاول أن أسحبَ مرَّةً أخرى، هل تستطيع أن تدفع من جانبك بكلّ قواك؟

تناهى إلينا صوت ر واهنًا:

. ألم يصب الأرضَ اعوجاجٌ من أثر الزلزال؟

ازداد قلقي.

. بلا شكّ. لا بدَّ من أنَّ اللوح قد علق في الأرضيَّة.

استغرق الجَدُّ في التفكير واضعًا ذقنَه على يده.

سارعتُ إلى القول:

. ماذا سيحدث إن لم نتمكَّن من فتح الغرفة؟ سيموت جوعًا. لا بل قد يموت قبل ذلك، مختنقًا.

قال الجَدُّ:

. هل المروحة تعمل؟

. كلّا، أظنّ أنَّ الكهرباء قد انقطعت، لذلك لم تعد المروحة تعمل.

بما أنَّ الوقتَ نهارٌ، فلم ننتبه إلى انقطاع الكهرباء، لكنْ لا بدَّ من أنَّ الكهرباء معطَّلة.

. أنت إذن في ظلامٍ دامس؟

. نعم.

كان يبدو لي أنَّ صوتَ ر ما انفكَّ يبتعد شيئًا فشيئًا.

قمت واقفةً:

. هيَّا، ينبغي أن نُسرع.

ـ ينبغي أن نفتح هذه البوَّابة بالمنشار والمطرقة.

* * *

كعادته، اشتغل الجَدّ بصمتٍ ودقَّةٍ، وفي وقتٍ وجيز، استطاع أن يفتح الغرفة بمهارةٍ مذهلة. بينما اكتفيت أنا بالنظر إليه ذاهلةً، لا أدري ما أفعل! فقط ذهبت عند الجيران بالمنزل المقابل أستعير من عندهم منشارًا ومطرقة. عندنا في القبو أدوات نجارةٍ، لكنَّ الفوضى تعمّ المكان، ولن يكون من السهل إيجادُ الأدوات هناك؛ كذلك غرقت أدواتُ الجَدّ مع العبَّارة، فلم يبقَ لي من حلٍّ إلَّا أن أقصد الجيران. وبخلاف كلّ توقُّعٍ، أصرَّ صانع القبّعات ـ سابقًا على أن يأتي بنفسه للقيام بالعمل.

ـ إنَّه زلزالٌ مدوٍّ، أليس كذلك؟ كيف الحال عندكم؟ ماذا تريدين أن تصلحي؟ سوف آتي لأساعدك.

ـ أشكرك، لكنَّ الأمرَ بسيط.

ـ بالنسبة إلى فتاةٍ وحيدة، ليس هذا بالأمر الهيِّن.

ـ كلَّا. لكنَّ الجَدّ معي.

ـ في حالة الطوارئ، لا تكون السواعد أبدًا كافيةً.

محافِظةً على ابتسامتي، بحثت عن عذرٍ أتعلَّلُ به، عذرٍ لا يجرح كبرياءه، وفي الآن نفسه، لا يوقظ الشكوك.

ـ الحقُّ أنَّ وجهه متورِّم. تورُّم من أثر القرَّاص. منظره مزرٍ، ولا يريد أن يراه أحد. أن تشعر بالخجل في سنِّه؟ إنَّه كما تعلم عنيد بعض الشيء.

هكذا، نجحتُ في أن أُثنيَ صانع القبّعات ـ سابقًا عن عزمه.

عندما تمكَّنَّا من فتح باب المخبأ، تطايرت منه نشارة خشبٍ، وأطلقنا جميعًا صيحةَ فرح. وعلى الفور، تمدَّدنا أنا والجَدّ على بطنيْنا

لنستكشف ما يجري بالأسفل. كان ر عند باب السلّم يرفع إلينا عينيْن يختلط فيهما الارتياح بالتعب. كانت نشارةُ الخشب تملأ شعره.

نزلنا السلّم، وبينما نتلامسُ كنَّا نتبادل كلماتٍ مبهمة، من قبيل: «نعم، نعم»، أو أصواتًا لا معنى لها، نظيرَ: « بَه! بَه!». وفي الظلام، لم نكن نرى بوضوحٍ، لكنَّ الغرفة السرِّيَّة كانت تعمّها فوضى عارمة. ما إن يتحرَّك الواحد منَّا، حتى تصطدم قدمه بشيءٍ. داخل ذاك الفضاء الضيِّق، أمسكنا بأيدي بعضنا بعضًا، وعيوننا لا تكفّ عن تبادل النظرات. إذ لم نكن نرى غير ذلك طريقةً للتأكّد من أنَّنا فعلًا معافون سالمون.

(11) فنُّ صنع مجسَّمات من الورق.

(12) الكوثل، مؤخّر السفينة.

٢١

لم تعد المدينة أبدًا إلى سابق عهدها. أولئك الذين تكبَّدوا خسائرَ، كافحوا لكي يستعيدوا بسرعةٍ حياتهم المعتادة، لكنْ بسبب البرد وندرة الموادّ، لم تكن الأشغال تسير وفق مرادهم. ظلَّت أنقاض المنازل المهدَّمة وأتربة الأراضي المجروفة تتراكمُ على جنباتِ الطرق. وما لبث الثلج أن تحوَّل إلى وحلٍ رماديٍّ خلع على الجزيرة مظهرًا أشدَّ بؤسًا.

أمَّا الأنقاض العائمة على البحر، فقد جرفها الماءُ شيئًا فشيئًا إلى عُرض البحر، حيث اختفت. لم يبقَ غير العبَّارة بارزةً تنبثق وسط الماء. مظهرُها الآن، وهي تغوص كغريقٍ سقط بوجهه مختنقًا في الماءِ، لا يشبه في شيءٍ مظهرها أيّامَ كان الجَدّ يتَّخذها مأوًى.

ظُهر اليوم الثالث، بعد الزلزال، كنت أسيرُ في شارع الترامواي غير بعيدٍ عن المكتب، فإذا بي ألمح آل إنوي. ولكي أكون دقيقةً، لم أرَ

إلّا قفّازيْن، لكنْ يبدو أنّهما ـ لا بل من الواضح أنّهما، إن جرؤت على القول ـ من قفّازات آل إنوي.

وكان مدير المكتب قد بعث بي أشتري حوائجَ من الورّاقة، فلمّا هممت بدخولها، جاوزتني شاحنةٌ من الشاحنات المغلّفة بالأخضر. كانت تبدو غاصّةً بالناس، وغطاؤها يتأرجح ثقيلًا. تنحّت العربات والسابلة من الطريق، آملين أن تختفي الشاحنة بأسرع ما يمكن.

وأنا كنت ممسكةً بمقبض باب الورّاقة، حريصةً، وسع ما يمكنني، على ألّا أنظر صوب الشاحنة، لكنّ قفّازيْن يبرزان من تحت الغطاء، اقتحما مجالي البصريّ في برهةٍ. باغتتني المفاجأةُ، لكنّني شددتُ أعصابي. إنّهما بالفعل القفّازان الصغيران الأزرقان الفاتحان المشدودان برباطٍ وعقاف.

ـ إنّهما قفّازا ابن إنوي...

تذكَّرت لحظةَ قصصت أظافره بالقبو. أظافره المرنة الشفَّافة التي كانت تسقط مرفرفة؛ استعدتُ إحساسَ عذوبة أصابعه، وصورة القفَّازين ينتظرانِ غير بعيدٍ.

لم ألمح من فرجة الغطاء وجهه، ولا جسده، لكنَّ القفَّازيْن اللذيْن يطلَّان باحتشامٍ على العالم الخارجيّ، كانا يبدوان حزينيْن. خطوْتُ على الرصيف لأركض في إثره، سدًى. لقد اختفت الشاحنة على الفور من أمام ناظريّ.

سمعت أنَّ الكثير من الناس ممَّن كانوا يختبئون في المنزل الذي ضربه الزلزالُ، فانهارَ أو اشتعلت فيه النيران، قد هاموا في الطرقات لا يدرون أين يولُّون وجوههم. وأنَّ شرطة الذاكرة تلمُّهم، واحدًا واحدًا، فتسوقهم إلى مركز الشرطة.

لكنْ لا سبيل عندي إلى التحقُّق ممَّا إذا كانت أسرة إنوي بالفعل في تلك الشاحنة. ليس لي إلَّا الدعاء، أدعو أن يستطيع الولدُ مواصلةَ قصّ أظافره يرعاهُ قفَّازاه الأزرقان الفاتحان.

قرَّرنا أن يسكن الجَدُّ معنا. وبما أنِّي كنت أظنُّ أنَّ هذا الأمر لا بدَّ من أن يحدث عاجلًا أم آجلًا، وبدأتُ أهيِّئ له الشروطَ، فلم تصادفني مشكلةٌ بعيْنها، لكنَّني كنت مهمومةً بالجَدّ، إذ مُنذ الزلزال طوَّقَه حزنٌ غريب. بما أنَّ مسكنَه قد اختفى فجأةً، من دون سابق إنذارٍ، فمن الطبيعيّ أن يُصدم. ثم، مهما تعرَّف على المنزل، وقد صار يعيش فيه، فإنَّ ثمَّة أشياءَ لم يألفها. ذاك ما كنت أقوله لنفسي. لكنْ حين أردنا إصلاح ما أفسده الزلزال، بذل الجَدُّ جهدًا كبيرًا.

لنا أن نسعد لأنَّ المنزل لم يتقوَّض، لكنْ بالداخل كانت الفوضى تتسيَّد كلّ شيءٍ، حتى إنَّنا لم نعرف من أين نبدأ. وسرعان ما أعاد الجَدُّ كلّ شيءٍ إلى مكانه. عمد بدايةً إلى الأثاث، فأقام ما كان منه مقلوبًا، وأصلح ما طاله تلفٌ، وما لم يعد منه يصلح فكَّكه، ليحرقه في الحديقة. ولمّ ورتَّب كلّ الأشياء المتناثرة بين الغرف، ثم شمَّع الأرضيَّة. ولم يقوِّم بابَ مدخل الغرفة السرِّيَّة فحسب، وإنَّما كلّ ما يحتاج تقويمًا، من الأبواب إلى إطارات النوافذ.

قلت له:

ـ إنَّ جرح وجهك لم يُشفَ بعد، عالج نفسك أوَّلًا.

ـ كلَّا، كلَّا، لا وقت لنفكِّر في هذا. أفضل لي أن أعالجه بينما أعمل. بالمناسبة، لقد التقيت منذ قليل، قرب مدخل المنزل، بالجار، وتدرين ما قال لي؟ «كيف حال تورُّمك يا سيِّدي؟ آه إنَّك ما تزال تحمل آثاره! فلتعتنِ بنفسك».

ثم جعل يضحك قبل أن ينصرف ضاربًا بمطرقته هنا وهناك.

* * *

وأثناء اشتغالنا أنا وهو في القبو، اكتشفنا أشياءَ عجيبة.

في الأصل، كان القبو غاصًّا بركامٍ من الأشياء القديمة، ولما أن زحزحها الزلزالُ، فما عاد بينها للقَدَمِ موطئٌ تتحرَّك فيه، قلنا إنَّنا سوف نستغلُّ الظرفَ لنلقيَ بكلّ ما لا نحتاجه، لكنَّ الأشياء

كانت دفاترَ رسمٍ، أو أزاميل.. وكلَّما تناولتُ شيئًا، ألفيتُه مرتبطًا بذكرى أمِّي، فانتهى بي المطاف عاجزةً عن التخلُّص من أيّ شيء.

قال الجَدُّ جاثيًا تحت رفٍّ:

ـ تعالي لتَري هذا يا آنسة.

قلت وأنا أنظر في الاتِّجاه الذي عيَّنَه لي:

ـ ماذا؟

فرأيتُ منحوتات أمِّي التي كانت أسرةُ إنوي قد عهدتْ بها إليَّ، وقد سقطت. مجسَّمُ المخلوق باكو ملتهم الأحلام الذي أهدتْهُما إيَّاه يوم زفافهما، والدميةُ هديَّة ميلاد ابنتهما، ثم المنحوتات الثلاث الأُخر، أقصد المنحوتات المجرَّدة التي أعطتهم إيَّاها أمِّي قبل أن تُساقَ إلى مركز الشرطة.

ـ انظري.

كان مجسَّمَا الباكو والدمية سليمَيْن، أمَّا المنحوتات التجريديَّة الثلاث، فإمَّا انكسرت أو تصدَّعت. ولم يكن نداءُ الجَدّ بباعثٍ من تكسِّرها، وإنَّما لأنَّها حين تصدَّعت وانكسرت، كشفت عمَّا خُبِّئَ بداخلها، وقد فهمتُ الأمرَ فورًا.

ـ أتساءَل ما هذا.

بحَذَرٍ، رفعت المنحوتات الثلاث بيديَّ، وصففتُها على الطاولة. جلسنا، وأخذنا نتأمَّل صامتيْن لبرهةٍ ما يتجاوز من صدوعها.

ـ هل تريدُ منِّي أن أُخرجها؟

ـ فكرةٌ سديدة. لا فائدة من الاكتفاءِ بالنظر إليها هكذا. لكنْ حذارِ. ربَّما يكون في الأمر خطورة.

ـ كلَّا. ما دامت أمِّي هي من صَنَعها.

أخرجتُ محتواها، شيئًا شيئًا، بواسطة إبهامي وسبّابتي.

أحدها كان قطعةَ ورقٍ مستطيلةً مثنيَّةً عدَّة ثنياتٍ. وقد اصفرَّت وكادت تتمزَّق من جهةِ ثنياتها. وفيها خُطَّت حروفٌ وأرقام.

أمَّا الشيء الثاني، فكان لوحًا معدنيًّا مربَّعًا، في حجم لوح شوكولاتة. ومن كلٍّ جانبٍ منها، تصطفُّ ثقوبٌ صغيرةٌ بعضها لصق بعض.

أمَّا الثالث، فكان غمدًا من بلاستيك يحوي حبوبًا صغيرةً مستديرةً وبيضاءَ كعقاقيرِ دواء.

قلت بعدما أخرجتُها جميعًا:

. لقد أخفتْها والدتي داخل هذه المنحوتات.

. يبدو ذلك.

أخذ الجَدّ يتأمَّلها موضوعةً على الطاولة، من زوايا عديدة. جمعتُ كسورَ المنحوتات كلِّها. بحثتُ فيها بعناية، لكنَّني لم أجد شيئًا آخر.

. هل تظنُّ أنَّ آل إنوي كانوا على علمٍ بما فيها؟

. لو علموا، لأخبروكِ بذلك ساعة سلَّموكِ المنحوتات.

. صحيح. لقد ظلَّت إذن هذه الأشياء حبيسةَ المنحوتات طيلةَ خمس عشرة سنة من دون أن يكشفها أحد؟

. أجل. بلا شكّ.

مستنديْن بمرفقيْنا إلى الطاولة، تأمَّلنا الأشياءَ مرَّةً أخرى صامتَيْن. لم يكن موقد القبو يشتغل كما ينبغي، فما انفكَّت حرارة الجوّ

ترتفع. الثلج يضرب زجاج المنْور، والسماء لا تظهر. وبين الفيْنة والأخرى، يصدر صريرٌ عن سطح النهر المتجمِّد.

عرفت فورًا أنَّها من الأشياء التي كانت تخفيها أمِّي في أدراجها السرِّيَّة.

لم يكن بين قطعة الورق واللوح المعدنيّ، والحبوب البيضاء، أيُّ رابطٍ ظاهرٍ، لكنَّها كانت تبدو جميعًا محفوظةً وسرِّيَّةً وعذبة.

سألته:

ـ ماذا تُرانا فاعلَيْن؟

ـ أرى...

بسط الجَدّ ذراعه ليأخذ اللوحَ المعدنيّ. لكنَّ يده المرتعشة ارتعاشًا لا يُلحظُ، لم تمسك إلَّا الهواء. وكلَّما حاول الدنوّ من الأشياء

الموضوعة على الطاولة، إلّا وبدا أنَّ ذراعه تقصد وجهةً لا يمكن توقُّعها.

سألته:

ـ ما الخطب؟

فسارع إلى إمساك يمناه بيسراه ووضعهما على ركبتيْه.

ـ لا شيء. إنَّما فقط متوتِّرٌ إذ أرى هذه الأشياء غير المعتادة.

ـ هل ذراعك مصابة؟ دعني أرى.

ـ كلّا، كلّا. اطمئنِّي، لا شيء يستحقّ القلق.

مال الجَدُّ بجسده، بحيث يخفي ذراعه اليمنى.

. لا بدَّ من أنَّه التعب. لنترك القبو اليوم، ونصعد لنستريح قليلًا.

وافقني صامتًا.

. على أيِّ حالٍ، سنحمل معنا هذه الأشياء إلى الغرفة السرِّيَّة، فهي المكان الوحيد حيث تستطيع أن تستعيد وجودها.

* * *

سألني ر:

. هل صنعتْ أمّك منحوتاتٍ أخرى غير هذه، أثناء الفترة الفاصلة بين لحظة استدعائها من طرف شرطة الذاكرة ولحظة اقتيادها؟

أجبته:

. لا أدري. لكنْ أظنّ أنَّ في المنزل ليس ثمَّة إلَّا هذه التي عهد بها إليّ آل إنوي.

ربَّتَ على مفرش السرير. وعليه، كانت معروضةً الأشياء الثلاثة التي اكتشفاها في القبو.

. لأنَّ كلّ المنحوتات التي تركَتْها لي أو لأبي، كانت قد صنعَتها مدَّةً طويلةً قبل استدعائها.

. ولا مكان آخر يمكن أن تُخفي فيه أمّكِ منحوتاتها؟

. المكان الوحيد الممكن، هو الشاليه، باتّجاه منبع النهر، لكنَّني لم أذهب إليه منذ سنواتٍ طويلة. لا بدَّ من أنَّه قد صار خربة.

. لا بدَّ من أنّها قد خبَّأت المنحوتات هناك. أو بالأحرى، خبَّأت في منحوتاتٍ بعضًا من الأشياء التي اختفت، لكي تُبعدها عن أيدي رجال الشرطة.

وضع يديْه الاثنتيْن على السرير، وشبك قدميْه في اتِّجاهٍ آخر. صرَّت نوابض السرير.

رفعتُ عينيّ إليه:

ـ لذا أُفرغت الأدراج في غفلةٍ منِّي؟

ـ نعم.

تناول أوَّلًا قطعة الورق المستطيلة. فَرَدها برفقٍ على راحة يده، إذ كانت لتتمزَّق عند أدنى حركةٍ مباغتة.

سألني:

ـ هل تتذكَّرينها؟

أجبته متنهِّدةً:

ـ كلَّا.

قال:

- إنَّها تذكرة عبَّارة.

كان صوته خافتًا وعذبًا.

- تذكرة عبَّارة؟...

- تمامًا. تأمَّلي. لقد كادت تنمحي، لكنَّ الوجهة والسعر مطبوعان هنا. إنَّها تذكرةٌ باتِّجاه الجزيرةِ الكبيرةِ شمالًا. على كلِّ راكبٍ أن يقتني مثلها قبل الصعود على متن العبَّارة التي كان يعتني الجَدُّ بصيانتها.

حبستُ أنفاسي، وحدَّقتُ من دون أن أرمش في التذكرة التي اتَّسخت بعض الشيء. وفي وسطها، كان مرسومًا هيكل العبَّارة اللعوب وهي تمخر عباب البحر. ما كان اسم العبَّارة؟ أيَّام كان يسكنها الجَدُّ، كانت الحروفُ المرسومةُ على بدنها قد تقشَّرت من

طول تعرُّضها لرذاذ البحر. وعلى التذكرة أيضًا، كادت الحروف تنمحي.

. لا أتذكَّرها حقًّا، لكنْ أشعر أنَّ سطح ذاكرتي يرتجف.

عيناي يعصرهما الألم، أشدّ فأشدّ، حتى إنَّني وددتُ لو أُغمضهما. لكنَّني صبرتُ كي لا يتصلَّب سطحُ ذاكرتي من جديد.

. لا أستطيع استعادة ذكرى هذه الورقة. إنَّه شعورٌ أرهفُ وأبعدُ احتمالًا. ذاكرتي لا تضاهي ذاكرتك.

. تظنِّين؟ سوف أستخرج منكِ الذكرى بحذرٍ بالغ. حاولي أن تتذكَّري شيئًا، أيّ شيء.

وضع راحتيْه مفتوحتيْن على ركبتيَّ. وتلامست أكتافُنا.

. أتذكَّر مشهدًا واحدًا. لا أتذكَّر شيئًا مهمًّا، لا أتذكَّر مثلًا أين وكيف بيعت التذكرة، ولا وظيفتها. أتذكَّر فقط هيئتها في دُرْجٍ من الأدراج السرِّيَّة في القبو.

كانت التذكرةُ مطويَّةً، تمامًا كما هي الآن، تبدو خجلانةً وسط الدُّرج. وحين سحبتُ مقبض الدُّرج، ارتجفت الورقة كأنَّما بوغتَت. وفَرَدَتْها أمِّي، برفقٍ، كما فعلْتَ. كان القبو دومًا مظلمًا، لأنَّ المنوَر يجعل ضوءَ القمرِ خافتًا. وفي كلِّ موضعٍ منه، كانت متناثرةً نشارةُ الخشب، وشظايا الحجر والجبص. وفي الأرجاء، يطفو همس النهر، كما همس الليل. ويدا أمِّي الغليظتان اللتان تبدوان دافئتيْن، كانتا ملطَّختيْن، يكسوهما العجينُ وآثار الإزميل. أظنُّ أنَّني أنا أيضًا لمست التذكرة. أخذتها بأصابعي، برفقٍ، وأنا أنقل نظرتي بينها وبين وجه أمِّي. وقلبي يخفق بعنفٍ. ليس من المتعةِ أو اللذَّة، ولكن لأنَّني أخشى أن تنفلت الورقة من يدي فتطير عبر شقٍّ إلى الفضاء. لكنَّ أمِّي كانت تبتسم، فتشجِّعني ابتسامتُها. لم تكن التذكرة الرقيقة الخشنة تختلف في شيءٍ عن أيِّ ورقةٍ بالية ملقاةٍ في سلَّة النفايات.

فما كنتُ أعرف لِمَ كانت أمِّي تحتفظ بها بذاك القَدْر من العناية. ولأنَّني لم أكن أريد أن أُحبطها، فقد أخذتُ الورقةَ أنا أيضًا بحَذَر.

وبعدما تكلَّمتُ دُفعةً واحدة، وضعت يديَّ على صدري منحنيةً بالنصف الأعلى من جسدي. كنت أتنفَّس بمشقَّةٍ، لما بذلته من جُهدٍ في التركيز على نقطةٍ من ذاكرتي. ألمٌ يخترقني حتى ينفذ من ضلوعي.

- لا ينبغي أن تبالغي. يجب أن ترتاحي قليلًا.

وضعَ التذكرةَ على السرير، وفي يدي كأسَ شايٍ. لقد بدأ مخزون الشاي ينفد منَّا، لدرجة أنَّنا مؤخَّرًا صرنا لا نحمل إلى شفاهنا إلَّا ماءً ساخنًا ملوَّنًا تلوينًا خفيفًا، لكنَّه يؤدِّي وظيفته المهدِّئة على أيِّ حالٍ.

ـ الأمر دائمًا هكذا، أليس كذلك؟ لا أستطيعُ البتَّةَ أن أتذكَّر شيئًا يرضيك!

ـ ليس المهمّ إرضائي، بل المهمّ إيقاظُ قلبكِ النائم.

ـ قلبي نائم؟ لو كان نائمًا فحسب، لكان الأمر يسيرًا؛ لقد انمحى، اختفى.

ـ كلَّا، كلَّا! ألم تتذكَّري قبل قليلٍ ذكرياتٍ ترتبط بتذكرة العبَّارة؟ مقبض الدُّرج، راحةَ كفِّ أمّك، حريرَ النهر.. أليس كذلك؟

قام، وضبط نور المصباح، ثم جلس مرَّةً أخرى على السرير. وكانت الغرفة السرِّيَّة مرتَّبةً كما كانت من قبل الهزَّة الأرضيَّة. المرآةُ، وموسى الحلاقة، وقوارير الدواء، كلّها كانت في مكانها على الرفّ. لم يُغيَّر إلَّا لوحٌ من ألواح البوَّابة.

انتبهت إلى أنَّنا ما زلنا على السرير. سريرٌ بسيطٌ ومتين، صنعه الجَدُّ على عجلٍ. وعليه غطاءٌ ناعمٌ، كنت أحرص على تنظيفه مرَّةً كلّ ثلاثة أيَّامٍ. لم نكن نملك سوى هذا المكعَّبِ مكانًا. داخله نتحدَّثُ ونأكل ونتبادل النظر، ويتلاقى جسدانا.

تأمَّلتُ مجدَّدًا الفضاءَ الوحيدَ المنذور لنا. كان ضيِّقًا للغاية. لا يُعوَّل عليه.

قال لي:

- حين تتحرَّك مياه قلبك من جديد، لا بدَّ من أن ترغبي في وصف إحساسكِ آنذاك. لأنَّ تلك هي الطريقة التي لطالما كتبتِ بها رواياتكِ، أليس كذلك؟

تناول اللوح الفضيَّ الشبيه بقطعة شوكولاتة الموضوع بجانب التذكرة، لكي يحمله إلى فمه. وكنت أنا دهشةً أتساءلُ ما إذا كان

اللوح شيئًا يؤكل، فجعل هو يشهق فيه ويزفر بعينيْن ضاحكتيْن. وعلى الفور، انطلق من اللوح المعدنيّ صوتٌ.

صحت متعجِّبة. لكنَّه لم يكن يستطيع أن يُجيبني لأنَّ شفتيْه كانتا ما تزالان مزمومتيْن. فقط الأصوات الصادرة عن اللوح المعدنيّ ما تزال تُسمع. كان صوتُه مختلفًا عن صوتِ صندوق الموسيقى. صوتُه الثقيل يتردَّد بقوَّةٍ حتى يغطِّي أركانَ الغرفة. لكنَّه أحيانًا يصير شجيًّا، يرجِّفه الحزن.

ولم يكن يتردَّد منه اللحن نفسه، وإنَّما في كلِّ مرَّة يختلف تعبيره.

كان يُمسك اللوحَ المستطيل لصق شفتيْه، ويحرِّكه يمنةً ويسرة. وكلَّما نفخ فيه يمينًا صار الصوتُ أحدَّ؛ وكلَّما نفخ فيه يسارًا صار الصوتُ أغلظَ. ولأنَّه كان يحجبه بيديْه، فقد كان ينتابني الانطباع بأنَّ الصوتَ يخرج من شفتيْه.

ثم خفض يديْه، وقال:

ـ إنَّها هارمونيكا.

ـ ها ـ ر ـ مو ـ نيـ ـ كا..

نطق الكلمةَ مقطعًا مقطعًا كأنَّما يسقيني الماء من شفتيْه.

للكلمةِ رنَّةٌ رومانسيَّة. كأنَّه اسمُ قطَّةٍ صغيرةٍ ذكيَّة، بيضاء بالكامل، وعلى قوائمها وبرٌ طويل.

ـ إنَّها ليست قطَّة. إنَّها آلةٌ موسيقيَّة.

وضعها في يدي، فأدركت بوضوحٍ أكبر مدى صِغرها. كان الصدأ قد طالها في عدَّة مواضع، لكنْ في ضوء المصباح، كانت تبرق بأشعَّةٍ فضِّيَّةٍ متألِّقة. وفي وسطها نُقشت حروفٌ، لا بدَّ من أنَّها تدلّ على اسم الصانع. وفي الموضع الذي كان ر قد وضع

عليه شفتيْه، ينتظمُ صفَّانِ من الثقوب، أشبهَ ما تكون بقُرص عسل النحل.

قال لي:

- انفخي فيها لتَري بنفسك.

- إه.. لن أتمكَّن أبدًا.

- بلى، تستطيعين. أنا متأكِّدٌ من أنَّكِ كنت تعزفين عليها أيَّام طفولتك. ما دامت أمّك قد احتفظت بها بعناية. هيَّا، حاولي. الأمر أشبهُ ما يكون بعمليَّة التنفُّس. المسألة بسيطة، كما ترَيْن.

رفعتُ الهارمونيكا إلى فمي ببطءٍ. أحسست بها ما تزال تحتفظ بدفءِ شفتيْه. حاولتُ أن أنفخ فيها برفقٍ، فلمَّا انطلق منها صوتٌ أقوى ممَّا توقَّعتُ، أبعدتها عنِّي فورًا.

ـ ها أنتِ ترين كيف أنَّ الصوت يخرج منها بسهولة.

كان يبتسم.

ـ هنا، دو. وهنا، ري، ثم مي. حين ننفخ، حين نعبُّ الهواء، ثم ننفخه، بشكلٍ متوالٍ، نحصل فورًا على: دو ري مي فا سول لا سي دو.

ثم عزف عدَّة مقطوعات. منها ما أعرفه، ومنها ما لا أعرفه، لكنَّها أراحتني جميعًا.

على أيِّ حالٍ، مضى عليَّ زمنٌ طويلٌ لم أسمع فيه آلةً موسيقيَّةً على هذا القُرْب. حتى إنَّني نسيت شكلها. صحيحٌ أنَّني كنت في طفولتي أملك هارمونيوم. وكانت تعلِّمني العزفَ عليه امرأةٌ ناضجة، بدينةٌ وسريعةُ الغضب. لم يكن إملاءُ النوتات نقطةَ قوَّتي، فكان يعتريني القلقُ والتوتُّر، وأنكفئ على الهارمونيوم الذي يحجبُ غطاؤه

نصفَ وجهي. كنت أسمعُ الألحان نفسها: دو مي سول أو ري فا لا. حين كنَّا نعزف معًا، حريصتيْن على ألَّا نضغط بقوَّةٍ على المفاتيح، تجنُّبًا للإزعاج، كنت أكتفي بحفظ ماء وجهي، بأن أحرِّك أصابعي كما ينبغي. وعلى الحقيبة التي كنت أضع فيها دفاتر النوتات، والتي صنعتها لي أمِّي، أُلصِقَ موتيف دبدوب على رأسه تفَّاحة. أين اختفى الهارمونيوم والحقيبة؟ كلَّفتنا الآلةُ الموسيقيَّة سعرًا باهظًا، لذا أذكر أنَّ أمِّي تذمَّرت كثيرًا حين تخلَّيتُ عن الدروس بعد أقلّ من سنة. ولمدَّةٍ، ظلَّت الآلة الموسيقيَّة تستخدم قاعدةً للتماثيل، بعدما وُضع عليها غطاءٌ، ثم ما لبثْ أن اختفت. لذا، لم تكن جميع الأشياء تحتاج حدوث اختفاءٍ لكي تنمحي بهدوء...

كان ر منكفئًا، كتفه اليمنى منحنيةٌ قليلًا، كان خافضًا عينيْه يعزفُ على الهارمونيكا. شعره المسدل على جبينه يكاد يلامس رموشه. كان بارعًا في العزف. لم يُخطئ ولا مرَّةً. يعزف مقطوعاتٍ مختلفةً، بإيقاعاتٍ متنوِّعةٍ بين السريع والبطيء، والمرِح والشجيّ.

وبين الفينة والأخرى، يتركني أعزف. لم أكن أريد، كنت أخجل من سوء عزفي، لكنَّه قال لي إنَّه يريد أن يرتاح بينما ينصت إلى عزفي. فلم يكن لي إلَّا أن أنفخ في الهارمونيكا، متردِّدةً، التهويدات وأناشيد الأطفال التي كانت تغنِّيها لي مربِّيتي. كنتُ خرقاء بحقّ. أين فا؟ أين سي؟ لم أكن أتمكَّن من إيجاد المسافاتِ الفاصلة، وكذلك نفَسي، لم أعتد أن أتحكَّم في مقاديره، لذا كان يُصدر صريرًا أو صوتًا راجفًا كأنَّما يوشك أن يضمحلّ. لكنْ كلَّما أنهيت مقطوعةً كان ر يتلطَّفُ فيصفِّق لي.

كنَّا نوجد في مكانٍ مناسبٍ تمامًا لعزف الهارمونيكا. لا صوتَ يصلنا من الخارج، والهاتفُ لا يرنُّ، ولا أحدٌ يأتينا، والجَدُّ قد نام في الغرفة اليابانيَّة بالطابق السفليّ؛ وصوت العزف يتردَّد حتى زوايا الغرفة، وبوسعنا أن نبقى هنا ما طاب لنا. وبما أنَّ هواءَ الغرفة شحيح، فكلَّما عزفنا شقَّ علينا التنفُّس، فكنَّا نقف ونفتح فمَوَيْنا مقابل نظام التهوية، ونتنفَّس بعمق.

وبعدما فرغنا من عزف المقطوعات التي كنّا نعرفها، أرَحنا الهارمونيكا، وانصرفنا إلى الشيء الثالث. فتح الكيس البلاستيكيّ وأخرج منه الحبّات البيضاء. يبدو أنَّ البِلى قد طال الكيس المصفرّ، من دون أن يصيب محتواه.

سألته:

. أليس هذا دواء؟

. كلّا، إنّها حبّات «رامون»، لقد حفظتْها أمُّك بعناية.

كانت مستديرةً، ومجوَّفةً قليلًا من الوسط، ومغطّاةً ببودرةٍ بيضاء. أخذ برفقٍ إحداها، ثم دسَّها بغتةً بين شفتيَّ. من شدَّة المفاجأة، غطّيت فمي بيديَّ. وكان يضحك باديَ الرضا.

الطعم شديد الحلاوة، حتى ليكادُ يكون حارقًا. حرَّكتُ لساني لأستلذّ الطعمَ أكثرَ، لكنَّ الحبَّة ذابت من فورها.

سألني ر:

ـ هل كانت لذيذة؟

وكان الإحساس خاطفًا، حتى إنَّني صمتُّ، مكتفيةً بهزِّ رأسي، زامَّةً شفتيَّ، كي لا يضيع الطعم.

ـ إنَّها أقراصٌ بنكهة الليموناده. عندما كنّا أطفالًا، كانت تُباع في كلِّ المحلَّات. كانت تغزو الجزيرة. أمَّا الآن، فما عاد منها غيرُ هذه.

تناول منها حبَّةً، ولا شكّ أنَّها ذابت أيضًا من فورها، إذ ظلَّ ساكنًا يحدِّقُ في الحبَّات الأُخر. وأتساءل كم مرَّ علينا من الزمن ونحن جالسان هناك معًا!

ثم قال قبل أن يُعيدها إلى كيسها البلاستيكيّ:

ـ هيَّا، سوف نتقاسمها مع الجَدّ.

تلك الليلة، حكى لي ر قصَّةَ الأشياء الثلاثة. تذكرة العبَّارة، والهارمونيكا، وأقراص الليمونادة، المصفوفة بالترتيب على أثاث السرير عند رأسيْنا.

حين نتمدَّد على السرير، يبدو لي أصغرَ حجمًا ممَّا يبدو حين نجلس عليه. كان يضمّ جسديْنا، ولا يترك لنا أيّ مساحةٍ فارغة. لكنَّ ذراعيْ ر كانتا طويلتيْن، فتسمحان لي بأن أتقلَّبَ، وأرفع شعري، بل وحتى أن أعطس عطسًا مكتومًا.

لا بدَّ من أنَّ الليل قد تقدَّمَ، لكنَّني لم أكن أرى المنبِّه على الرفّ، إذ يحجبه كتفه. مفتاح المدخل الذي غيَّره الجَدُّ، يبرقُ جميلًا. ونظام التهوية ما يزال يدورُ، لا يستريح.

بادر إلى الكلام:

. على الجزيرة الشماليَّة، كان ثمَّة مرعى. في المروج عند سفح الجبال، كانت تربَّى أبقارٌ، وخيولٌ، وخرافٌ. وتستطيع أن تركب

حصانًا مقابل مبلغٍ ماليّ. صبيَّةٌ من المرعى، تسحب الحصان من رسنه، وتجول بك في المكان جولةً خاطفةً سرعان ما تنتهي. دائمًا ما كنت أصيح بها أن تسير ببطءٍ. وذات يومٍ، أهدتني جولةً فوق جولتي. وفي وسط المرعى، كان مصنعُ جبن. كلّما دخلتُه يُعتصر قلبي. حين أرى الجبنَ يختمر في وعاءٍ هائلٍ يشبه خزّان الوقود، لا أستطيع كبح نفسي من تخيُّلي أسقط فيه. وكان بالإمكان قضاءُ النهار كلّه على المرعى، في لعبٍ ولهو، لكنْ حين تحلّ الساعة الخامسة، ينبغي أن تكون واقفًا على الرصيف. لأنَّ العبَّارة لم تكن تقوم إلَّا بأربع رحلاتٍ في اليوم. على الجزيرة الشماليَّة، يكون رصيف العبَّارة مثل سوق. مثلَّجاتٌ، فشار، تفَّاحٌ بالكاراميل، حلويات وليمونادة. كان ثمَّة كلّ ما يُعجب الأطفال. وأثناء عودة العبَّارة إلى الجزيرة، يتلوَّن البحرُ بأشعَّة الغروب. الشمس وهي تجنح إلى الغروب، تبدو قريبةً حتى كأنَّ اليدَ قد تمسكُها. مقارنةً بالجزيرة الشماليَّة، كانت جزيرتُنا هادئةً ومتوحِّدةً، وحدودها مبهمة. ودومًا ما كنت أدسُّ التذكرةَ في جيب سروالي الخلفيّ. أثنيها بعنايةٍ كي لا

تضيع. ولأنَّني قمت بجولةٍ على الحصان، تكون التذكرة دومًا مكرَّشة.

واصل سرده بلا انقطاع. كان حكيًا مثيرًا، كأنَّما يقصُّ عليَّ حكايةً خرافيَّة، أو كأنَّما أستمع إلى موسيقى رائعة. وبين الفينة والأخرى، كنت أُلقي نظرةً إلى أثاث السرير، حيث الأشياء الثلاثة ما تزال ساهرة. كانت هادئةً حتى ليبدو لي مستحيلًا أن تنطويَ على كلّ تلك القصص التي كان يتفوَّه بها. أرحت مجدَّدًا خدِّي على صدره. كان قد عزف الهارمونيكا في حفل تلاميذ. انكسرت يومها عصا المايسترو، فانفجر ضحك الجميع، وتوقَّف الحفل. جدَّتُه كانت تعطيه قرصَ ليمونادة تُخرجه من جيب مئزرها. وذات يومٍ، أكل منها الكثير فمرضَ. فغضبت أمُّه من جدَّته. وقد ماتت جدَّته من علَّةٍ تؤدِّي إلى ضمورِ العضلات ووَهَنِها شيئًا فشيئًا...

إنَّ سماع قصص الأشياء التي اختفت يُرهق بعض الأعصاب، لكنَّه لا يخلو من متعة. كان يصعب عليَّ تمثُّلُ كلِّ ما يحكيه، لكنَّ

الأمرَ لم يكن يزعجني. كنت أفعل مثلما كنت أفعل أيّام الأسرار الماضية مع أمّي في القبو: أرخي أذنيَّ ببراءة. فينتابني شعورٌ كما لو أنَّني أبسط تنُّورتي إلى السماء كي أتلقَّف بها كلّ ما تسقطُه الآلهة من شوكولاتة!

٢٢

عزمتُ أن أذهب يوم الأحد التالي إلى الشاليه مع الجَدّ. إذ اعتقدتُ أنَّ ر قد يكون محقًّا في ظنِّه، فتكون أمِّي قد خبَّأت بالشاليه منحوتاتٍ أخفت فيها أشياءَ سرِّيَّة.

نسمِّيه شاليه، لكنَّه في الواقع ليس سوى كوخٍ ريفيٍّ ضيِّق، كانت أمِّي فيما مضى تستعمله مَشغلًا في فصل الصيف فقط. ومنذ وفاتها، صار مهجورًا لا يأتي إليه أحدٌ، لا بل مع الهزَّة الأرضيَّة، قد يكون الآن خرابًا.

انطلقنا أنا والجدّ في الصباح الباكر، كلٌّ منَّا يحمل على ظهره حقيبةً بها قربةُ ماءٍ ومزوَد طعام. مثل عائلةٍ تقصد البادية لتتزوَّد بالخُضار، استقللنا القطار، فلمَّا بلغنا الشاليه، بعد ساعةٍ كاملةٍ مشينا فيها على الدرب الجبليّ المحاذي للنهر، كان النهار قد انتصف.

ـ حالته مزرية.

كان الجَدُّ قد وضع حقيبتَه على الثلج، وجعل يمسح وجهَهُ بالمنشفة المعلَّقة في حزامه.

ـ أسوأ ممَّا تخيَّلنا، أليس كذلك؟

وكنت أنا جالسةً على صخرةٍ من صخور قعر النهر، أشربُ الماء من قربتي.

كان المكان قد فقد تقريبًا كلَّ شَبهٍ بهيأة بناء. لم نكن ندري حتى من أين يُؤتى بابُه، وينتابنا الانطباع أنَّ دفعةً خفيفةً غير حذرةٍ قد تجعله ينقضُّ في صَخَبٍ عنيف. السقف انحنى من ثقل الثلوج المتراكمة عليه، والمدخنة نصف مكسورةٍ، وهنا وهناك على الطحالب التي تغطِّي الألواح، نبتَ فِطرٌ زاهي الألوان.

أكلنا طعامنا أوّلًا، ولم ننطلق إلى العمل إلّا بعد قسطٍ من الراحة. إن بقينا في الخارج بعد غروب الشمس قد نوقظ شكوك رجال الشرطة، لذا علينا أن نُسرع في العمل.

نزعنا بدايةً خشبَ ما كان يُفترض أنَّه بابٌ، ودخلنا. وكانت الأرضيَّة مليئةً بشتَّى الأشياء الخطيرة: مسامير، سكاكين، أزاميل، مبارد نحت. ولما كان السقف مثقوبًا من جهةٍ سقط منها لوحٌ، فقد سرنا بحذرٍ مهتديَيْن بضوء المصباح الكهربائيّ.

- انظُر، ما هذا؟

نطقتها تقريبًا صيحةً. تحت منضدة الشغل، كانت كومةٌ تشعّ بمظهرٍ مختلفٍ عن ذاك الذي يشعّ به الركامُ المحيط. كومةٌ بها بعضُ لزوجةٍ ورطوبةٍ، وتبدو ليّنةً، مع شيءٍ من خشونةٍ في غير ما موضعٍ منها، شكلُها غير منتظمٍ وريحُها تبعث على الغَثَيان. وقد سلَّط عليها الجدُّ ضوء المصباح الكهربائيّ.

أجابني ببرود:

ـ إنَّها جثَّة.

ـ جثَّة؟

ـ نعم، جثَّة قطٍّ بلا ريب. قطٌّ تائهٌ أتى يلقى حتفَه هنا.

بعد دقيقِ ملاحظةٍ، وقفنا على أنَّ لحمَ الرأسِ والبطنِ قد ذاب، فبرزت العظامُ، أمَّا القوائم والأذنان فما تزال تشير إلى أنَّها قوائمُ قطٍّ وأذُناه. شبكنا أيدينا نصلِّي للقطّ المجهول، ثم انصرفنا إلى العمل متجنِّبيْن ما أمكن النظرَ ناحيتَه.

كانت المنحوتات مخبَّأةً في كلِّ مكانٍ من الكوخ. ولم يصعب علينا أن نُميِّز فيها تلكَ التي صُنعت بغاية إخفاء «أشياء». إنَّ المنحوتات المنطوية على «أشياء» قد صُنعت من خليطٍ من قطع

الخشب والأحجار، لكي يسهل استخراج مخبوءاتها؛ وكان شكلها تجريديًّا، كما أنَّ بعضَها قد تصدَّع فانكشفَ مخبوؤُه.

ملأنا حقيبتَي الظهر بالمنحوتات، وحين امتلأت أخرجنا كيسَ السفر الذي كنَّا قد أعددناه للأمر.

لم نكن نملك ما يكفي من الوقت لكسرها واحدةً بعد أخرى، وفحصِ محتواها. ومن الإحساسات التي كانت تتلبَّسنا ساعةَ تناولِها، كنَّا نعرف ما إذا كانت تحوي «أشياء» اختفت أم لا.

أنهينا العمل في ساعتيْن أو يزيد. امتلأت حقيبتا الظهر وكيسا السفر. فكَّرنا في أن ندفن القطّ في موضعٍ ما من الأرجاء، لكنَّنا عدلنا عن ذلك في نهاية المطاف: إنَّه سيُدفنُ عاجلًا أم آجلا في الثلج الذي لا بدَّ من أن يغطِّي الكوخ الآيل إلى زوال. وأثناء نزولنا الدربَ المحاذيَ للنهر، توقَّفتُ، ووضعت الحقيبة والكيس على الأرض، والتفتُّ شطرَ الشاليه الذي قطعًا لن أعود إليه.

عرض عليَّ الجَدُّ:

. هل تريدين أن أحمل عنكِ الكيس؟

. كلَّا، لا داعي. أشكرك.

وانطلقنا صوب المحطَّة، هناك، بالأسفل.

كانت المحطَّةُ، مع اقتراب موعد القطار السريع، غاصَّةً بالركَّاب. نساءٌ عائداتٌ من النزهة، ومسافرون، وفلَّاحون حمَّلوا خضارهم صوب المدينة. الجميع يتكدَّسون في غرفة الانتظار، مرهقين بأمتعتهم الثقيلة. الجميع يبدو عليه القلق والحذر. والمحطَّة ضاجَّةٌ بالهياج.

سألته وأنا أنقل كيس السفر من يسرايَ إلى يُمناي:

. هل القطار متأخِّرٌ عن موعده؟

ـ كلَّا، يا آنستي، إنَّه تفتيش.

* * *

أغلق رجالُ شرطة الذاكرة شبابيكَ التذاكر، وأمروا الناس بأن يصطفُّوا في صفَّيْن. وحول المدار الطرقيّ أمام محطَّة القطار صُفَّت الشاحناتُ بأغطيتها الخضراء الداكنة. وقد أطاع الموظَّفون أوامر الشرطة، فانتحوا بأنفسهم جانبًا، وجلسوا على المقاعد في بهو المحطَّة، كي لا يعيقوا الشرطة عن عملها. القطارُ واقفٌ عند الرصيف، لكنْ لا شيء يوحي بقرب انطلاقه.

«ماذا عسانا نفعل؟»

رفعتُ إلى الجَدِّ عينيَّ صامتةً.

همس لي سريعًا:

ـ لا ينبغي أن نُبدي أيَّ اضطرابٍ، لنقصد بأسرع ما يمكن طرفَ الصفِّ الأقصى.

تركنا الموجة البشريَّة تدفعنا، وتتجاوزنا، فتراجعنا تدريجيًّا حتى ضَمِنًّا أن نكون في المرتبة العاشرة قبل آخر الواقفين.

أمامنا مباشرةً، كان فلَّاحٌ يحمل قفصًا من قصب البامبو يفيض بالخُضار والمعلَّبات، واللحم المقدَّد والجبن. تحلَّب فمي شهوةً لمنظر الطعام البديع. وخلفنا امرأةٌ وابنتها، تبدو عليهما أمارات الثراء، تحملان حقائبَ. البنت تتدرَّج شيئًا فشيئًا صوب المقدِّمة. رجال الشرطة يجوبون بهوَ المحطَّة، جيئةً وذهابًا، أسلحتُهم طوع أيديهم، وعيونهم علينا. كانت ظُهور المسافرين تحجب عنِّي ما يجري، لكنْ كان جليًّا أنَّ شرطة الذاكرة تراقب هويَّات الركَّاب وتفحص أمتعتهم.

- كثُرت المراقبة هذه الأيَّام، أليس كذلك؟

- بلى، مع أنَّ في محطَّةٍ قرويَّةٍ كهذه، لا يمكن أن يوجد شيءٌ يستحقُّ المصادرة.

ـ كلّا، يُقال إنَّ من الأيسر للمرء أن يلتجئ إلى الجبال، من أن يختبئ في المدينة. لذا، عزَّزت الشرطة مؤخَّرًا من وجود مُلاحقي الذكريات في البادية. يروَّج أنَّهم، منذ مدَّةٍ يسيرةٍ، قد ألقوا القبض على هاربٍ لاذَ بمغارةٍ في الجبل.

ـ لكنَّ الأمرَ مزعجٌ بالنسبة إلينا. يُستحسن لو أسرعوا.

كان الناس يتهامسون، لكنْ ما إن تقع عيونهم على عيون رجال الشرطة حتى يلوذوا بالصمت خافضين أبصارهم.

همس الجَدُّ:

ـ إنَّ ما يريدون فحصَه بدقَّةٍ هو الهويَّاتُ، لا الأمتعة.

وكان قد انحنى متظاهرًا بشدّ حزام سرواله.

ـ وثائقنا قانونيَّة، ولا مشكلة فيها. اطمئن.

مؤكَّد أنَّهم كانوا يتمهَّلون في فحص وثائق الهويَّة. يقلِّبونها، ويفحصونها على ضوء الكشَّافات، ويقارنون مرَّاتٍ عديدة الصورة بالأصل، يتأكَّدون من سلامتها، ويروْن ما إذا كان الرقم مسجَّلًا في «اللائحة السوداء». أمَّا الأمتعة، فيفتحونها ويلقون عليها نظرةً عَجْلى.

على أنَّ أمتعتنا نحن لم تكن تحوي ملابس غياراتٍ، ولا سترات، ولا بسكويتًا، ولا كُرز زينةٍ. وإنَّما أشياء شتَّى ممَّا انمحى من الذاكرة منذ زمنٍ بعيد، أشياءُ نحن أنفسنا ما عدنا نستطيع تسميَتها أو شرح ما هي.

شددتُ سُيور حقيبة الظهر، وقبضت بقوَّةٍ على كيس السفر. لا بدَّ من أنَّ الأشياءَ فزعةٌ بعدما أيقظناها بغتةً وبعنفٍ من سباتها الذي طالَ وسط منحوتاتٍ أُخفيت في كوخٍ متداعٍ. كان ينتابني الانطباع بأنَّها ترتجف، وأنَّ رجفتها تسري في ظهري ويديَّ.

- دعيني أتولَّ الأمر يا آنستي، ولا تنطقي بكلمة.

كنت أتساءلُ كيف ينوي أن يبرِّر وجود منحوتات في حقائبنا. قد يشكّ رجالُ الشرطة في كونها منحوتاتٍ. ستكون بالنسبة إليهم مجرَّد أشياءَ مشبوهة. ثم ماذا لو انتبهوا إلى منحوتةٍ مصدوعة... بالطبع، كنَّا قد احتطنا، فوضعنا ما كان مصدوعًا منها - بالأسفل كيلا يُكشف شيءٌ من الأشياء التي تحويها، لكنْ إن هم أعملوا أيديهم في الحقائب، أو قلبوا محتواها، فسيُقضى علينا. لن يكون لنا من مهرب. أردت أن أبتلع ريقي، لكنَّني ألفيت فمي يابسًا ولساني ملتصقًا بأعلى حلقي.

وكان دورنا يقترب بسرعة. صفَّرَ القطار مرَّةً. فاهتاج لصفيره الجميعُ. كان موعدُ انطلاق القطار قد فات منذ مدَّةٍ طويلة، والليل يقترب. لا بدَّ من أنَّ الناس قد انزعجت من حبسها فجأةً في هذا المكان، وضياع برامجها! كنت أحسدهم. مهما انقلبت مشاريعهم الشخصيَّة، فلن يفقدوا حياتهم.

ـ هيَّا، التالي!

بوجوهٍ باردةٍ أبدًا، ما كان رجال الشرطة يتفوَّهون بأكثر ممَّا يقتضيه الأمر. ومن يمرُّ من الفحص، لا يُمنح الوقتَ للمّ حقائبه، ويُدفعُ دفعًا إلى الرصيف. أمامنا فقط ثلاثة، ثم اثنان فحسب. وكنَّا نقف متلاصقيْن أنا والجدّ.

صاح بغتةً الفلَّاح الواقف أمامنا حين بلغه الدَّوْر:
ـ أخبروني، ما هذا الذي تصنعونه؟

توقَّفتْ حركة الصفّ الذي كان يتقدَّم بطيئًا. حبسَ الجميعُ أنفاسهم، معتقدين أنَّ من العبث الحديث إلى رجال الشرطة بهذه النبرة.

ـ أنا، كما تعلمون، من يزوِّد مقصفَ دوائركم بالطعام. يأمرونني بأن أسلِّم المؤونةَ كلّ يوم أحد قبل الخامسة مساءً. انظروا. إنَّ

عندي إذنًا بالمرور أعطتني إيَّاه الشرطة. ينبغي أن تحرِّكوا هذا القطار على وجه السرعة. في هذه الأثناء، سيكون زملاؤكم يتذمَّرون من أنَّ العشاء غير جاهزٍ. وأنا من سيناله التقريع. تعرفون مدى صرامةِ الشرطة فيما يتعلَّق بالمواعيد. عليكم أن تتَّصلوا بمسؤول المقصف، فتخبروه أنَّ التأخُّر لم يكن بسببي، وإنَّما بسبب هذا التفتيش الذي لا ينقضي!

تكلَّم الفلَّاحُ دفعةً واحدةً وهو يشهر في وجوههم إذن المرور المعلَّق على رقبته. وفي تلك اللحظة، ترنَّحت الصبيَّة التي كانت تقف خلفنا، ووضعت منديلًا على فمها ثم خرَّت.

صاحت الأمّ:

ـ آه.. يا ويلتي! إنَّها أزمة أنيميا. إنَّ قلب هذه الطفلة ضعيف. هلَّا ساعدني أحدُكم؟

وعلى الفور، مدَّ إليَّ الجدّ كيسَه، وأمسك البنت بذراعيْه ليُنهضها. وتقدَّم البقيَّةُ ممَّن ينتظرون دورهم، بدافعٍ من الفضول لرؤية ما يجري. انهارت الفتاة تمامًا، بينما ما يزال الفلَّاح ماضيًا في تذمُّره.

نحَّى الرجلُ الذي يبدو رئيسهم الفلَّاحَ غاضبًا، ثم صاح:

ـ حسنًا، أشهروا جميعًا هويَّاتِكم بحيث نراها بوضوح، وحين تمرُّون من أمامنا اركضوا سريعًا واصعدوا القطار.

كانت ذراعايَ تؤلمانني لفرط ثقل الحقائب، لكنَّني أخرجت بطاقة هويَّتي بأسرعِ ما يمكنني من جيب معطفي الداخليّ. طلب الجَدُّ من أمّ الصبيَّة المصابة بالأنيميا أن تُخرج بطاقة هويَّته من جيب بنطاله. هكذا، استطاعت المجموعة الباقية تجاوزَ الشبَّاك. لم تُلقِ الشرطة إلَّا نظرةً شكليَّةً على الأوراق، من غير أن تدقِّق فيها أو تفتِّش الأمتعة. وفي خضمّ التدافع العامّ، وتطبيقًا لأوامرهم، وخشيةً من أن يغيِّروا رأيهم، ركضنا مسرعين باتِّجاه الرصيف. الصبيَّة المصابة بالأنيميا لم

تكفّ عن الاعتذار. وانطلق القطار في اللحظة التي تهاوى فيها الجميعُ على المقاعد.

* * *

تلك الليلة، كان الوقت قد جاوز العاشرة، حين استطعنا أخيرًا أن نلتئم حول مائدة العشاء. وكنّا قد فارقنا الأمّ وابنتها عند محطّة المواصلة، كي نستقلّ القطار السريع، ولما وصلنا إلى المحطّة المركزيّة، نهاية رحلتنا، استقللنا الباص إلى المنزل. وطيلة المسار، لم نكد نتبادل كلمة! كانت وسائل النقل كلّها غاصّةً بالركّاب، والجوّ لا يسمح بالحديث الآمن، ثم إنَّ أعصابنا كانت متوتِّرةً بما لا يسمح لنا أن نبتهج بالإفلات من تفتيش الشرطة. حتى الجَدّ المعتاد على أن يشجِّعني في أحلك الأوقات، بدا متعبًا جدًّا، وبالكاد استطاع الجلوس. حتى بعد عودتنا إلى المنزل، ظللنا للحظةٍ ملتبسيْن، جالسيْن على الأريكة في غرفة المعيشة. تركنا الأمتعة على الأرض كما وضعناها. ولم نقوَ على إخراج ما خُبِّئ في المنحوتات.

عَشاءً، اكتفيتُ ببعض المقرمشات، وخيارٍ مخلّل، وتفّاحة. التفّاحة كانت عطيَّةً على سبيل الشكر من عند الأمّ وابنتها.

قلت:

- آسفة، ما من طعامٍ ساخن.

- لا داعي للاعتذار. هذه وجبةٌ مثاليَّة.

مدَّ الجَدّ ذراعه لينتشل قطعةَ خيارٍ بشوكته. بينما كنت أنا أبتلع المقرمشات بالماء، خافضةً عينيَّ، أنظرُ إلى الصحن من غير أن أراه. انتكس الجَدّ مرَّاتٍ عديدةً بعد ذلك. كانت شوكته تتيه مخطئةً هدفها، فيشكّ بها حافَّة الصحن أو مفرش المائدة. فكان يشدّ على شوكته، محاولًا التحكُّم فيها، لكنْ سُدًى. فينحني برأسه، مرتابًا، يقطِّب حاجبيْه، ويحدِّق في الخِيار كأنَّما يريد الانقضاض على حشرةٍ خطيرة.

سألته:

. ما الخطب؟

لكنْ لم يكن يبدو عليه أنَّه يسمعني.

أعدت السؤال:

. ما الخطب؟

لكنَّه كان مستغرقًا في تكرار الحركات نفسها. شفتاه المتدلِّيتان فاغرتان، كانتا زرقاويْن.

. توقَّف يا جدِّي. فهمت ما تريدُه، تريدُ خِيارًا، أليس كذلك؟ هاك، سأناولك إيَّاه بيدي.

لم أعد أطيق تحمُّلًا، فانتزعت الشوكة من يده، وشككت بها قطعة خيارٍ، وضعتُها في فمه.

قال بصوتٍ واهنٍ، كأنَّما للتوّ استعاد وعيه:

ـ آه، هذا لطفٌ منكِ...

ـ هل تحسّ بالتعب؟ عيناك تغمضان؟ ذراعاك تثقلان؟

اقتربت منه، وداعبتُ كتفه. وكانت تلك طريقته المعتادة في إراحتي.

ـ كلَّا. كلَّا. أنا فقط متعبٌ قليلًا.

قضم الخيار بصوتٍ عالٍ.

٢٣

مرَّت عشرةُ أيَّامٍ، وبقدر ما زال عن الجَدّ تعبُ الذهاب والإياب إلى الشاليه، والخوف من التفتيش، استعادَ عافيته. أثناء انصرافي إلى العمل، كان يقوم بكلِّ الأعمال المنزليَّة تقريبًا، لا بل وكان يساعد الجيران في كسح الثلج من أمام منازلهم. استعاد عافيته وقوَّته وشهيَّته وأعصابه، تمامًا كما كان من قبل.

قرَّرنا ألَّا نُخبر ر شيئًا عن التفتيش. كان الأمر ليزيد من قلقه بلا فائدة، فحتى إن عرفَ، ماذا عساه يفعل. مهما ازدادت وتيرة الاختفاءات، وازدادت الشرطة دنوًّا، فليس له إلَّا الاختباء في الغرفة السرِّيَّة.

أراد ر أن يعجِّل بكشف محتوى المنحوتات التي أتينا بها من الشاليه. كأنَّنا صديقان عزيزان لم يقابلهما منذ عشرات السنين، أرهقنا أسئلةً، وظلَّ يطالبنا أن نعجِّل. لكنْ بالنسبة إلينا، أنا والجَدّ،

لم يكن فعلًا ممتعًا تكسيرُ المنحوتات واحدةً بعد أخرى، وكشف «الأشياء» المخبوءة فيها، ثم إنَّنا لم نكن نعرف كيف نفعل.

لم يكن فعلًا مُبهجًا، لأنَّنا نعلم أنَّها قد تحوي أشياءَ نفيسة، وقلبانا نحنُ يظلَّان بارديْن حتى إزاء النفائس، وفي ذلك ألمٌ شديدٌ لـ ر الذي يحاول عبثًا هزَّ قلبيْنا. بالنسبة لنا نحن، أنا والجَدّ، كان أجدرَ نفعًا التفكيرُ في طريقة الحصول على عشاءٍ لثلاثة أشخاصٍ، أو في موعدِ عودةِ مُلاحقي الذكريات. لكنْ، لما كان غيرَ ممكنٍ تركُ الحقائب ملقاةً هناك مهملةً، فقد قرَّرنا أن نبدأ في العمل يوم الأحد التالي.

بدأنا، أوَّل ما بدأنا، بنقل كلّ المنحوتات إلى القبو، ثم وضعناها على منضدةٍ لنضربها بمطرقة. وكان أصعب ما في الأمر التحكُّم في شدَّة الضربة. أحيانًا، كانت تكفي ضربةٌ خفيفةٌ لتنشطرَ المنحوتةُ نصفيْن، لكنْ أحيانًا أخرى، لا يتمّ الأمر لنا باليُسر الذي نريد. فكنَّا نخشى أن نضربها بأقوى ممَّا تتحمَّله محتوياتُها فتنكسر هي

أيضًا. ثم لا ينبغي أن نغفل مسألةَ الضجيج. قلَّما يطرق أحدُهم الطريقَ المحاذية للنهر، لكنْ قد تمرّ من هنا شرطة الذاكرة فترتاب لأصواتِ الطَّرْق المنبعثة من القبو. كنَّا نضرب بالمطرقة بالتناوب حريصَيْن على قوّة الضربة، وزاوية الضرب، وإيقاع الاشتغال. وبينما يشتغل الواحد منَّا بالطَّرْق، كان الآخر يراقب الخارجَ عبر فُرجةٍ في الباب تُفضي إلى المغسل، فإن شكَّ في قدوم أحدٍ، أشار إلى رفيقه أن يوقف الضرب.

في نهاية المطاف، وجدنا في كلِّ منحوتةٍ «شيئًا» مختفيًا. شيئًا من الصِّغَر بحيث كان يمكن ألَّا نلحظه: مغلَّفًا بورقِ برشمان، متداخلَ الحوافّ، مسوَدَّ اللون، مدبَّبًا، ناعمًا، رهيفًا، برَّاقًا، رخوًا... أشياء من كلِّ شكلٍ ولون.

وكنَّا تائهَيْن، لا ندري كيف نباشر تلك اللُّقى. ألن تتكسَّر إن نحنُ شددنا عليها؟ ألا يجدرُ بنا أن نحملها برفقٍ بواسطة ملاقط؟

أيمكننا أن نتركَ عليها آثارَ بصماتنا؟ ما كنَّا نعرف. وليس لنا إلَّا أن نتأمَّلها برهةً ساكنَيْن.

قال الجَدُّ:

ـ لا يبدو عليها أنَّها مكثت تنتظر خمسَ عشرة سنة. إنَّها جديدةٌ كلّ الجِدَّة.

زدتُ تأكيدًا:

ـ أجل، وخاصَّةً أنَّها كلَّها أشياءُ اختفت.

كان ثمَّة من «الأشياء» ما يفوق عدد الأدراج في الدولاب. لا بدَّ من أنَّ أمِّي كانت تتوافر على أماكنَ أخرى تُخفيها فيها. مواصلةً التحديق فيها بمثابرة، استطعت أن أميِّز بينها تلك التي كانت أمِّي تخبِّئها في الأدراج. أتذكَّر تذكُّرًا مبهمًا القصصَ التي كانت تحكيها لي أمِّي. لكنَّ الأمر لم يكن يذهب أبعدَ من ذلك. بُحَيْرةُ ذاكرتي فقيرةٌ ضحلة.

* * *

وحين صعدنا إلى الغرفة السرِّيَّة، حامليْن طَبَقًا وضعنا فيه «الأشياء»، استقبلنا ر أسفلَ السلّم باسمًا.

قلتُ:

. فكَّرنا في أنَّها قد تتصادم فتنكسرُ إن نحن وضعناها في كيس، لذلك أتيْنا بها في هذا الطَّبق.

أجاب وهو يُلقي نظرةً فاحصة على ما نحمله:

. لا داعي لكلّ هذه الاحتياطات، إنَّها أشياءُ تتحمَّل.

كانت الغرفةُ السرِّيَّةُ أضيقَ من أن تسمح لنا بصفِّ الأشياء فيها. لم يكفها الرفّ المسمَّر إلى الحائط، وفاضت على الأرضيَّة. جلسنا ثلاثتنا على السرير محاذرين أن ندوسها بأقدامنا.

. إنَّه أشبهُ بالحلم، لو تعلمان. ما كنت أبدًا لأتخيَّل أن تجتمع كلّ هذه الأشياء أمامي.

ـ آه.. ما أسعدني! أنا أيضًا كنت أملك واحدًا مماثلًا، لكنَّ والدي أجبرني على حرقه بعد اختفائه.

ـ آه.. إنَّه شيءٌ غالٍ جدًّا، يجدر صونه بعناية. حتى وإن كان لا أحد سيشتريه منكما إن رغبتما في بيعه.

ـ هاكما، ما هذا؟ لا تخشيا شيئًا، إنَّ لمسه مُبهج.

ـ أمّكِ قد أحسنت حقًّا إخفاء كلّ شيء. ينبغي أن تكوني ممتنَّةً لها.

كان يتكلّم بلا توقُّف. متناولًا «الأشياء»، شيئًا بعد شيء، مبيِّنًا لنا ذكرياتها، وكيفيَّة استخدامها، ووظيفتها. ولم يكن يترك لي، ولا للجَدّ، فرصةً للتأمُّل.

وحين فرغ من الشرح، وتنفَّس نَفَسًا عميقًا، قلت:

ـ جيِّد جدًّا. سعيدةٌ أنا، لأنَّ هذه «الأشياء» أبهجتك.

ـ كلَّا. لستُ أنا المحتاج إلى الأشياء الموجودة هنا.

قال الجدّ متفكِّرًا:

ـ آه..

ـ إنَّها ستحدث قطعًا تغييرًا في قلبيْكما. أدنى شعورٍ يظلُّ مفيدًا للتذكُّر. إنَّها أشياءُ تُبهج الذاكرة.

تبادلنا أنا والجَدّ النظر قبل أن نخفض أعيننا. كنَّا نفهم جيِّدًا مقصد ر. لكنْ، وإذ صرنا الآن نخشى الانتقال إلى الفعل، أعوزتنا الكلماتُ المناسبة.

ثم بادر الجَدُّ بعد لأيٍ:

ـ إه.. فإن تمكَّنَّا من تذكُّر شيء، ماذا ينبغي لنا أن نفعل؟

أجاب ر:

. لا شيء محدَّدًا. ما من قاعدة. كلّ فردٍ حرٌّ في ذاكرته.

. لكنْ حين يتذكَّر الواحدُ منَّا شيئًا، فإنَّما يحدث ذلك هنا أو هنا، أو ربَّما في كلِّ موضعٍ من الجسم، أليس كذلك؟

كان الجَدّ قد رفع يده مشيرًا إلى قمَّة رأسه ثم صدره.

. قد نتذكَّر شيئًا رائعًا، فإنْ نأيْنا عنه بالنظر مدَّةً، سيختفي. في ذاتنا، نحن عاجزون عن الإحاطة بطبيعة الذكرى. الذكرى لا تخلِّف أيّ دليلٍ يشهد عليها. لكنْ هل من الجيِّد حقًّا، كما تقول، أن نُظهر من جديدٍ الأشياءَ التي اختفت؟

أجاب ر متنهِّدًا:

. أجل. الذكرياتُ مرعبةٌ لأنَّها خفيَّةٌ على العيْن. إنَّها تدفع عن النفس آثارَ الاختفاءات المتكرِّرة. وحتى حين يفوت الأوان، لا يُدرك المرء أهمِّيَّتها. انظري إلى هذا.

تناول حزمةَ أوراق المخطوط الموضوعة على مكتبه.

ـ إنَّها هنا قَطْعًا. في كلِّ خانةٍ حرف. وأنتِ من كتبها. قلبُكِ الخفيُّ صنع هذه القصَّةَ لأجل العيون. ربّما أُحرقت الروايات، لكنَّ قلبك لم يختفِ، ما دمتِ جالسةً هنا أمامي. وكما عملتُما على إنقاذي، أريد أن أردَّ لكما الجميل فأنقذكما.

تأمَّلتُ الأوراقَ التي كان يُمسك بها بين يديْه بشدَّة. رفع الجَدّ أصابعه إلى صدغه كأنَّما يحاول أن يفهم التدليل.

غمغمتُ:

ـ فإن اختفت كلّ الأشياء على الجزيرة، ما الذي سيحدث؟

ظلَّ هو والجَدّ برهةً صامتَيْن. بدا لي أنَّني قد سألتُ سؤالًا غير لائق. كانا يبدوان منزعجيْن، لأنَّني نطقتُ تلك الكلمات في سهوَةٍ

منِّي، بينما كانا صامتيْن، [كأنَّما] بنطقي تلك الكلماتِ صيَّرتها قابلةً أن تتحقَّق، وذاك ما يخشاه الجميع.

قال بعد صمتٍ طويل:

. حتى لو اختفت كلّ هذه الجزيرة، ستبقى هذه الغرفة السرِّيَّة.

من غير نيَّةٍ خفيَّة، أو تصنُّعٍ، كانت نبرةُ صوتِه تفيض عذوبةً. كأنَّما يقرأ كتابةً نُقشت على حجر مسلَّة.

. أليست تحفظ هذه الغرفةُ كلَّ الذكريات؟ الزمرّدة، والخريطة، والصورة، والهارمونيكا، والرواية، وكلّ شيءٍ. إنّ هذا المكان هو بحيرةُ القلبِ العميقة. المكان الأخير الذي ترسو فيه الذكريات.

* * *

مرَّت أسابيع عديدة لم يحدث فيها حادثٌ. تقدَّمتُ في الكتابة على الآلة، حتى إنَّ الشركة بدأت تعهد إليَّ بوثائقَ عديدةٍ أكتبها. التوابل رائجةٌ، وتوسَّعَ النشاطُ فشملَ الجيلي والمربَّى، وحتى الأطعمة

المحمَّدة، فكثُر عليَّ العمل. وفي بعض الأيَّام، كنتُ أعود في وقتٍ متأخِّرٍ جدًّا بسبب الساعات الإضافيَّة، لكنِّي لم أكن أقلق على مشاغل البيت، لأنَّ الجَدّ كان يتكفَّل بكلِّ شيء: التسوُّق، والطبخ، والتنظيف، بل وحتى العناية بـ ر: كان يعمل كثيرًا.

ذات يومٍ، انسدّ أنبوب تصريف المياه المستعملة، وصار مستحيلًا استعمال الماء. في العادة، يكفي اتِّصالٌ بسيطٌ لمصلِّح المجاري ليأتي فيُصلحه، لكنْ بالنسبة إلينا نحن، حتى هذا الفعل البسيط ينطوي على خطرٍ قاتل. تعفَّر الجَدُّ بالقذارة والثلج، لكنَّه مكَّننا في يومٍ ونصفِ يومٍ من العودة إلى استعمال الماء من دون مشاكل.

أذكر كذلك مرضَ ضون. عجبت في البداية من إصراره على حكِّ أذنه لصق جدار وِجاره، ثم لما تأمَّلته، رأيت أذنه تنزّ بسائلٍ أصفر لزج. فلمَّا مسحت أذنه برفقٍ بواسطة قطنٍ مرطّبٍ، أغمض عينيْه وهزَّ أذنيْه في حركةٍ معبِّرة، كأنَّما يقول لي: «آسف، لأنَّني أسبِّب لك متاعب!» لكنْ، بعد نصف ساعة، سالت أذنه من

جديد. لم أكن أدري هل يجدر بي أن آخذه إلى البيطريّ أم لا، تروَّيْتُ قليلًا. إنَّ ضون لم يكن كلبًا عاديًّا، وإنَّما هو كلب الجيران الذين اعتقلهم ملاحقو الذكريات. وأعرف أنَّ شرطةَ الذاكرة تراقب المشتغلين بمهن الصحَّة، لأنَّه واردٌ جدًّا، في حال المرض الخطير، أن يهرع إلى الطبيب حتى المختفي في ملجأٍ سرِّيٍّ. فقرَّرتُ أن أُطلع الجَدَّ على حاله. فإن علموا أنَّ طريق ضون قد تقاطع وطريق مُلاحقي الذكريات، ألن يسبِّب لنا الأمرُ متاعب؟ قياسًا إلى المستوى الذي بلغوه، ربَّما وصلوا إلى مرحلة تحديد جينات الكلاب؟ وحتى إن أنا أخبرتهم أنَّني إنَّما كفلته فقط بباعثٍ من الشفقة، فإنَّ اتهامهم لنا وحده كفيلٌ بأن يُزعجنا. لكنْ لو أنَّ مُلاحقي الذكريات كانوا يولون الكلاب كلّ هذا الاهتمام، لكانوا ساقوا ضون مع من ساقوهم في الشاحنة.

منذ تلك الليلة، عاد رجال الشرطة، مرَّاتٍ عديدةً لأخذِ أشياءَ من المنزل، وفي كلِّ مرَّة، كانوا يتجاهلون الكلب. لذا، ما من داعٍ ربَّما

لكلِّ هذا القلق! فلمَّا خلصتُ إلى هذه النتيجة، قرَّرتُ أن آخذه إلى البيطريّ الذي يُعالج كلاب الحيِّ وقططَه.

وكان البيطريُّ شيخًا مسنًّا ابيضَّ شعرُه، يتكلَّم بهدوءِ قسّ. نظَّفَ أذن ضون، ودهنها بالمرهم، وأعطاه عقاقيرَ لمدَّة أسبوع.

قال مداعبًا رقبة ضون:

ـ إنَّه التهابٌ بسيط، لا خطر منه.

ممدَّدًا على سرير الفحص، لم تكن تبدو على ضون الرغبة في الذهاب. كان يتمطَّى من اللذَّة، رافعًا إلى البيطريّ نظرةً مؤدَّاها: «انتهينا بهذه السرعة! ألا تريد أن تفحصني أكثر؟» كان قلقي مجَّانًا، وقد ارتحنا.

شهدنا كذلك بعض الاضطراب لما حلقَ الجدُّ شعر ر. فبما أنَّه لم يحلق الرأس منذ إقامته بالغرفة السرِّيَّة، فإنَّ منظره لم يكن بهجةً للنظر.

وكانت الحلاقة فوضى عارمة، إذ تمَّت في الغرفة الضيِّقة وسط «الأشياء» المتناثرة.

بسطنا أوَّلًا أوراق جرائد على المساحة الضيِّقة المتاحة، ثم أجلسنا عليها ر، قبل أن نضع حول عنقه منشفةً غطَّيناها بورق بلاستيك وشددناها بمقابض غسيل. كان الجَدّ يتحرَّك بصعوبةٍ في المساحة الضيِّقة، لكنَّه قصّ شعر ر بمهارة. وأنا كنت أنظر إليهما جالسةً على السرير.

ـ لم أكن أعلم أنَّك ماهرٌ أيضًا في قصِّ الشعر.

ـ كلَّا. لست ماهرًا. لكنَّني أتدبَّر أمري.

كان يتكلَّم من غير أن يكفّ عن تحريك المقصّ. وبين الفينة والأخرى، كان ر يرفع رأسَه لينظر ما يفعله الجدّ، وفي كلِّ مرَّةٍ، يعدل الجدُّ رأسه قائلًا:

- ابقَ هادئًا.

كانت النتيجة حسنةً. بالطبع، لم يكن الجَدّ محترفًا، لكنْ ما كان يخلِّفه من تفاوتاتٍ في الشعر، كان يمنح ر مظهرًا أكثر شبابًا. ثم إنَّ ر كان يبدو راضيًا.

فقط حين أتت لحظةُ التنظيف، تبدَّت الصعوبة. على الرَّغم من اعتنائنا ببسط ورق الجرائد، تناثر شعرُ ر في كلِّ مكانٍ حتى بلغ أقصى أركان الغرفة. التقطنا بعنايةٍ الشعراتِ التي تاهت بين مختلف «الأشياء».

* * *

مرَّت فترة هدوءٍ نسبيّ، ثم ذات مساءٍ، وكان اليومُ سبتًا، كنت أُنزِّه ضون، فصادفتُ الجَدَّ على التلِّ، غير بعيدٍ من خرائب المكتبة.

- ها، لقد تسوَّقتِ؟ هل وجدتِ أشياءَ طيِّبة؟

كان جالسًا على كومةٍ من آجرٍّ نصف محروقة، فلمَّا رآني رفع يده.

ـ كلَّا. كما الحال دائمًا. حصيلة اليوم ملفوفةٌ صينيَّةٌ ذابلة، وثلاث جزرات، ودقيق الذرة، وزبادي انتهى أجلها منذ يوميْن، وقطعةٌ صغيرةٌ جدًّا من لحم الخنزير.

ربطتُ ضون إلى شجرةٍ قريبة، ثم عدتُ أجلس بقرب الجَدّ.

ـ إنَّه طعامٌ كافٍ. نستطيع أن نعيش به أسبوعًا. لكنَّ الجُهد الذي ينبغي بذله في التسوُّق يزيد يومًا عن يوم. الأمرُ رهيبٌ بالنسبة إلى من يتسوَّق بمفرده. وحين يكون المرء عاملًا يصير الوضع أسوأ، إذ لا يستطيع الحصول على إذْن ساعةٍ أو ساعتيْن ليلفّ على الأسواق والمتاجر.

ـ أجل، مقلقٌ العَوَزُ إلى الطعام.

كان الجَدُّ يضربُ الآجرَّ بقدمه. فتتطاير شظايا وتتناثر على الثلج. لم تعد المكتبةُ إلَّا كومةً من آجُرٍّ سوداءَ. لا شيء فيها يوحي بأنَّها كانت مكانًا تملأه الكتبُ. وكان يبدو أنَّه يكفي أن يحرِّك المرءُ آجُرَّةً من آجُرِّها لكي ينبعث الدخان من جديد. وكانت طبقةٌ من ثلجٍ قد غطَّت بهو المدخل، حيث عشبٌ معتنى به. وهناك بالأسفل، يمتدّ البحرُ.

سألته:

ـ الجوّ بارد، فما الذي أتيت تفعله هنا؟

أجابني:

ـ أتيت أتأمَّل العبَّارة.

وكانت العبَّارة كما تركناها بعد الزلزال، عالقةً في عُرض البحر. هناك فقط، في الموضع حيث هي، تشكِّل الأمواجُ دوَّامةً من زبد. لم يعد يظهر إلَّا جزءٌ صغيرٌ من أعلى قيدومها، ممَّا يبعث على

الظنِّ بأنَّها قد سُحبت أبعدَ في عُرض البحر، لكنَّه قد لا يكون تحديدًا إلَّا كما ذكرتُ: مجرَّد ظنّ.

وعلى يقيني بأنَّ العبَّارة لن تعود أبدًا إلى سالف عهدها، ومعرفتي مسبقًا بجوابه، انتهى بي المطاف إلى أن سألته دونما تحفُّظ:

. هل تودُّ العودة إلى سابقِ حياتك؟

. كلَّا. بالطبع كلَّا.

هزَّ رأسه نافيًا فورًا، وكان ذاك الجوابَ الذي توقَّعته.

. لا أطيبَ عندي من الحياة معك. لو لم تكوني موجودةً لاستقبلني الشارع. لم تخطر ببالي قطّ خاطرةُ الرجوع إلى حياتي السابقة. حتى قبل غرقها، كانت العبَّارةُ قد تحوَّلت إلى شبه حطام. وحتى لو لم تحدث الهزَّةُ الأرضيَّة، ما كان ليطولَ بها الزمانُ قبل أن

تغرق. إنَّ الأشياء التي اختفت منذورة للانمحاء، لن يطول بها الوجود حتى إن وجدنا لها وظيفةً غير وظيفتها السابقة.

. لكنَّ الهزَّة الأرضيَّة حدثت بغتةً حتى إنِّي ظللت أتساءل هل تحمَّلتَ الصدمةَ!

. الحقّ أنَّني كنت على وشك أن أموت، فأنقذتني. لا أحسّ بأيِّ صدمةٍ. لا أملك إلَّا أن أكون ممتنًّا لكِ. ولستُ أتأمَّل العبَّارةَ حنينًا إليها، وإنَّما عرفانًا لكِ.

انقطع الحديثُ، فتأمَّلنا البحر صامتَيْن. لونُ السماء يتغيَّر تدريجيًّا انطلاقًا من البحر، والعبَّارة يوشك أن يغشاها الغروبُ. وعلى الشاطئ، كما على الرصيف، لا أثر لهيئةٍ بشريَّةٍ، إنَّما السيَّارات وحدها تسير على الطريق الساحليَّة. ضوء يخمش بقائمتيْه الأماميَّتيْن جذعَ الشجرة، ويلعق سلسلته، ويستدير صوبنا هاشًّا

بذيْله كي نهتمّ لأمره. وربّما يشعر بأكلانٍ في أذنه التي أخذت في التعافي، إذ بين الفينة والأخرى تهزّ اهتزازًا عصبيًّا.

التفتُّ لأنظرَ خلفي، فرأيت مرصد الطيور وقد حجبت نصفَه طبقةُ الثلج السميكة. لا حاجة بشرطة الذاكرة إلى هدمه بالجرّافة، فقد صار خرابًا. على طريق النزهة، ما تزال اللافتة تُشير إلى مدخل الحديقة النباتيَّة، لكنَّ السهم اعوجَّ فصار يُشير إلى الفضاء، هناك حيث لا شيءَ. على هذا التلّ، لم يعد ثمَّة إلَّا أشياءُ تنتظر خانعةً لحظةَ دمارها.

ولما كان الجَدُّ قد فقد في التسونامي كلّ ملابسه، فقد كان يلبس بنطالًا من المخمل المضلَّع، وسترةً من صوفٍ مخلوط، ومعطفًا بياقةٍ من فروٍ صناعيّ؛ ملابسُ كانت لأبي، واحتفظتُ بها أنا بعناية. لونُ السروال بَهُت، وياقة الفرو رثَّت، لكنّ المقاسات كانت ملائمةً تمامًا، والطقمُ بالجُملة لاءَمَه. واضعًا على ركبتيْه يديْه

القويَّتيْن والمتينتيْن، يدَي الرجل الشغِّيل، كان ينحني بجسمه عليَّ كأنَّما لا يريد أن يُفلت أيَّ كلمةٍ ممَّا أقول.

منذ الطفولة، كنت أحبّ يدَي الجَدّ، حبًّا كبيرًا. وحين كنَّا نخرج جميعًا، كان هو دائمًا من أُمسكُ بيده. يدانِ تستطيعان صنعَ كلّ شيءٍ: صناديق لحفظ اللعب، ماكيتات سيَّارات، مَأرضة لتربية خنافس وحيد. القرن(13) ، كُرَات، مصابيح سرير، أغطية لسروج الدرَّاجات، سمك مدخَّن، كعك بالتفَّاح... وفي حين كانت مفاصل يده قويَّةً كانت راحتُها ناعمةً لطيفةَ الملمسِ. كان يكفي أن ألمسها لأطمئنَّ، وأحسَّ أنَّني لست وحيدةً متروكةً، ولا مبغوضةً أو مُبعدَةً.

. هل تظنُّ أنَّ « الأشياء» التي أخرجناها من المنحوتات لن نستطيع الاحتفاظ بها طويلًا، وستختفي كما العبّارة؟

. لا أدري يا آنسة...

تراجع قليلًا في جلسته.

. أعتقد بأنَّ ر يرى أنَّنا نستطيع الاحتفاظ بها في الغرفة السرِّيَّة.

. أجل. إنَّه بلا شكّ يؤمن في قدراتِ الغرفة السرِّيَّة التي صنعناها. أمَّا أنا، فأميل إلى الشكِّ. لكنَّني بالطبع لا أنوي أن أقولَ له شيئًا، لأنَّ كلامي لن يغيِّر شيئًا.

. صحيح. لم نجد في أيِّ مكانٍ من هذه الجزيرة كلماتٍ تشرح شرحًا واضحًا ما يتعلَّق بالاختفاءات. وبما أنَّنا لا نفهم «الأشياء»...

. حتى إن نحن قاومنا شرطةَ الذاكرة، فلن نستطيع معارضةَ القَدَر الذي يباعد بيننا وبينه.

ـ بين الفينة والفينة، أفكِّر. سيكون أمرًا جيِّدًا اختفاء شرطة الذاكرة، آنذاك لن يضطرَّ أحدٌ إلى الاختباء.

ـ أجل، سيكون أمرًا رائعًا. لكنْ، ماذا لو اختفت الغرفة السرِّيَّة قبل ذلك... ما الذي سيحدث برأيك؟

فَرَكَ الجَدّ يديْه عند مستوى صدره، بحيث قد يُظنُّ أنَّه يطلب الدفءَ، أو يصلِّي. إن اختفت الغرفة السرِّيَّة: ماذا يوجد تحت البساط؟ كيف نرفع لوح المدخل؟ وكيف وصل السيِّد ر إلى هناك؟ هل سيأتي عليَّ حينٌ من الدهر أنسى فيه أجوبةَ تلك الأسئلة؟ ولأنَّني لم أتصوَّر قطّ ذلك، فقد تبلبل ذهني. أخذ ضون ينبح بإلحاحٍ مردُّه، بلا ريب، إلى أنَّني خرجت به في نزهةٍ، وإذا به يُلفي نفسه مربوطًا كلّ تلك المدَّة إلى شجرة.

قلت بصوتٍ حازمٍ أُخفي فيه قلقي:

ـ لا داعي إلى القلق. حتى الآن تقبَّلنا كلّ الاختفاءات. حتى اختفاءِ الأشياءِ المهمَّة جدًّا، دفينةِ ذكرياتنا، الأشياء التي لا تعوَّض. لم يُؤذنا اختفاؤها، ولا آلمنا. نستطيع أن نقبل أيَّ فراغٍ لو تعلم.

أراح الجَدُّ يديْه على ركبتيْه، ونظر إليّ باسمًا.

ـ أجل، أنتِ محقَّة.

كان وجهه ودودًا جدًّا، لدرجة أنِّي خلته سيذوبُ في ألوان المساء.

نزلت عن كومة الآجرِّ، وشددتُ إِشاربي، ثم أطلقت وثاق ضون.

ـ هيَّا، إنَّ الشمس ستغرب. لا ينبغي أن تُصابَ بالبرد. لنعد إلى المنزل.

جذِلًا بإطلاق سراحه، ركض ضون يعانق بقائمتيْه قدمَي الجَدّ.

قال لي:

ـ آنستي، أرجوكِ اسبقيني إلى البيت. أنا سأرتاح قليلًا هنا، ثم أقصد جزّارًا. لقد اكتشفته منذ أيّامٍ خلف التلّ، لكنّه كان مزدحمًا. سوف أشتري منه لحم خنزيرٍ رفيعًا.

ـ لا تحاول المستحيل. ألا يكفينا اليوم ما اشتريتُه أنا؟

ـ كلّا. لست أجاهدُ محاولًا المستحيل. إنّما فقط أريد أن أقومَ بجولة.

ـ حسنًا، سوف أُعطيك إذن شيئًا يمنحك بعضَ الطاقة.

وكنت قد تذكّرت فجأةً أقراصَ الليمونادة، فأخرجت الكيس البلاستيك الذي كنت قد أخفيْته عميقًا في جيب تنُّورتي.

مال برأسه وعيناه ترمشان:

- ما هذا؟

- إنَّها أقراصُ ليمونادة، كانت مخبَّأةً في إحدى المنحوتات التي عهد إليَّ بها آل إنوي.

أفرغت في راحتي محتوى الكيس كلّه. بما أنَّنا قد أكلنا، أنا و ر، اثنيْن، فقد كان ما يزال ثمَّة ثلاثة.

- خطرٌ أن تتجوَّلي بهذه الأشياء. ماذا لو واجهتِ تفتيشًا...

وبينما يتحدَّثُ، لم تكن عيْنه تفارق القرص على راحتي.

- لا خطر في الأمر، لأنَّه يذوب ما إن يوضع في الفم. هيَّا، جرِّب بنفسك.

أخذ قرصًا متردِّدًا، ثم حمله إلى شفتيْه. وبين أصابعه المتينة، بدا أصغر. صار فمه مزمومًا، وعيناه ترمشانِ في مشهدٍ رائع.

ـ ما أعذبه.

دَعَكَ صدره كأنَّما يتحقَّق من العذوبة.

ـ لذيذ، أليس كذلك؟ سأُعطيك البقيَّة.

ـ حقًّا؟ تعطينني شيئًا نادرًا إلى هذه الدرجة! أنا ممتنٌّ لكِ، ممتنٌّ لكِ!

كلَّما ذاب في فمه قرصٌ، زمَّ شفتيْه، ودَعَك صدره.

وبعدما اختفت الأقراص كلّها، ضمَّ كفَّيْه وانحنى أمامي قائلًا:

ـ أشكركِ.

ـ حسنًا، سأسبقك إلى المنزل، وأنتظرك.

لوَّحتُ بيدي. وأطلق ضون نبحتيْن، قبل أن يسحب سلسلته وينزل التلّ مسرعًا.

ـ حسنًا، هيّا...

كان الجَدُّ ما يزال جالسًا على كومة الآجرِّ، مبتسمًا.

ذاك اليوم، فارقتُه فراقًا أخيرًا.

(13) المأرضة اسمٌ علميٌّ لتربة، غالبًا ما توضع في حاوية زجاج، تستخدم بيئةً لتربية كائناتٍ ودراستها. وخنافس وحيد ـ القرن، خنافس تشبه حيوان وحيد ـ القرن.

٢٤

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة حين تلقَّيْتُ اتِّصالًا يُخبرني بأنَّ الجَدَّ قد سقط أمام متجر الجزّار. وكان قد أخبرني أنَّه سيقوم بجولةٍ، لكنَّه تأخَّر كثيرًا حتى قلقتُ، فكنت على وشك أن أَخرُجَ للبحث عنه، وإذا بالهاتف يرنّ. كلَّمتني ممرِّضةٌ، أو ربَّما موظَّفةُ إدارة، لا أدري! عمومًا، امرأةٌ على الطرف الآخر من الخطّ، كانت تتحدَّث بصوتٍ متعجِّل، ثم إنَّ الكثيرَ من الأصوات المزعجة حالت دون أن أفهم نصفَ ما تقولُه. الخلاصةُ: كان عليَّ أن أذهب من فوري إلى المستشفى.

وبعدما بيَّنت لـ ر ما وقع، عبر القِمع، أخذتُ حافظةَ نقودي فقط، وانطلقتُ سريعًا.

ظننتُ أنَّ بوسعي أن أستقلَّ تاكسي في الطريق، لكنَّني للأسف لم أصادف واحدًا، فركضت في نهاية المطاف دفعةً واحدةً حتى المستشفى.

لم يكن الجَدّ ممدَّدًا على سرير، وإنَّما على ما يُشبه منضدة مطبخٍ من الفولاذ غير القابل للصدأ، لا يزيدها شيءٌ إلَّا أربع أرجلٍ طوالٍ دقاقٍ مركَّبةٍ على عجلاتٍ. كانت الحُجرة مبلَّطةً، وباردة. الجسدُ مغطًّى بغطاءٍ مصفرّ حواشيه منتوفة، ويبدو خشنًا.

ـ لقد سقط منهارًا على الرصيف، فحمله الإسعاف إلى هنا، لكنْ حين وصل كان قد فقد وعيْه، وتوقَّف قلبه. فعلنا كلّ ما بوسعنا لإنعاشه، لكنَّه توفِّي في السابعة واثنتيْن وخمسين دقيقة مساءً... أمَّا سبب الوفاة، فقد وجدنا نزيفًا داخليًّا على مستوى الجمجمة، لكنَّ التحقُّق من سببه يتطلَّب فحوصًا إضافيَّة.

كان الطبيب بجانبي يتحدَّث بلا توقُّف، لكنَّني كنت عاجزةً عن فهم معظمِ الكلمات التي كان يتفوَّه بها. فقط صوتُ هذا الغريبِ الرتيبُ يدور كدوَّامةٍ في قعر أذنيّ.

ـ ألم يتعرَّض مؤخّرًا لصدمةٍ قويَّة على مستوى الرأس؟

رفعت رأسي إليه، وأردتُ الكلام، لكنَّ التأثُّر كان قد بلغ منِّي كلّ مبلغٍ، فأصابني الخَرَس.

. لم يحدث النزيفُ داخل الدماغ، وإنَّما خارجه، قريبًا من الجمجمة، وفي مثل هذه الأحوال، كثيرًا ما يكون السبب ضربةً في الرأس. لكنْ، من الممكن أيضًا أن يكون قد أصيب بنوبةٍ قلبيَّة، فلمَّا سقط، اصطدم رأسُه بالرصيف، وفي هذه الحال...

واصل الطبيب الكلام بالنبرة نفسها. رفعتُ الغطاء عن جسد الجَدّ. وكان أوَّلَ ما وقع عليه بصري، يداه. كانتا مضمومتيْن على صدره. يدان لن تصنعا بعد الآن شيئًا. تذكَّرتُ أنَّه أثناء الزلزال قد انحبس تحت الصّوان، وأنَّ دمًا أسودَ سال من أذنه. وتذكَّرت أنَّه لم يستطع شكَّ المخلَّلات، ولا تناول الأشياء المخبوءة في المنحوتات. ربَّما كان ينزفُ ببطءٍ.

غمغمتُ:

. لكنَّ الجَدّ قد استطاع تصليحَ قنوات المجاري، كما قصَّ شعرَ ر قَصَّةً جميلةً.

لكنَّ صوتي الذي ابتلعته الجدرانُ المبلَّطة لا يبدو أنَّه يصل الطبيب.

عند قدمَي الجَدّ، كانت مُهملةً سلَّةُ التسوُّق. ومنها تطلُّ الرزمةُ التي أخذها من عند الجزَّار، ورؤوسُ جزرٍ.

* * *

كانت الجنازةُ ضيِّقةً. حضرها أقاربُ بعيدون: حفيدُ ابنِ عمٍّ بعيد، وابنةُ أخي الجَدّ وزوجها، ورفاقه في عمله السابق، وبعض الجيران. وبالطبع، لم يكن لـ ر إلَّا الصلاةُ وحيدًا، منعزلًا في غرفته السرِّيَّة.

لم أستطع تقبُّلَ موتِ الجَدّ. كنت قد فقدتُ من قبلُ أشخاصًا كُثُرًا، ممَّن كانوا يعنون لي الكثير، لكنَّ فراقهم كان مختلفًا عن فراق الجَدّ.

ين ماتت أمِّي، وأبي، وجدَّتي، حزنتُ حقًّا. افتقدتهم، ووددتُ لو كان بالإمكان رؤيتهم مرَّةً أخرى، وأسفتُ على ما سبَّبتهُ لهم من أذًى قيدَ حياتهم. لكنَّ هذا الحزن توقَّف طبيعيًّا بمرور الزمن. ابتعد الموتُ شيئًا فشيئًا، فاسحًا مكانه لذكرياتي الأثمن. لم يغيِّر الموتُ شيئًا في قانون المكان الذي أعيش فيه. الذكريات لا تغيِّر القانون. يمكن أن أفقد أعزّ الناس، وكذلك أن تختفي الأشياءُ حولي، من دون أن يخلِّف فيَّ ذلك أثرًا. لكنْ هذه المرَّة، أحِسُّ أنَّ شيئًا ما قد تغيَّر. زيادةً على الحزن، يسكنني قلقٌ متوعِّدٌ، قلقٌ أشدُّ غموضًا. ليس خوفي على وضعيَّة ر، ومدى قدرتي على حمايته بمفردي. وإنَّما أحسُّ أنَّ بوفاة الجَدّ، قد تحوَّلت فجأةً الأرضُ التي أقف عليها إلى قُطنٍ لا أستطيع الثبات عليه. أنا وحيدةٌ مهجورةٌ فوق هذا القطن. لا أحدَ بعد اليوم سيهتمُّ بمواساتي، والأخذ بيدي، ومشاركتي تجويف قلبي. بالطبع كان ر يواسيني، لكنَّه كان يظلُّ على الدوام محبوسًا في مكعَّبه الصغير الآمن.

ومن ذاك القُطن البخاريّ الذي يشقّ عليَّ أن أحفظ توازني فوقه، كنتُ أجد صعوبةً في أن أقصد الغرفة السرِّيَّة. ولا أستطيع أن أطيلَ المكوثَ بقربه. يلزمني دومًا أن أعود إلى المكان الذي منه أتيت، وأن أعودَ بمفردي.

إنَّ موادَّ العالم التي تغشى كلًّا منَّا، أنا و ر، مختلفةٌ. كأنِّي أردتُ أن أُلصق بأوريغامي حصاةً تدحرجت في الحديقة.

كان الجَدّ يقول لي: «آنستي، لا تقلقي. والآن، حاولي لصقه بهذا الغراء»، ثم يمدّ لي منتَجًا جديدًا، لكنَّ الجدّ لم يعد هنا.

استمدادًا للشجاعة، حاولت أن أغوص من جديدٍ في تفاصيلِ الحياةِ اليوميَّة. أستيقظ صباحًا وأصنع لـ ر أرفعَ الأطباق الممكنة. وفي المكتب، أنشغل على الدوام بما يمكنه أن يجعل عملي مثاليًّا، من غير أن أقع في الأخطاء. وفي السوق، قد تكون الصفوف طويلةً أمام المحلَّات، لكنَّ طولها لا يفلّ أبدًا عزمي، وأتقدَّم مفسحةً

طريقي ببراعةٍ حتى أبلغ مرادي، وأملأ سلَّتي. أكوي الغسيل كما ينبغي، وأحوِّل القمصانَ التي لم أعد أستطيع ارتداءها إلى أغطية وسائد، وأحلّ كنزاتٍ باليةً لأحيك من خيوطها ستراتٍ، وأنظِّف المطبخ والحمَّام حتى يصيرا لامعيْن، وكلّ يومٍ أنزِّه ضون، وأكسح الثلج من فوق سقف المنزل.

ومع كلّ ذلك، حين أتمدَّد في فراشي ليلًا، لا يأخذني النومُ، وإنَّما تعبٌ ثقيلٌ يصاحبه القلق. وحين أُغمض عينيَّ، يزداد التوتُّر، وتسيل دموعي. لا أستطيع النوم، وتعوزني الحيلةُ، فأعمد إلى دُرج مكتبي، أُخرج منه أوراقًا. لا أدري فيمَا تفيد تلك الأوراقُ، لكنَّني لا أرى طريقةً أخرى أقضي بها ليلتي. أضع على الأوراق «الأشياء» المخبَّأة خلف النظام ـ الصوتيّ، وأتأمَّلها برهةً.

كلَّما نزلت عند ر في الغرفة السرِّيَّة، كان يقول لي «هيَّا، خُذي منها ما شئتِ»، ثم يعيرني منها شيئيْن أو ثلاثةً.

سُدًى يحدِّثني عن الأشياء التي راقتني لأختارها، لكنَّ قلبي الموهن لا تطرقُه تلك الأحاسيسُ. وكي لا أحبطَه، أعيِّنُ الأشياءَ التي يقع عليها بصري.

وحين أشبعُ من تأمُّلها، أنتقل إلى لمسها، وشمّها، أنزع عن هذا غطاءً، وأُديرُ في ذاك مفتاحًا، وألُفُّ، وأعرضُ لنور المصباح، وأنفخُ. أستخدمها بحسب ما يسمح به شكلُها. حتى وإن كنت لا أدري أصحيحٌ وجهُ الاستعمال ذاك أم لا.

وبين الفينة والأخرى، يبدو أنَّ هذا «الشيءَ» يعبِّرُ تعبيرًا مختلفًا. يقتحم مجالَ بصري انحناءٌ بسيطٌ في محيطه، أو اختلافٌ لطيفٌ في انعكاس ظلِّه. فأثِبُ قائلةً لعلَّها بشائرُ الإحساس الذي يرجوه ر. لكنَّ الأمر لا يدوم إلَّا برهةً، ثم يختفي بلا رجعةٍ. ولا تكفي قوايَ لإظهاره مجدَّدًا. زِدْ على ذلك أنَّ «الأشياء» التي كانت تعبِّرُ، قليلةٌ جدًّا، وأغلب «الأشياء» تكتفي بخفض عينيْها في خنوع.

قضاءُ لياليّ على هذا النحو لا يخفِّف القلقَ الذي أشعر به منذ وفاة جدِّي، لكنَّه أفضل من قضاءِ الليلةِ أرتجف في فراشي باكيةً. يعرض لي أن أشهد لحظةَ تعبيرٍ، إلى ثلاث لحظاتٍ في الليلة الواحدة، لكنْ قد تمرّ عليَّ كذلك أربع ليالٍ متتالياتٍ، دونما تغييرٍ يُذكر. وصرتُ تدريجيًّا إلى ترقُّبِ تلك اللحظات بنفاد صبر، لأنَّني كنت أحسب أنَّ فيها إشاراتٍ بارقةً قد تقودني حتى ر، وأنَّ النور يُضيء تجاويفَ قلبي.

وذات ليلةٍ، انطلقتُ إلى خَطِّ كلماتٍ على الورقة. أردت أن أصوِّر بالكتابة مشهدَ التجويف المنار. وكانت المرَّة الأولى التي أكتب فيها، منذ اختفاء الروايات. أُمسك القلم بيدٍ خرقاءَ، والحروفُ تتجاوز الخاناتِ أو تكون أصغر من اللازم، وعمومًا شائهة. ثم إنِّي لم أكن متأكِّدةً ممَّا إذا كان ما أخطُّه حُروفًا، لكنَّني أحرِّك أصابعي على أيِّ حالٍ. «غطَّستُ قدميَّ في الماء»، كلَّفتني كتابة هذه الجملة بمفردها ليلةً كاملةً. حاولت، مرَّاتٍ عديدة، أن أقرأها بصوتٍ عالٍ، لكنَّني لم أستطع أن أُدرك من أين تأتي

الكلماتُ، ولا كيف تنتظمُ. وحين أعدت إلى ر « الشيء»، مددتُ إليه الورقة متوجّسةً. لم يكن في الورقة إلَّا سطرٌ واحدٌ، ومع ذلك، ظلّ منحنيًا عليها مدَّةً.

ـ تبدو خربشةً. لا يليقُ بك قراءتُها. اعذرني. يمكنك أن تلقي بها إلى سلَّة المهملات.

ولما ظلّ مستغرقًا في النظر إليها صامتًا، فقد حسبتُني أحبطتُه.

ـ كلَّا. ألا ترين أنَّه تقدُّمٌ رائعٌ؟ إلى حدود اللحظة لم تكوني تستطيعين إلَّا إبلاءَ الورقةِ بالممحاة.

وضعَ الورقةَ على الطاولة بعناية.

ـ القولُ بإحراز تقدُّمٍ، مبالغةٌ. هي نزوةٌ فقط. ربَّما أعجز من الغد عن كتابة سطر واحدٍ.

- كلّا. لقد بدأت الحكاية تتحرَّك.

- أتظنُّ ذلك؟ لا أتوقَّع الشيءَ الكثير. ثم، ما «الماء»؟ ما المقصود بـ «غطَّستُ قدميَّ»؟ لا أفهم. لا معنى لكلِّ ذلك.

- ليس المعنى هو الأهمّ. ما يهمّ هو الحكاية المخبوءة في عمق الكلمات. وأنتِ الآن تحاولين سحبها إلى السطح. قلبكِ يحاول إظهارَ أشياءَ اختفت.

كان يشجِّعني. ربَّما يقول كلّ ما يخطر بباله لكي لا يجرحني، خاصَّةً بعد أن فقدتُ الجدّ، لكنَّني كنتُ أجدُ في كلماته شفاءً. إن كان لطيفًا معي، ففيمَ يهمّ السبب؟

«لا ذرَّة غبارٍ تطفو على الماء».

«أُشرفُ على العشب الممتدّ».

«حين تهبُّ الريحُ، ترتسم على العشب أشكالٌ».

«أشكالٌ تُشبه أشكالَ جُبنٍ قضمته الفئرانُ».

واظبت على تسطير الكلماتِ، سطرًا كلّ مساءٍ، غير عابئةٍ بتسلسل الحكاية. تدريجيًّا، أخذ يتحسَّن التناسق بين الخانات وحجم الحروف، لكنَّ يدي مع ذلك ظلَّت خرقاء تضطرب وهي تلتقط الكلمات.

يقول وهو يرصُّ الأوراق، بعضَها فوق بعضٍ:

- واصلي على هذا النحو.

* * *

ثم حدث أوَّلُ اختفاءٍ بعد وفاة الجَدّ. ركَّزتُ، وأنا بعدُ في السرير، كي أُدرك طبيعةَ الشيءِ الذي اختفى. في الخارج، كان الجوّ هادئًا، ولم أسمع جَلَبة الناس. وبالتالي، لا بدَّ من أنَّ ما اختفى شيءٌ مميَّزٌ،

لا علاقة له بنا البتَّة، اللّهمَّ إلَّا إن كان شيئًا هيِّنًا لا قيمة له. أردت أن أنهض من فراشي. انتابني شعورٌ غريب، شعورٌ كثيفٌ يلتصق بجسدي. النور المتسلِّل من فجوات الأستار كان رماديًّا، والجوّ يبدو كئيبًا. ربَّما نشهد تساقطاتِ ثلجٍ كبيرة! تهيَّأتُ لأن أخرج باكرًا، كي أستقلَّ تراموايِ السابعة. لأنَّ الطرقَ تزدحم أيَّام الاختفاءات. رفعت الغطاء. وإذَّاك، اكتشفت شيئًا عجيبًا. شيئًا أُلصقَ بِوركي. حاولت أن أسحبه، أدفعه، أنتزعه.. سدًى! كان يبدو ملتحمًا بي.

ـ ما هذا؟

أحسستُ بالغضب يصَّاعدُ فيّ، وتشبَّثتُ بالوسادة. خِلت أنَّني سأسقط عن السرير إن أنا لم أتشبَّث بشيء. يكفي أن أحرِّك قليلًا جزءًا من جسدي، لكي يعيقني الشيءُ الملحومُ بوركي، ويُفقدني توازني.

بقيت ساكنةً للحظةٍ، دافنةً وجهي في الوسادة، حتى عاودني الهدوء. على راحة يدي، ما يزال الإحساس البارد بملمس الشيء.

هل أنا مريضة؟ هل ظهر فيَّ ورمٌ هائلٌ بين ليلةٍ وضُحاها؟ لكنْ، كيف أصلُ إلى المستشفى وأنا في هذه الحال؟ ألقيتُ مجدَّدًا نظرةً خاطفةً على وركي. كان ما يزال ممدَّدًا في الوضعيَّة نفسها. وبما أنَّني لا أستطيع البقاءَ في السرير إلى الأبد، فقد قرَّرتُ أن أقوم وأرتدي ملابسي أوَّلًا. استندت على قدمي اليسرى لأنهض بهدوء. وفي أثناء ذلك، هوى الشيء من غير أن يحدث صوتًا، وقُذف بي بعيدًا عن سريري. اصطدمت بسلَّةِ الأوراق المهملة، فتَّشت محتواها، لكنَّني لم أعرها اهتمامًا، وزحفت حتى بلغت الدولاب، فأخرجتُ منه بنطالًا وسترةً. لبست السترة بسهولة. لكنَّ المشكلة كانت البنطال. لا أدري لِمَ كانت فيه فتحتان. بعدما أدخلتُ ساقي اليمنى، وقفتُ عاجزةً لا أدري ما أصنع. الشيءُ الذي يبدو أنَّه لا يريد أن يفارق وركي، كان ما يزال يراقبني صامتًا. لم يكن يبدو عليه التأهُّب للهجوم، لكنَّ هيئته مع ذلك كانت عدوانيَّة. على أنِّي كلَّما تأمَّلته

أدركت أنَّ شكلَه كان مهيَّأً للدخول في فتحة البنطال الثانية. طوله وعرضه مناسبان تمامًا. حاولت أن أمسكه بيدي وأدخله في فتحة البنطال. كان ثقيلًا، ولا يستسلم بسهولةٍ، فكلَّفني وقتًا طويلًا، لكنْ انتهى به المطاف، كما توقَّعتُ، محشورًا في البنطال. كأنَّما صُنع البنطال على مقاسه.

آنذاك فقط، أدركت ما وقع: لقد اختفت ساقي اليسرى.

شقَّ عليَّ نزولُ الدرج محاذرةً أن أسقط. كان عليَّ أن أتمسَّكَ بالدرابزين، لأنُزل بحذرٍ درجةً درجةً الشيء: ساقي اليسرى التي اختفت.

وفي الخارج، كان الوضع أسوأ، إذ كان الثلج يتساقط. بعد لحظةِ تردُّد، انتعلتُ أيضًا فردةَ حذائي اليسرى. في الشارع، بدأ الجيران يتجمهرون. الجميع يفكِّر كيف سيستعمل جسدَه. الجميع مرعوبٌ ممَّا قد تُسبِّب له من ألمٍ حركةٌ زائدة. بعضهم يسير متشبِّثًا

بالحواجز، وآخرون، ممَّن كانوا أقارب، يترافقون مستندين على أكتاف بعضهم بعضًا، وفئةٌ ثالثةٌ اتَّخذت عكَّازًا، كما فعل صانع القبّعات ـ سابقًا إذ توكَّأَ على مظلّة.

همس أحدهم:

ـ حقًّا، أظنّ أنَّ الأمر...

هزَّ الجميع رؤوسهم موافقين، لكنَّ الكلمات التالية لم تُنطق أبدًا... لم نشهد قطُّ اختفاءً من هذه الشاكلة، حتى أنْ لا أحدَ منَّا يعرف ما سوف يؤول إليه الوضع.

قالت المرأة التي تسكن في المنزل المقابل قُطريًّا:

ـ الحقُّ أنَّنا شهدنا، حتى هذه اللحظة، شتَّى أنواع الاختفاءات، لكنَّنا لم نتخيَّل قطُّ اختفاءً مذهلًا كهذا، أليس كذلك؟

ـ ما الذي سيحدث بعد الآن؟

أجابها جاري من جهة الغرب، الموظَّف بالبلديَّة:

ـ لا شيء. هي مجرَّدُ فجوةٍ أخرى تنضافُ إلى فجوات الجزيرة. مثلها مثل جميع الاختفاءات، أليس كذلك؟

قال صانع القبّعات ـ سابقًا، وهو يشكّ الثلجَ بمظلّته:

ـ لكنْ هذه المرَّة ثمَّة شيءٌ ما على غير ما يُرام. أُحسُّ أنَّ جسدي يتداعى.

ـ سوف نعتاد الأمر سريعًا. في البداية، نشعر ببعض الألم، لكنَّه الألمُ المعتاد، ألمُ البدايات. نحتاج وقتًا لنعتاد الإحساس بفجوةٍ جديدة، خاصَّةً إذا ما كانت أبعادُها أكبر. لا داعي للخوف.

قالت العجوز التي تسكن على بُعد منزليْن، ضاحكةً:

ـ بالنسبة إليَّ، أنا، الأمر مبهجٌ. فها قد تخلَّصتُ من ألم الروماتيزم المزمن في ركبتي اليسرى.

ابتسمتُ بدوري، لكنْ ابتسامةً باهتة. وأثناء الحوار، كان الجميع ينظر، بين الفينة الأخرى، إلى قدمه اليسرى. ربَّما بصدمة البرد، ستعود القدمُ كما كانت من قبلُ! لعلّ هذا الاختفاء ليس إلّا خطأً... كانت الأنظار تتعلَّق بأدنى أمل. لكنْ، لم يحدث أيُّ تغييرٍ في الأقدام اليسرى.

ـ إه...

استجمعت شجاعتي كلّها لأُفصح عن شيءٍ ينغِّصني منذ مدَّة.

ـ كيف سنفعل للتخلُّص منها؟

أطلق الرجلُ الموظَّف في البلديَّة تنهيدةً مكتومة، وتجهَّمت المرأةُ المصابة بالروماتيزم، وأدارت الجارة في المنزل المقابل مِقْبضَ مظلَّتها. تواصل الصمتُ برهةً. كان يبدو أنَّ الجميع يبحث عن جوابٍ مناسبٍ أو ينتظر أن ينطقَ غيرُه بجواب.

وفي تلك اللحظة، أبصرنا ثلاثةً من رجال الشرطة قادمين من طرف الشارع الآخر. والتزمنا أقصى الطريق لكي لا نزعجهم. فنحن لا ندري ماذا بوسعهم أن يفعلوا بنا وهم يروننا نجرُّ أقدامنا اليسرى هنا. تأمَّلت أقدامهم اليسرى ثلاثَتهم، فرأيتُها في موضعها نفسِه حيث كانت أمس، فاطمأنَّت نفسي قليلًا: ما داموا هم أنفسهم لا يدرون ما يصنعون بأقدامهم، فلا مجال لهم للومنا. والحقُّ، أنَّ مِشيتهم كانت صارمة. لقد حافظوا على توازنهم وكأنَّما الاختفاء الذي حدث فجأةً هذا الصباح لم يفرض عليهم تحمُّلَ شيءٍ ثقيلٍ مزعج. كأنَّما قد تمرَّنوا مسبقًا على هذا النوع من الوضعيَّات.

مرُّوا، ولما اطمأنَّ الجمعُ إلى انصرافهم، قال صانع القبّعات ـ سابقًا:

ـ حتى رجال الشرطة يمشون على هذا النحو، فلا داعي إلى استعجال التخلُّص من أقدامنا، ألا ترونَ ذلك؟

ـ صحيح. لا أعتقد أنَّهم سيفرضون علينا بترَ أقدامنا بالمنشار!

ـ الحرقُ، الدفنُ، الإلقاء في الماء، الهجرُ... ماذا لو كان ثمَّةِ اختفاءٌ لا ينفع معه أيّ شيءٍ، ألن يكون الأمرُ خطيرًا؟

ـ قريبًا، قد نجد وسيلةً مناسبة؟

ـ ربَّما تسقطُ الأقدام من تلقاءِ نفسها. ستفسد وتتعفَّنُ كورقةٍ ميِّتة، ثم تهوي مرَّةً واحدة.

ـ أجل. أجل.

ـ لا داعي للقلق.

ثم دخل الجميع بيتهم، وكلّ واحدٍ منهم راضٍ لأنَّه عبَّر عمَّا في نفسه. وكما هو متوقَّع، لم نستطع المشيَ كما يفعل رجال الشرطة.

تعثَّرت الجَدَّةُ وسقطت عند عتبة بابها، أمَّا صانع القبّعات. سابقًا، فقد علقت مظلَّته بكومة ثلجٍ، فلم يستطع تقدُّمًا ولا تراجعًا.

وخرج ضون أمام وِجاره، وظلَّ يتحرَّك جيئةً وذهابًا هازًّا ذيله في قلق. ولما لمحني هرِع إليَّ مغطًّى بالثلج، مطلِقًا من خطمه أنينًا شاكيًا. ولما نظرتُ إليه مليًّا، تنبَّهت إلى أنَّه قد فقد قائمته الخلفيَّة اليسرى.

- آه؟ أنت أيضًا فقَدتَ ما فقدناهُ! لا تقلق، الأمر بسيط.

ضممتُه إليَّ. وكانت قائمته الخلفيَّة تتأرجحُ واهنةً.

* * *

تلك الليلة، على السرير، دلَّك ر الشيء الملتصق بِوركي. دلَّكه بيده طويلًا، بلا كلل، كأنَّما قد أستعيد، بفعله ذاك، قدمي اليسرى!

همستُ:

. حين كنت طفلةً، كثيرًا ما كانت أمِّي تدلِّك جسمي على هذا النحو حين أمرضُ.

. ها أنتِ ترين. قدمكِ لم تختفِ، ما دمتِ قادرةً على تذكُّر شيءٍ بهذه القيمة.

ابتسم ر قبل أن يواصلَ دَلْكَ قدمي بقوَّةٍ أكبر.

. أتظنُّ...

أجبته إجابةً مبهمةً، قبل أن أحوِّل نظرتي إلى السقف.

الحقُّ، أنَّ إحساسي بيده مختلفٌ تمامًا عن إحساسي بيدَيْ أمِّي. أو لنقل بالأحرى، لم تكن حرارةُ يده تسري البتَّة في ساقي. إنَّما هما

فقط شيئان يحتكّ أحدهما بالآخر في صريرٍ مزعج. لكنَّني خشيتُ أن أجرحه إن أنا صارحته بإحساسي.

ـ هيَّا، تأمَّلي جيِّدًا. هنا خمسةُ أصابع تصطفُّ، وديعةً، بالترتيب، من الأكبر إلى الأصغر، تحت قيادة أكبرها. أليست شفَّافةً وناعمةً، وطريَّةً كأنَّها قشرةُ فاكهة؟ وهنا عَقِبُ القدم. وهذا الكاحلُ. نفسُ ما في القدم اليمنى. انظري، إنَّهما متماثلتان. الركبة ترسمُ منحنًى جميلًا، حتى إنَّ اليديْن لتنزَعان إلى احتضانها تلقائيًّا. وحين نضع اليد فوقها، نشعر بعظامها متراكبةً تراكبًا معقَّدًا. ينتابنا الانطباع بأنَّها قد تتزحزح من موضعها. ربلة الساق مرنةٌ ودافئة. جلدُ الفخذ أبيضُ بياضًا مثيرًا. أستطيع أن أشعرَ بأجزاءِ قدمك اليسرى جميعها. أدنى جرحٍ، أدنى كدمةٍ، أدنى تجعُّد. كيف تقولين إذن إنَّها قد اختفت؟

كان قد جثا على ركبتيْه جانب السرير، ويده لا ترتاح. وأنا أغمض عينيّ، فيزداد شعوري بالفراغ الذي خلَّفَه في جسدي

الاختفاءُ الجديد. غارٌ يملأه ماءٌ شفَّافٌ لا ذكرى فيه. ويدُه ترجُّ الماءَ بحماسة، لكنْ لا يَطْلع منه إلَّا فقَّاعاتٌ صغيرة، ما تلبثُ أن تنفجر بلا ضجيج.

. أنا سعيدةٌ جدًّا لو تعلم. سعيدةٌ لأنَّ بجانبي شخصًا يولي عنايةً كبيرةً شيئًا يُفترض أنَّه اختفى. أمَّا الأقدام الأخرى، أقصد جميع الأقدام بالجزيرة، الأقدام التي يحتقرها الجميعُ ولا يهتمُّ لها أحدٌ، فلا بدَّ من أنَّها حزينةٌ مكتئبة.

. لا علم لي البتَّة بمصير العالم الخارجيّ. حين تختفي الأشياءُ على هذا النحو، شيئًا بعد شيء...

. ربَّما لا يتعلَّق الأمر بتغييرٍ بالأهمِّيَّة التي تظنُّها. نحني ظهورَنا قليلًا، عقب كلّ فراغٍ يحدث، ولا نتمرَّدُ، فنحيا بما تبقَّى من العالم. تمامًا مثلما كنَّا نفعل دائمًا. أليس كذلك؟ لكنْ هذه المرَّة، يبدو أنَّ ثمَّة اضطرابًا أشدَّ. لأنْ لا أحد منَّا جرَّب سابقًا المكوثَ منتظرًا، من

غير أن يسارعَ إلى التخلُّص من الشيء الذي اختفى. أمَّا أنا، فقد اعتدتُ الأمرَ بفضلك.

. لأنَّك لا تُخفين حزنك لتتخلَّصي منه.

. كلَّا. هذه المرَّة لا حيلة لنا. لا نستطيع حرقها، ولا تمزيقها إربًا، ولا إلقاءها في البحر، ولا إذابتها بمحلولٍ كيميائيّ. لا أحدٌ يدري كيف السبيل إلى التخلُّص منها. الآن، يحرص الجميعُ على ألَّا تقتحم قدمُه اليسرى مجالَه البصريّ. لكنَّني أظنُّ أنَّ الأمور ستهدأ قريبًا. كيف؟ لا أدري، لكنْ لا بدَّ من أن تعود الأمورُ إلى نصابها يومًا ما.

. ماذا تقصدين بعودة الأمور إلى نصابها؟

. ستجد فجوةُ قدمي اليسرى موضعَها المناسبَ في قلبي.

. لِمَ تسعَيْن إلى التخلُّص منها بأيِّ شكل؟ بينما أنا أحتاج قدمك اليسرى قدر حاجتي إلى جسمكِ كلّه...

تنهَّد خافضًا عينه. مددتُ يدي إلى جفونه، لكنَّ قدمي اليسرى كادت تسقط عن السرير، فلم أستطع إلَّا أن ألزم مكاني ساكنةً. سحب قدمي إليه، وطبع قبلةً على رِبلةِ ساقي. قبلةٌ وديعةٌ، لفَّتني كهمسة.

فكَّرتُ في أنَّه سيكون ممتعًا الإحساس بشفتيْه على جلدي، ولحمي، وعروقي التي لم تختفِ. أمَّا على قدمي اليسرى، فلا أشعر إلَّا بإحساسٍ لزجٍ بعضَ الشيء، كإحساسي بعجين.

قلت له:

. ابقَ هكذا، قليلًا بعد.

حتى وإن كنتُ أشعر بالخواء، إلَّا أنّني أحببتُ رؤيةَ هيئته تحضنُ بين ذراعيْها تجويفي.

. آه.. أستطيع أن أبقى هكذا، كما تشائين.

٢٥

تدريجيًّا، اعتاد الجميعُ أن يعيشوا بقدمهم اليسرى مختفيةً. بالطبع، لم تعد حياتهم إلى سابق عهدها حقًّا، لكنَّ الجسد تعلَّم توازنًا جديدًا، واتَّخذ الجميعُ إيقاعًا يوميًّا مناسبًا لجسده الجديد. ما عدنا نرى أولئك الذين لا يستطيعون النهوض إلَّا مستندين إلى شيء، ولا أولئك الذين لا يستطيعون التحرُّك من دون أن يُثيروا الانتباه، ولا أولئك الذين يسقطون في كلِّ لحظة. صار الجميع ينقلون أجسادَهم بلا صعوبة. حتى ضون صار مؤخَّرًا يركض بأقصى سرعته، ويتسلَّق سقف وِجاره ليتشمَّس، أو يتسلَّى بالوثب على أغصانِ شجيرات الحديقة مسقطًا من فوقها الثلج. وأحيانًا يفرط في الجُهد، فيسقط على رأسه ركامٌ كبيرٌ من الثلج، فيهرع إليَّ طالبًا النجدة. أمسح على خطمه، وأداعب ذقنه، فلا يستسلم وينطلق مستهدفًا غصنًا أكبر.

طال انتظارنا، ولم تَفسد القدمُ اليسرى ولا سقطت، إنَّما ظلَّت في موضعها المعتاد من الجسد. لكنْ لم يعد ينتبه إليها أحد. فما دمنا الآن لا نذكرُ وظيفةَ هذا العضو، فلا داعي إلى التفكير في طريقةٍ للتخلُّص منه.

تزايد فجأةً عددُ الناس الذين يقودهم ملاحقو الذكريات إلى مركز الشرطة. أولئك الذين استطاعوا حتى الآن، بشتَّى الطرق، خداعَ الجميع والتخفِّي وسطهم، لم يعد بمقدورهم التظاهر بفقدان أقدامهم اليسرى. وكان مذهلًا الوقوف على عدد الذين عاشوا حتى تلك اللحظة حياةً سرِّيَّةً، من غير أن يختبئوا أو تكشفهم شرطة الذاكرة. كان مستحيلًا عليهم محاكاةُ توازن الجسمِ الجديد. مهما بلغت درجةُ مهارة محاكاتهم، كان يفضحهم اختلافٌ طفيفٌ في توزيع القوى، أو توتُّر العضلات، أو حركة المفاصل. ويكشف رجالُ الشرطة الاختلافَ من أوَّل نظرة.

صار ملاحقو الذكريات أشدَّ صرامةً. وبعد وفاة الجَدّ، انقطعت الصلةُ تمامًا بزوجة ر. لم يعد أحدٌ يذهب إلى حُجرة المعطيات الجوِّيَّة، والهاتف خطيرٌ لأنَّ الشرطة قد تتجسَّس على المكالمات، أمَّا زيارتها مباشرةً، فأخطرُ الأمور. كانت رسائل زوجة ر وطرودها الخيط الوحيد الذي يربطه بالعالم الخارجيّ، لكنَّ أمثلَ طريقةٍ لكي أحميه، كانت هي أن أعزل الغرفة السرِّيَّة تمامًا. هكذا اتَّفقنا على أن نتوسَّل برنين الهاتف. في يومٍ بعيْنه، وساعةٍ بعيْنها، نترك الهاتف يرنّ ثلاث مرَّات ثم نقطع الاتِّصال، وتلك إشارة إلى أنَّه بخير. وترنّ هي ثلاث رنَّاتٍ، معناها أنَّ الرسالة وصلت.

وحين أردت أن أوصل لها الرسالة التي اتَّفقنا عليها، قصدتُ المدرسة بعد طول انقطاع، لكنَّ حجرةَ المعطيات الجوِّيّة كانت قد اختفت. هل تهدَّمت بسبب الهزَّة الأرضيَّة؟ أم تُراها انهارت تحت ثقل الثلوج؟ لقد صارت أشلاءً. وبين الألواح المكدَّسة بعضها، يظهر المحرار مكسورًا.

تساءلتُ لبرهةٍ عمَّا يجدر بي فعله، لكنَّني قرَّرت في نهاية المطاف أن أدسّ الرسالةَ بين الألواح. أصلًا كانت هذه الحُجرة منسيَّةً لا يطرقها أحدٌ، والآن وقد صارت حطامًا، فلا شكّ أنَّ الانتباه إليها سيصير أقلّ، ولعلَّ هذا أفضل بالنسبة إلينا. لكنَّني أتساءل عمَّا إذا كانت زوجته قد كفَّت عن المجيء بحثًا عن الرسائل.

وفي الساعة المعلومة، اتَّصلت بالرقم، وتركتُ الهاتف يرنُّ ثلاث مرَّاتٍ، ثم قطعت الاتِّصال، ومكثتُ بجانب الجهاز أنتظر. وبعد برهة صمتٍ، انطلق الرنين. ثم انقطع بعد ثلاث رنَّاتٍ، مخلِّفًا صدًى سرعان ما ذاب في الظلام. انتابني الانطباع أنَّ سمَّاعة الهاتف ترتجف.

واصلت ببطءٍ رصَّ الكلمات المفكَّكة. أفتقد الطاقة التي كنت أكتب بها فيما مضى رواياتي، لم يبدُ عليَّ أيّ عرضٍ من أعراض التعافي، لكنْ بالمقارنة مع الأيَّام الأولى التي تلت حريق المكتبة لليلةٍ بأكملها، يبدو لي أنَّني بدأت أتعرَّف سيماء بعض الكلمات.

أطرافَ أصابع الكاتبةِ حبيسةِ البرج، النقوشَ على أرضيَّة حُجرة الساعة، ظلَّ ركامِ الآلات الكاتبة، الخطواتِ في الدرج... كنتُ أستعيدُ كلّ ذلك استعادةً مبهمة.

لكنْ كما هو متوقَّع، كان يشقّ عليَّ ملءُ بياض الصفحات، وحتى إن قضيت في الكتابة ليلةً بأكملها، لا تكون المحصِّلةُ أكثر من كلماتٍ معدودات. أحيانًا أنهكُ، فتتلبَّسني الرغبةُ في أن ألقي بكلِّ الأوراق من النافذة، لكنَّني أضع في راحة يدي « شيئًا» أستعيره من الغرفة السرِّيَّة، وبعد طويلِ تأمُّلٍ فيه، أستعيد هدوئي.

العبَّارةُ تتداعى شيئًا فشيئًا في عُرض البحر. وأثناء نزهاتي وضون، نمرُّ بانتظامٍ على خرائبِ المكتبة، وهناك أرتقي ركامَ آجرّ، وأجلسُ متأمِّلةً البحر. لا بشر في الأرجاء، ولا شيءَ يجرح الهدوء غيرُ أصواتِ السيَّارات من بعيدٍ وهي تجوبُ الطريق الساحليَّة. تقول الشائعات إنَّ على أرضِ الحديقةِ النباتيَّة سوف تُقام بنايةٌ جديدةٌ

لشرطة الذاكرة، لكنَّ ركام الآجرّ المحروق ما يزال هنا، ولا شيءَ يوحي بأنَّ الأشغال ستبدأ.

أقول لضون:

ـ هل تذكرُ الجَدَّ الذي كان يجلس هنا؟

ـ لم أكن أظنُّ أنَّها ستكون آخرَ مرَّةٍ أراه فيها.

كان ضون يركض في كلِّ اتِّجاه، خليَّ البال.

ـ هل كان يبدو غريبًا؟ كلَّا، كان كما هو دائمًا. واثقًا من نفسه، طيِّبَ الملامح. أمَّا الآن، فلم أعد أستعيد وجهَه إلَّا حزينًا. يُهيّأ لي أنَّه لا يجرؤ على طلب المساعدة، ويخفض عينيْه في خجل. نصفُ وجهه غارقٌ في الظلِّ، كأنَّه يتهيَّأ للبكاء، وفي الآن نفسه، يبدو أنَّه يبتسم ابتسامةً عذبة. وكلَّما طفا على وجهه هذا التعبير، تكدَّرتْ نفسي حتى لأعجزُ عن الوقوف. أبسط ذراعيَّ صائحةً

«لا داعي للقلق، كلّ شيءٍ الآن على ما يرام» سدًى. طبيعيٌّ، ما دام الجَدُّ قد مات، أليس كذلك؟

وبينما أتحدَّث إلى نفسي، أخرجتُ من جيبي بسكويتًا، قطعت منه قطعةً بأطراف أصابعي، ثم ألقيتُ بها إلى ضون. استدار ووثب عليها بسدادٍ. صفَّقتُ له، فوقف مزهوًّا رافعًا خطمه إلى السماء، مطالبًا: «المزيد، المزيد».

. لو أنَّني انتبهت إلى الورم الدمويّ في رأسِه، كنت لأُنقذه، أليس كذلك؟

كنتُ أحاول أن أعبِّر بصوتٍ عالٍ عن الحسرات التي لم أستطع أن أمسحها عن نفسي حتى بعد أن فركتُها. بوسعي أن أمضي في فركِها، أكثر فأكثر، لن يزيدَها الفركُ إلَّا رسوخًا، ولن يزيدني إلَّا إرهاقًا؛ ومع ذلك، لا أملك هنا إلَّا أن أغرقَ في الحزن أكثر فأكثر. بينما ضون مستغرقٌ في طحن البسكويت بفكَّيْه.

العبَّارة تواصل انمحاءها يومًا عن يوم. لن يطول بها الزمان قبل أن تختفي بأكملها في الماء. أصلًا، حين يهيج البحرُ، وترتفع أمواجُه، يغطِّي ماؤُه الكوثلَ الذي ما يزال يبرز قليلًا من الماء. حين تخطر ببالي اللحظة التي سوف تكون فيها العبَّارة قد غرقت تمامًا، يعتصر صدري وجعٌ لا حدّ له. يومَ أرتقي التلّ، وأنظرُ بعينيَّ في هذا الاتِّجاه، فلا أرى شيئًا، هل سيكون بمقدوري أن أتذكَّر ما كان يوجد هنا؟ هل سيكون بمقدوري أن أتذكَّر الجَدّ، ومقصورة الدرجة الأولى، حيث أكلنا الكعكة معًا ووضعنا تصميم الغرفة السرِّيَّة، وتأمَّلنا معًا غروب الشمس مستندين إلى جسر السفينة؟ يبدو كلّ ذلك أصعب من أن يتحمَّله قلبي الواهن.

* * *

حين أتى دورُ الاختفاء على الذراع اليُمنى، لم يضطرب الناسُ اضطرابهم لاختفاء القدم اليسرى. لم يتألَّموا في أسرَّتهم، ولا تساءلوا كيف السبيل إلى ارتداء الملابس، ولا انشغلوا بطريقة التخلُّص من عضوهم الذي اختفى. كان الجميع يتوقَّعون، عاجلًا أم آجلًا، وقوع الظاهرة مجدَّدًا.

وبما أنْ لا ضرورة إلى التخلُّص من هذه «الأشياء» حرقًا أو إلقاءً في النهر، فإنَّ اختفاء الأجساد كان هادئًا سلسًا. لا جلبة ولا بلبلة. يكفي أن يستعدّ المرء صباحًا، على دأبه كلّ مرّة، لأن يحيا حاملًا تجويفًا جديدًا.

بالطبع، طالت حياتي اليوميَّة تغيُّراتٌ جديدة. لم أعد أستطيع طلاء أظافري. وكان لزامًا عليَّ إيجاد طريقةٍ جديدةٍ لأكتب على الآلة مستخدمةً ذراعي اليسرى فقط. وصار تقشير الخضر يأخذ منِّي وقتًا أطولَ. والخاتم الذي كنت ألبسه في ذراعي اليمنى، نقلته إلى ذراعي اليسرى... لكنْ لا شيء من ذلك كلّه كان مشكلةً. يكفي أن أستسلم لموجة الاختفاءات تحملني تلقائيًّا إلى الموضع حيث ينبغي أن أكون.

صرتُ الآن عاجزةً عن نزول الدرج إلى الغرفة السرِّيَّة حاملةً صينيَّة الطعام بذراعٍ واحدة. أسلِّم له الطعام عند مدخل الغرفة محاذرةً أن أقلبَه، ثم أنزل، درجةً درجةً، يسندني ر من وركيّ. وفي اتِّجاه الخروج،

أرتقي السلّم، ثم أرفع لوحَ المدخل، وأُخرج جسدي بجُهدٍ مرهقٍ. ومن أسفل يرفع دائمًا إليَّ عينيْه في قلقٍ.

أقول له:

ـ قد يأتي يومٌ أعجز فيه عن النزول إلى هذه الغرفة أو الصعود منها.

ـ كلَّا، لا تقلقي، سوف أحملك بين ذراعيّ. مثل أميرة!

رفع ذراعيْه إلى مستوى وجهه. قياسًا إلى ذراعيْن لم تريا الشمس منذ مدَّةٍ طويلة، ولا تبذلان مجهودًا يُذكر، باستثناء أشغالٍ بسيطةٍ كترتيب وصفات الطبخ، أو تنقية الفاصوليا، أو تنظيف الأواني، فإنَّهما ذراعان متينتان. كانتا تتمتَّعان بما يكفي من الصلابة والقوَّة. تختلفان كثيرًا عن ذراعي اليمنى التي تشبه خشبةً دقيقةً وطويلةً وُضع عليها الجبس.

ـ سيُسعدني أن تُعينيني في ذلك. لكنْ، كيف تستطيع حمل جسدٍ اختفى؟

وضع يديْه على ركبتيْه ورمش بعينيْه المحدِّقتيْن في جسدي، مرَّتيْن أو ثلاثة، كأنَّما لم يفهم مقصود سؤالي.

ـ أنا، أستطيع أن ألمس دائمًا أيّ جزءٍ من أجزاء جسمكِ.

ـ كلَّا. يستحيل لمس الأشياء التي اختفت.

ـ لِمَ؟ انظري، هنا، وهنا...

أمسك قالبَي الجبس المتدلِّيَيْن من كتفي ووركي. ارتجف أسفل تنُّورتي، وانسدل شعري على خدَّيَّ.

. آه.. صحيح أنَّك تعتني جدًّا بجسدي؛ وتستطيع أن تُعيد للأشياء وظيفتها التي اختفت: صندوق الموسيقى، تذكرة العبَّارة، الهرمونيكا، أقراص الليمونادة. ولكنْ هذا لا يعني أنَّ الأشياء الميِّتة تنبعث. إنَّما تُضاء الذكريات القديمة لبرهةٍ، مثل عصيِّ الألعاب الناريَّة التي تطلِقُ آخر شرارةٍ قبل أن تنطفئ.

لا يبقى ثمَّة نورٌ، ننسى على الفوْر، ونتساءلُ ما الذي كان يُضيءُ قبل وهلةٍ. كلّ شيءٍ وهمٌ لو تعلم. كلّ شيءٍ وهمٌ، القدم اليسرى والذراع اليُمنى اللتان تُمسكُ بهما، وكلّ ما يوجد في هذه الغرفة.

وبعدما ألقيت نظرةً شاملةً على «الأشياء» بالغرفة، لملمت خلف أذنيَّ الشعرَ الذي كان قد تساقط على خدَّيّ. أرخى قبضة يديْه عنِّي، وداعبت نعلي بأطراف أصابعي. وعلى الفور، اختفت آثار أصابعه على معصمي وربلتي، فاستعادت الذراع والساق مظهرهما الصلب، مظهر قالب الجبس.

سألته وأنا أنقل نظري من قدميّ إلى ركبتيّ، إلى ردفيّ، إلى صدري:

ـ هل سيختفي جسدي هكذا، جزءًا جزءًا.

ـ كلّا. لا ينبغي أن تنظري إلى الأمور بهذه السلبيَّة.

ـ ستحدث الاختفاءاتُ سواء فكَّرنا فيها أم تجاهلناها. لا مفرّ. أتساءلُ على من الدورُ. الأذنيْن؟ الحلق؟ الحاجبيْن؟ القدمَ والذراع الباقيتيْن؟ أو ربَّما العمود الفقريّ؟ وإن اختفى كلّ شيءٍ على التوالي، ما الذي سيبقى حتى النهاية؟ ربَّما لن يبقى شيء. أنا على يقين من ذلك. سأختفي بأكملي.

ـ هل يمكن أن يحدث شيءٌ مماثل؟ ألسنا في نهاية المطاف موجودين، وجهًا لوجه؟

أمسكني من كتفيّ ليجرَّني إليه.

ـ ما تراه في الواقع ليس قدمي اليسرى، ولا ذراعي اليمنى. داعبْهما كما شئتَ، واحضنْهما ما طاب لك، لن يغيِّر الأمر شيئًا، هما رفاتٌ ليس إلَّا. «أنا» الحقيقيُّ يختفي. ينمحي، بصمتٍ ويقينٍ، في شقٍّ بين طبقتَي هواء.

ـ لن أتركَكِ ترحلين هكذا.

ـ ولا أنا أريد أن أرحل إلى أيِّ مكانٍ. أريد أن أكون معك. لكنَّ الأمر مستحيل. لقد تباعد قلبانا. قلبك يشعر بالدفء، والهدوء، والانتعاش، ضاجٌّ بالأصواتِ والروائح، أمَّا قلبي أنا، فماضٍ يتجمَّد بأسرع ما يستطيع. قريبًا، سوف يتحطَّمُ إلى ألف قطعةٍ، يتحوَّل إلى حبَّات ثلجٍ تذوبُ في مكانٍ لا أحد يبلُغه.

ـ لا حاجة بكِ إلى الذهاب إلى أيّ مكانٍ. يكفي أن تبقي هنا. مع الزمرّدة، والعطر، والصورة، واليوميَّة، تستطيعين الاختباء هنا، في هذه الغرفة التي تطفو في لا مكان.

ـ أنا؟... هنا؟... أختبئ؟

ـ نعم.

ـ تظنُّ ذلك ممكنًا؟

هززتُ رأسي، غارقة في لَبسٍ ممَّا سمعته. وانزلقتْ ذراعي اليمنى من السرير فاصطدمت بركبته.

ـ طبعًا. إنَّ الأشياء التي كانت مخبوءةً في المنحوتات، وأنا نفسي، تحمينا الغرفة السرِّيَّة. حتى شرطة الذاكرة لن تستطيع الوقوع علينا، أليس كذلك؟

- أعلم أنَّ اللحظة الأخيرة تدنو. حتى اللحظة كانت الاختفاءات تقع بغتةً، من غير نُذُرٍ، لكنْ لَمّا صار الأمر يتعلَّق بجسدي فإنَّ عندي شعورًا خفيًّا بما سيحدث. إحساسًا بجلدي يتغضَّنُ ويتصلَّبُ. في ثلاثة أيَّامٍ، أو عشرةٍ، أو أسبوعيْن سيختفي عضوٌ آخر. أنا خائفةٌ. لست خائفةً من أن أختفي، ولا أبقى هنا، وإنَّما خائفة من أن نفترق.

قال:

- لا تقلقي. لا تخافي. سوف أحفظكِ بعنايةٍ، هنا في الغرفة السرِّيَّة.

ثم مدَّني على السرير.

٢٦

من حين إلى آخر، أتعجَّب للأمر. لِمَ لستُ عاتبةً عليه! الحقّ، كان عليَّ أن أشتمه بأقذع الشتم، أو حتى أن أضربه وإن كنت أعلم أنْ لا فائدة في ذلك، كان عليَّ أن أؤلمه. لأنَّه سلبني صوتي وحبسني في هذا المكان بعدما خانني. ومع ذلك، لستُ أكرهه. لا بل يعرض لي أن أحسّ بلطفه، حين يُبدي لي بعض الاهتمام؛ كأنْ يدير شوكتي حتى أتمكَّن من إمساكها بسهولة، أو يمسح خِفْيةً قطرةَ زبدٍ كي لا تدخل في عيني، أو يسرِّح شعري الذي يعلق في السحَّاب حين أبدِّل ملابسي... وأشياء من هذا القبيل. أشياء هي في الواقع لا شيء، مقارنةً بالأخطاءِ الفظيعة التي يرتكبها. ومع ذلك، كلَّما حرَّك أصابعه خدمةً لي، أكون ممتنَّةً له. أظنُّ أنَّه وضعٌ غبيٌّ، لكنْ بما أنَّ ذلك ما أفكِّر فيه حقًّا، فلا حيلة لي إزاءه. ربَّما هو الدليل على أنَّ انتمائي إلى هذه الغرفة يتوطَّد. الأحاسيس التي كنت أحملها للعالم الخارجيّ تحلَّلت وتحوَّلت إلى شيءٍ ما مناسبٍ لهذا المكان. مؤخَّرًا، صرت أجد المكان أسوأ فأسوأ. ركام الآلات

الكاتبة، السرير، قرع الجرس، الأشياء المهجورة في دُرج المكتب، كلّ شيءٍ يغطِّيه حجابٌ أسودُ مبهمُ المحيط. والإحساس نفسه حين أنظر عبر فجواتِ ميناء الساعة. ومع أنَّها ظهيرةٌ مبهجة، والشمس تلمع، برَّاقةً، إلَّا أنَّني أرى عشبَ فناء الكنيسة الداخليّ كئيبًا ومظلمًا، والناس الواقفين عليه لا يمكن تمييزهم عن الظلّ.

لذا، يتوجَّب عليَّ التحرُّك بحذرٍ كلَّما أردتُ أن أغسل وجهي أو أبدِّل ملابسي. فما إن أتحرَّك حتى أتعثَّر في أدوات تصليح الساعة، أو يصطدم وركي بظهر الكرسيّ. ويزداد توتُّري على وجه التخصيص حين يكون هو بقربي. هو لا يغضب حين تصدر عنِّي مثل تلك الأفعال الخرقاء، لكنَّه لا يساعدني، وإنَّما يكتفي بالمراقبة وعلى شفتيْه ابتسامتُه المميَّزة. ابتسامةٌ باردة، كأنَّما يمسح على ضلوعي بفرشاةٍ من جليد. ومع أنَّ الوهن يستولي على عينيّ بسرعةٍ، إلَّا أنَّني ما أزال قادرةً على رؤيته بوضوح. أستطيع إدراكَ جميعِ حركاتِ أصابعه. وما عداه، كلّ شيءٍ غارقٌ في الظلمات.

وذات يومٍ، وقع حادثٌ بسيط. في الظهيرة، بعد فترةٍ يسيرةٍ من نزوله إلى الحُجرة بالأسفل ليُعطي طالباته المبتدئات الدرسَ، سمعت وقعَ حذاءٍ يصعد الدرج. توقَّف عند الجناح، وبدا متردِّدًا قبل أن يواصل صعودَه.

«من كان الصاعدُ؟ وهل ينوي المجيء حتى هنا؟» لم أكن أدري ما أصنع. أصديقٌ هو أم عدوّ؟ وما علاقته به هو؟ هل يعلم بوجودي أم لا؟ لِمَ واصل الصعود ولم يتوقَّف عند حُجرة الدروس؟ في وقتٍ وجيزٍ، تصاعدت في نفسي كلّ الشكوك، غرقت في الارتباك. وبعد تفكيرٍ، أرى أنَّ لا أحد غيره صعد حتى هنا. أنا نفسي تابعت الدروس منذ سنواتٍ عديدة، ولم يخطر ببالي قطّ أن أصعد إلى قمَّة الساعة.

من الانطباع الذي يخلِّفه فيَّ وقعُ الحذاء، أقول إنَّ الصاعد بلا ريبٍ امرأةٌ. الصوتُ يشبه نقرَ منقارٍ على قطعة خشب. خمَّنت أنَّها ترتدي حذاءً نسائيًّا قصيرًا وضعت تحت كعبه العالي قطعة

بلاستيك سوداء صغيرةً مضادَّةً للانزلاق. تبدو هي أيضًا مضطربة. ينتابني الانطباعُ أنَّ بها خشيةً ممَّا يمكن أن تصادفه في أقصى الدرج اللانهائيّ. بقدر ما تقترب من حُجرة الساعة، تزداد المسافة الزمنيَّة تباعدًا بين وقع خطوةٍ وأخرى. أو ربَّما ليست تشعر بقلقٍ ولا خوف، وإنَّما هو فقط التعب. لأنَّ الدرجَ المفضي إلى الساعة ضيِّقٌ وشديدُ الانحدار، وطويلٌ جدًّا. على أيِّ حالٍ، ها قد وصلتْ، وتقف أمام الباب.

طقْ، طقْ، طقْ. قرعَتِ الباب ثلاث مرَّات. وكنت أنا جالسةً على الأرض أحضن ركبتيَّ بذراعيّ. إنَّها المرَّة الأولى التي أُدركُ فيها أنَّ القرع على هذا الباب العتيق يُحدث صوتًا جافًّا وصافيًا. هو لم يكن يطرق الباب البتَّة، إذ يستعمل سلسلة مفاتيحه التي تُحدث ضجيجًا مزعجًا.

ظننتُها فرصةً للفرار لا تعوَّضُ. لعلَّ طالبةً ارتابت للأصوات التي تناهت إليها، أو لعلَّها أتتْ بدافع الفضول لا غير! حتى وإن كان

صوتي مفقودًا، إلَّا أنَّني أستطيع أن أركضَ حتى الباب، فأطرقه لأنبِّهها إلى وجودي. وإذَّاك، لا بدَّ من أن تفعل شيئًا: تستغيث بالكنيسة، أو تستدعي الشرطة، أو تكسر القفل. فأستطيع العودةَ إلى العالم الخارجيّ. لكنَّني ظللت مستكينةً في مكاني، عاجزةً عن الحركة. قلبي يدقّ بعنفٍ، وشفتاي ترتجفان والعَرَقُ يلمع على جبيني.

حشثتُ نفسي قائلةً: «هيَّا، أسرعي. إن أبطأتِ، سوف تنصرف، فتضيع فرصتُك». لكنَّ جانبًا آخر منِّي كان يهمس لي: « كلَّا. ينبغي أن تظلِّي ساكنةً. كيف لكِ أن تشرحي لها الوضع؟ لقد علَّمك الكتابة على الآلة، وسرق صوتك، ثم سجنك هنا وسط ركام الآلات، والآن ترين كيف يعاملك؟ أتظنِّين أنَّها ستصدِّقُ قصَّةً بهذا القَدْر من التعقيد؟ ثم كيف لكِ أن تحكيها أصلًا؟ لا تملكين أيّ كلمة. وليست الكلمات وحدها ما يعوزك.

إنَّ أذنيْكِ وعينيْكِ وجلدكِ، وأعضاء جسمكِ كلَّها قد تحوَّلت لتُوافق هذه الحُجرة، لتوافقه هو. وحتى إن استطاعت إنقاذكِ، هل تظنِّين أنَّك ستستعيدين ما فقدتِه؟ تظنِّين أنَّك قادرةٌ على أن تجدي، وسط هذا الركام من الآلات، الآلةَ التي تخفي صوتك؟ تظنِّين أنَّك تستطيعين الحفاظَ على توازن جسدكِ من دون مساعدةٍ منه؟»

كان الجانب الآخر منِّي يطرح الأسئلة، سؤالًا تلو آخر، وكلّ سؤالٍ أشدُّ رعبًا من سابقه. سددت أُذنيَّ بكفَّيَّ، وحشرت رأسي بين ركبتيَّ، وحبست أنفاسي. صلَّيت لكي تتراجع، وتنزل. لا أجرؤ على الخروج إلى العالم الخارجيّ.

أتساءلُ كم مرَّ عليَّ من الزمان وأنا ساكنةٌ في موضعي. داعبتْ هي القفل، وأدارتْ المقبض لبرهةٍ، ثم تنهَّدتْ وابتعدتْ عن الباب. وابتعد وقعُ حذائها شيئًا فشيئًا، نازلًا في حركةٍ لولبيَّة. ثم انمحى كلّ

أثرٍ للصوت، لكنَّني بقيت مدَّةً عاجزةً عن الحركة. كنت أخشى أن تعود إن أنا أحدثتُ أدنى ضجيج.

لم تعاودني الرغبةُ في النظر عبر فُرجات ميناء الساعة، إلَّا مع بداية المساء. بالطبع، لم أَرَ تلك التي أتت تطرق بابي. في الحديقة، تلتقي الطالبات اللواتي يغادرن درس الظهيرة، مع أولئك اللواتي يحضرن دروس المساء. لكنَّهنَّ جميعًا، لم يكنَّ إلَّا كتلةً من أصوات. عينايَ الواهنتان لا تستطيعان تمييز وجوههنَّ، ولا ملابسهنَّ، ولا أشكال أحذيتهنَّ. هيئاتُ الطالبات اللواتي يثرثرن ويضحكن جالساتٍ على أطراف العشب، وحدها تنطبع في شبكيَّة عينيّ في وضوحٍ جارح.

تلك الليلة، أتاني حاملًا كالعادة ملابس من أغرب ما يكون. وإن لم يكن قد اعتنى بها عنايته بما سبقها. كانت، كالعادة، ملابسَ غير مألوفة الشكل ولا دارجةً في العالم الخارجيّ، لكنَّ مادَّتها هذه المرَّة كانت عاديَّة، لا زخارف تُزيِّنُها، وقد خيطت على

عجلٍ. أحبطتني. ليس لأنَّني كنت أريد ارتداءَ شيءٍ أشدَّ جسارةً، وإنَّما لأنَّ هذه الفظاظةَ في صنع الملابس تدلّ على خفوت شغفه بي.

سألني فجأة:

ـ ألم يزُرك اليومَ أحد؟

من وقْعِ المفاجأةِ، أفلتَت يداي اللباس الذي كانت تُمسكه. كيف عرف؟ إن كان يعلم أنَّها تنوي الصعود، لمَ لم يمنعها؟ على الرَّغم من أنَّها كانت تستطيع أن تكشف سرّه... عجزت عن الفهم، فخفضت رأسي.

ـ أحدُهم طرق هذا الباب، أليس كذلك؟

أجبته موافقةً بهزَّةٍ من رأسي...

أضاف وهو يلتقط اللباس الذي أسقطتُه:

. لمَ لم تستنجدي به؟ كنتِ تملكين كلّ الوسائل للإفصاح عن وجودك. كان بمقدورك أن تطرقي الباب، أو أن تُحدثي ضجيجًا بالكرسيّ، أو تضربي الجدارَ بآلةٍ كاتبة. وسائل شتَّى طوع يدِك.

لم أَدْرِ بما أجيبُه. تحجَّرتُ.

. لِمَ لم تحاولي الهرب؟ كان بإمكانها أن تُخرجك من هنا، فتستعيدي حرِّيَّتك.

لامس ذقني، ثم واصل:

. لكنَّكِ لم تفعلي. بقيتِ هنا. لماذا؟

أسئلتُه تتساقط كالمطر. مع أنَّه يعلم أنَّ من فقدَ صوته لا يستطيع أن يُجيب عن الأسئلة. إلامَ يرمي إذن؟

فقط كان جسدي متصلِّبًا.

. هي لعلمك طالبةٌ جديدةٌ التحقتْ بدروس المبتدئين.

أخيرًا، كفّ أسئلته.

. لم تتعلَّم بعدُ تقنيَّة الكتابة على الآلة. لا تستطيع بعدُ أن تكتب جُملًا. ما تزال عند مستوى رقن الحروف، حرفًا بعد حرف، وحتى هذا لم تتقنه بعد، ما تزال تُخطئُ كثيرًا. وهذا الصباح، سألتني فجأةً عن شكل البرج في الأعلى. قالت إنَّها كانت تأتي إلى هنا، أيَّام كانت طفلةً، مع جدّها الذي كان يصلِّح الساعة، وإنَّها تريد الصعود لترى كيف صار المكانُ بعد سنواتٍ. لم أعارض رغبتها. أخبرتها أنَّه لم يعد ثمَّة مصلِّح ساعةٍ، وأنَّ الحُجرة صارت مجرَّد مَخزنٍ، وأنَّها تستطيع الصعود إلى أعلى إن شاءت.

«لِمَ لم تمنعها من الصعود؟ ماذا كنت تنوي أن تفعل إن كشفت أمري؟»

حدَّقت فيه.

ـ كنت على يقين. لم يعد بمقدوركِ الخروج إلى العالم الخارجيّ. ليطرق من شاء البابَ، أو ليفعل أيّ شيء. لن يتغيَّر شيء. لقد التحمتِ تقريبًا بهذه الحُجرة.

ظلَّ صدى كلمة «التحمتِ» يتردَّد بيننا. مدَّ لي اللباس، وغيَّرت ملابسي. وكان ارتداؤه سهلًا بقدر ما كان التصميم بسيطًا. كان يكفي أن أحني وركي قليلًا لكي يندسَّ جسدي بأكمله في الزيّ.

ـ لِمَ تُناديك من خلف الباب؟

هززتُ رأسي.

- للأسف. كنت أودّ لو سمعت أنت أيضًا صوتَها. صوتٌ فاتن. ليس جميلًا فحسب، وإنَّما أيضًا يتميَّزُ بميزةٍ مذهلة. صوتٌ يمزج بين العمق الذي يتردَّد في أعماق الجوف الأنفيّ، ونعومة اللّسان العذبة، والهشاشة المنبعثة من أغشية الشفاه، والعذوبة التي تذوب لها طبلة الأذن. صوتٌ لم أسمع له مثيلًا من قبل.

أدار نظره صوبَ ركام الآلات الكاتبة. الريح التي تمرُّ عبر تجاويف ميناء الساعة، تهزُّ المصباحَ المتدلِّي من السقف.

- تتقدَّم في دروس الآلة الكاتبة بشكلٍ عاديٍّ جدًّا. لا بل أقلّ من العاديّ. تخطئ دائمًا بين w o ، وبين b v . وحين تكتب، تحني ظهرها. أصابعها قصيرةٌ وغليظةٌ كأصابع طفل، ولم تستطع إلى الآن أن تتعلَّم كيف تغيِّر شريطًا. لكنْ كلَّما فتحت فمها، يلتمع كلّ ما حولها، كأنَّها تضيئه. صوتُها مثل مخلوقٍ عجيب.

صمتَ، وحملني بذراعيْه، ووضعني في السرير.

«ماذا تنوي أن تفعل بها؟ لِمَ تحكي لي كلّ هذا؟ ماذا تريد أن تصنع بصوتِها؟»

كنت أنتفض بين ذراعيْه، لكنْ بسبب اللباس الغريب، لم أستطع أن أحرِّك جسدي إلَّا قليلًا. بقبضته اليسرى وحدها، أمسك معصميَّ معًا، فشلّ حركتي بسهولة.

- ينبغي أن تتمرَّنَ كثيرًا على الآلة. سأحرص على أن ترقن العديدَ من الحروف بأسرع وأصوبِ ما يمكن. هكذا ينحبس صوتُها داخل الآلة، حتى تفقدَه تمامًا، ولا يعود بمقدور المفاتيح أن تتزحزح ولو ميليمترًا واحدًا.

ذاك ما قاله.

* * *

مُذّاك، لم يعد إلى الظهور. قضيت أيَّامًا، وأيَّامًا، في وحدةٍ مطلقة. لم يعد يحضر الملابس الغريبة، ولا حتى يعدُّ لي ما يكفي

من طعامٍ. مرَّةً في اليوم أو مرَّتين في ثلاثة أيَّامٍ، يأتي بصحن خُضارٍ مطبوخة، وقطعة خبز، فيضعها بالباب وينصرف. لا ينظر باتِّجاهي، ولا يفتح الباب إلَّا بالقدر الكافي لإدخال الصحن. ثم ينصرف من غير أن يخلِّف وراءه إلَّا صليلَ الآنية.

ما يزال الوهن يستولي على عينيّ وأذنيّ. جسدي فُصِل عن قلبي، وأُلقيَ به على الأرض غارقًا في العتمة. أيّام كان يحبّني، كان جسدي رطبًا، فائضًا بالعذوبة وتملأه الانحناءات، لكنَّه الآن قد تحوَّل إلى كتلةٍ من عجين. أهذا حقًّا صدري؟ قدماي؟ ذراعاي؟ لم أعد متأكِّدةً من شيء! إن لم يداعب أعضائي، فلن تستعيد الحياةَ. وحده يمكن أن يتلطَّف ويقيم معي في هذه الغرفة التي التحمتُ بها. فإن أدار لي ظهرَه، ما سيكون مصيري؟ يكفي أن يخطر ببالي هذا، ليتملَّكني الخوف وأرتعد.

ذات ليلةٍ، ملأت الحوض بالماء لأغطِّس فيه قدمي، حتى أتأكَّد من أنَّها موجودةٌ حقًّا. ولا ذرَّة غبارٍ تطفو على الماء. كان شفَّافًا

تمامًا، ويبدو باردًا. أغطست فيه طَرَفَ قدمي بحذر. لكنَّني لم أشعر بشيء. فقط جزءٌ من ربلتيَّ تشنَّج تشنُّجًا خفيفًا. بدا لي أنَّ ساقيَّ تهيمان في مكانٍ ما بالجوّ. لم أعد أحسُّ ذاك الإحساس الذي يحسُّ به الحيُّ!

متشبِّثةً بالحوض، ألقيتُ نظرةً من المنْور. كان القمر بارزًا، لكنَّ ضوءه الشاحب بلا فائدةٍ بالنسبة إليَّ. شوارع المدينة تبدو لي مثل بساطٍ من العشب يمتدّ حتى تخوم السماء. العشبُ المهتزُّ في الريح يرسم أشكالًا، أشكالًا تشبه قطعةَ جبنٍ قضمتْها فئران. احتياطًا، بلَّلت يديّ ووجهي وصدري بالماء، فكانت النتيجة الإحساس نفسه. وجودي يُمتصُّ فورًا صوب مكانٍ لا سبيل إليه.

* * *

منذُ متى لم يزرني؟ يبدو لي أنَّ فترةً طويلةً تفصل بيني وبين آخر وجبةٍ طُعمتُها. تقريبًا قطعةَ خبزٍ بطول خمسة سنتيمتراتٍ، وملعقة مربّى. وبالنسبة إلى جسمي الواهن، كان الخبز الفرنسيُّ قاسيًا. وإذا ما كان الوهنُ يستولي عليَّ، فليس مردُّ ذلك إلى أنَّه لا يُطعمني،

وإنَّما إلى كوني ألتحمُ بالحُجرة أعمق فأعمق. تخلَّيت عن قضم الخبز، واكتفيت بلعق المربّى. تعفَّن الخبز الذي وضعته تحت وسادتي.

مستلقيةً على السرير، أُصيخ السمع. أسمع وقع حذائه يصعد درج البرج. أثب لأدنى صرير.

«لا بدَّ من أنّه هو».

لكنْ دائمًا ما يخونني التقدير. أوهمتني الريحُ أو حركة فأر.

لِمَ لم يعد يزورني؟ في حين أنَّني لم أمنحه صوتي فقط، وإنَّما أيضًا جسدي، وعواطفي، وأحاسيسي، قصرتُ وجودي بأكمله عليه. بذلتُ في سبيله كلّ جُهدٍ، حتى التحمتُ بهذه الحُجرة.

لا بدَّ من أنَّه، في هذه الأثناء، يُعلِّمُها الكتابةَ على الآلة. بصبرٍ ولطفٍ، يلمس أصابعها، حتى يتمكَّن من سجن صوتها في الآلة، في أقربِ فرصةٍ.

أغمض عينيَّ. أنا نفسي أُدرك أنَّ النهاية وشيكة. ومثلما فعلتُ حين فقدتُ الصوتَ، أصلِّي كي تأتي تلك اللحظة بلا ألمٍ أو حزن. ربَّما لا داعي إلى القلق. لا ريب في أنَّ الأمر أشبهُ شيءٍ بمفاتيح الآلة الكاتبة التي تهوي مفرقعةً حين ترقنُ حرفًا.

* * *

أسمع وقعَ حذاء. إنَّه هو. في إثره وقعُ خطواتٍ أخرى، متحفِّظةٍ بعض الشيء. إنَّه حذاءٌ نسائيٌّ قصيرٌ، وُضعتْ تحت كعبه العالي قطعةٌ بلاستيك مضادَّةٌ للانزلاق. يختلط الصوتان، ويتراكبان، بينما يزدادان دنوًّا من الباب. لا بدَّ من أنَّها تحمل آلةً كاتبة. آلةً أتخمَها الصوتُ الذي حُبس فيها، فما عادت مفاتيحُها تتحرَّك.

ابتلعني الصمتُ، من دون أن يخلِّف أثرًا. ربّما سأستعيد صوتي الذي أضعته منذ زمنٍ بعيد؟ توقَّفتِ الخطواتُ. يُدير المفتاح في القفل.

حانت اللحظةُ الأخيرة.

٢٧

بعدما وضعت قلمي، منهكةً من التعب، اتَّكأتُ على المكتب. بالإضافة إلى ما ألفيه من مشقَّةٍ في إيجاد الكلمات ونظمها، كان الجهدُ البدنيُّ الذي أبذله فظيعًا، إذ لم يبقَ إلَّا قليلٌ من أجزاء جسدي.

الحروف التي أكتبها باليد اليسرى خرقاء، وهنا وهناك، تضطرب الخطُوطُ، حتى لتكاد تنقطع. كأنَّما كلُّ الكلمات تبكي.

لملمت الأوراق، وثبَّتُّها بدبُّوس. لم أكن متأكِّدةً ممَّا إذا كانت تلك الحكايةَ التي يتوقَّعها، لكنِّي على أيِّ حال، قد بلغت نهايةَ الطريق الذي يرسمه انتظامُ الكلمات. استطعت أن أُنهي الشيءَ الوحيدَ الذي يمكنني أن أتركه له. حتى وإن كان «ضمير» الساردة «أنا» في هذه القصَّة أيضًا ينتهي إلى الاختفاء.

بعدما اختفت الروايات، منذ زمنٍ غير بعيدٍ، كان عليَّ أن أسلكَ طريقًا طويلة، مليئةً بالانعطافات، لكي أبلغ بترتيب الكلمات حتى هذه النقطة. شهدنا هزَّةً أرضيَّةً، وغرقت العبَّارة، وانكسرت منحوتات آل إنوي، فكشفت عن «أشياء» مخبوءةٍ فيها، وذهبنا إلى الشاليه، وصادفنا تفتيشًا، ثم مات الجدُّ. تبدو الأحداثُ ثمرةَ الصُّدفة، ومع ذلك، تقصدُ كلّها وجهةً معلومة. ومع أنَّ جميع سكَّان الجزيرة كانوا يعلمون ما ينتظرهم، إلَّا أنَّ لا أحد منهم جرؤ على الكلام. لم يكن الناس خائفين، ولكنَّهم أيضًا لم يحاولوا الإفلات من مصيرهم. كانوا يعرفون حقَّ المعرفة طبيعةَ الاختفاءات، والطريقة لمواجهتها.

وحده ر حاول كلّ ما يمكن تخيُّله من أساليب المقاومة، لكي يُبقيني هنا. وعلى الرَّغم من أنَّني كنت أعرف أنَّها جهودٌ سدًى، إلَّا أنَّني لم أمنعه. كان يدلِّك جسدي الذي تحوَّل إلى تجويف، ويحكي لي ذكريات «الأشياءِ» العديدةَ. فكانت الحصى التي يُلقيها في بُحيرة قلبي تظلُّ مرفرفةً على السطح، ولا تبلغ العمقَ أبدًا.

قال وهو يداعب حزمة الأوراق:

. لقد تحمَّلتِ الصدمة. سعيدٌ لأنَّني أمسك مجدَّدًا بين يديَّ مخطوطًا من مخطوطاتكِ. أستعيد الزمن الذي كانت فيه بيني وبينك دائمًا روايةٌ.

. لكنْ يبدو أنَّ هذا لم يوقف وهنَ قلبي. أتممت القصَّةَ، لكنِّي ماضيةٌ في فقدان نفسي. التعب الذي داهمني كان ثقيلًا، حتى إنِّي لم أعد قادرةً على حمل جسدي.

. هيَّا.. ينبغي أن تأخذي وقتك، وتستريحي. إن نمتِ هنا نومًا عميقًا، سوف تستعيدين حيويَّتك.

. أتساءل، هل ستظلُّ الحكاية هي هي بعد اختفائي؟

. طبعًا. الكلمات التي كتبتِها ستبقى كما هي، ذكرى عنك، أحملها في قلبي الذي لن يختفي. لا تقلقي إذن.

ـ حسنٌ إذن، على الأقلِّ سوف أترك أثرًا يشهد على وجودي في هذه الجزيرة.

ـ يُستحسن أن تنامي الآن.

ـ أنت محقٌّ...

أغمضت عينيّ. فزارني على الفور نومٌ عميق.

* * *

في المرَّة الأولى، لمّا فقد الناسُ أقدامهم اليسرى، لم يدروا ما العمل، فساروا مترنِّحين. أمَّا الآن، وقد كادت تختفي أجسادُهم بأكملها، فتراهم يسيرون من غير أن يختلّ توازنُ أحدهم. بقدر ما تقلّ الأجزاء، يزداد انسجام الأجساد التي تكيَّفت مع أجواء الجزيرة المليئة بالفجوات. يترنَّحون خفافًا في الهواءِ، كأنَّهم حُزم أعشابٍ برِّيَّةٍ يهزّها الريح.

لم يعد ضون يستطيع اللعب، قافزًا على الأغصانِ، مُسقطًا الثلج؛ لكنَّه اكتشف طريقةً جديدةً للعب متوسِّلًا بقائمته اليسرى الأماميَّة، وفكَّيْه، وأذنيْه، وذيله. وبسبب عاداته القديمة، يحدث أن يتكوَّر على نفسه ليأخذ قيلولة، وحين يرغب في وضع رأسه على قائمتيْه الخلفيَّتيْن، فيُدرك أنَّه لم يعد ثمَّة شيءٌ، يحدث أن يتجهَّم، لكنَّه سرعان ما يتخلَّى عن الفكرة، ويسحب غطاءه ليجعل منه وسادةً.

على الجزيرة، ارتفعت درجة الهدوء سريعًا. ولم يزدد الفرق بين عدد الأشياء القديمة التي تختفي، والأشياء الجديدة التي تُصنعُ، إلَّا اتِّساعًا. وفي المدينة، أقفرتِ المطاعمُ والحدائق العامَّة، وأُهملت الطرق التي تصدَّعت من الزلزال، من غير إصلاحٍ، وتقلَّص عدد القطارات، واختفت العبَّارة تمامًا في الماء.

من بين الأشياء التي صُنعت حديثًا، ثمَّة فجلٌ وملفوفٌ صينيٌّ وجرجير، تطلُّ برؤوسها في الحقول، والأغطية والسترات التي تُحيكها

نساء مشغل النسيج، والوقود الذي يأتي من مكانٍ نجهله، محمولًا في صهاريج شاحناتٍ. وهذا تقريبًا كلّ شيء. ثم هناك الثلج الذي يسقط بلا توقُّف. الثلجُ وحده يبدو عازمًا على ألَّا يختفي.

خطر لي فجأةً أنَّ الجَدّ محظوظٌ، لأنَّه مات قبل بداية اختفاءِ الأجساد. وبفضل ذلك، ما زلت أستطيع تذكُّر لمسةِ يديْه اللتيْن كنت أحبّهما كثيرًا.

لقد فقد الجَدّ ما يكفي من الأشياء. فلا شكّ إذن أنَّ الأفضل له كان أن يموتَ وهو ما يزالُ سيِّدًا على جسده، بدلًا من أن يعيش مترقِّبًا هذه الاختفاءات.

حين وُضع جثمانُ الجَدّ على منضدة الفولاذ غير القابل للصدأ، كان قاسيًا وباردًا، لكنْ على الأقلِّ كانت ذراعاه، وكتفاه، وصدره، وقدماه، ما تزالُ جميعًا تحتفظ بأثرٍ من قوَّته ولُطفه، أيَّامَ كان يعمل لحمايتنا، أنا و ر.

لكنْ لا أهمِّيَّة حقًّا لهذا الترتيب. ففي النهاية، قد يختفي كلّ شيء.

الأيَّامُ الرتيبة تتوالى هانئة، بلا تغييرٍ يُذكر. أذهب إلى المكتب. أرقن على الآلة الكاتبة بيدي اليسرى. أنزِّه ضون. أعدُّ وجباتٍ بسيطة. أشمِّسُ الملاءات. وأقضي الليل مع ر في الغرفة السرِّيَّة. ولا يخطر ببالي فعلُ شيءٍ آخر.

يشقُّ عليّ، أكثر فأكثر، نزولُ درج الغرفةِ السرِّيَّةِ. أصيح متهاويةً على ذراعيْه المفرودتيْن. دائمًا ما يتلقَّفني ببراعة.

لكنْ في السرير، لا ينفعنا العناق مهما اشتدّ. لا حيلة لنا إزاء الفجوة التي ما تنفكّ تتَّسع بيننا. لا توافق بين أعضائنا؛ جسده المتناسق والمتين والحيّ، وجسدي الواهن الضئيل والخالي والبارد. على الرَّغم من كلِّ شيءٍ، لا يستسلم، ويواصل ضمِّي إليه ما

استطاع. حين أرى ما يبذله من جُهدٍ في ثَنْيِ ذراعيْه وفردهما، ولَيِّ عنقه، وطيِّ ركبتيْه، أحزنُ وتسيل دموعي.

يقول لي:

ـ «لا تبكِ»، ويمسح براحته الدمعَ عن خدَّيّ.

فأقول لنفسي مرتاحةً:

ـ آه، لحسن الحظّ ما زلت أملك خدَّيَّ. وفي الآن نفسه، أتساءلُ قلقةً، أين ستسيل دموعي إن اختفى خدَّايَ. أيّ موضعٍ ستمسح عليه راحتاه؟ فتتضاعف دموعي.

* * *

ثم اختفت يدي اليسرى التي تكتبُ الحكاية، وعيناي اللتان تفيضان بالدمع، وخدَّاي اللذان تسيل عليهما دموعي. ولم يبقَ في نهاية المطاف إلَّا صوتي. فقدَ الناس كلّ أشيائهم التي لها أبعادٌ. بقيت الأصوات وحدها تطفو يائسة.

ما عدت أحتاج أن أتهاوى بين ذراعيْ ر لأنزل إلى الغرفة السرِّيَّة. ولا أحتاج أن أرفع اللوحَ الثقيل، فصوتي يتسلَّل عبر الفجوات الضيِّقة. ومن هذه الزاوية، يمكن القول إنَّ اختفاء جسدي قد منحني ضربًا من الحرِّيَّة. على أنَّ هذا الصوت الخفيّ، والنسبيَّ، إن لم ينتبه له المستمعُ متيقِّظًا، فإنَّ الريحَ قد تدفعه بعيدًا.

قلت:

ـ مع الصوت، نحن هانئان.

ـ مع الصوت، أظنُّ أنَّ بوسعنا أن نغنم آخرَ لحظةٍ بهدوءٍ وعذوبة. من دون أن نترك خلفنا ألمًا أو معاناةً أو شقاء.

ـ لا ينبغي أن نفكِّر في مثل هذه الأمور.

أراد أن يبسط ذراعيْه إليَّ، لكنَّهما ظلَّتا ساكنتيْن. لم تجد ذراعاه شيئًا تقصدانه، فظلَّتا معلَّقتيْن في الفضاء.

. أتدري، أنَّك أخيرًا تستطيع الخروج من هذه الغرفة؟ ستكون حرًّا في العالم الخارجيّ. لم تعد شرطة الذاكرة تلاحق الذكريات. كيف لها أن تعتقل أُناسًا ليسوا إلَّا أصوتًا؟

أردتُ أن أبتسم، لكنَّني أدركت على الفوْر أنْ لا فائدة في ذلك.

. إنَّ العالمِ الخارجيّ المدفونَ تحت الثلج قفرٌ، لكنْ إن كانت لي كثافةُ قلبك، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. أظنُّ أنَّ بوسعي أن أُذيب، شيئًا فشيئًا، قساوة العالم. لا بدَّ من أن يخرجَ الأشخاصُ الآخرون من مخابئهم.

. من دونكِ لا أساوي شيئًا.

حاولَ كلّ ما في إمكانه ليداعب صوتي.

. كلَّا، أنا لم أعد أصلح لشيء.

ـ لِمَ تقولين هذا؟

ضمَّ الهواءَ في الموضع الذي كان يظنُّ أنَّ صوتي فيه. الحقّ أنَّه جانبني، لكنَّني أحسست بحرارته مع ذلك.

غيَّرتِ الريحُ اتِّجاهها. ومثل إشارةٍ، أخذ صوتي يخفت ويختفي تدريجيًّا انطلاقًا من الخارج.

ـ حتى إن اختفيت، سوف تُحفظ بعنايةٍ هذه الغرفةُ السرِّيَّة، أليس كذلك؟ أتمنَّى أن تظلّ ذكرايَ حيَّةً هنا إلى الأبدِ، عبر قلبك.

شيئًا فشيئًا، صعُب عليَّ التنفُّس. أجلت بصري في الغرفة السرِّيَّة. بين الأشياءِ المصفوفة على الأرض، كان ثمَّة أيضًا جسدي، محشورًا بين صندوق الموسيقى والهارمونيكا، قدماي ممدَّدتان مائلتان، ويدايَ مضمومتان متشابكتان على صدري، وعيناي مغمضتان.

مثلما يُدير مفتاحَ صندوقِ الموسيقى أو ينفخُ في الهارمونيكا، سوف يحيي ذكرايَ بمداعبة جسدي.

ـ هل سترحلين حقًّا؟

ضمّ إلى قلبه الهواءَ الذي حمله بيديْه.

ـ وداعًا...

كان ما تبقّى من صوتي هشًّا أجشّ.

ـ وداعًا...

لم يكفَّ عن تأمُّل تجويف راحتيْه. أمضى مدَّةً لانهائيَّةً يحاول فيها أن يُقنع نفسه بأنَّه لم يبقَ شيء، ثم يئسَ، فأرخى ذراعيْه. ثم ارتقى الدرج ببطءٍ، درجةً درجة، وفتح الباب، فانطلق إلى العالم الخارجيّ.

اقتحم الضوءُ الغرفةَ لوهلةٍ، ثم ما لبث أن رحل ما إن انغلق البابُ في صرير. وفي الآن نفسه، بلغني الإحساسُ الواهن بالبساط الموضوع فوق لوح المدخل.

محبوسةً في الغرفة السرِّيَّة، بدأتُ أختفي.

شرطة الذاكرة

يوكو أوغاوا

عالمٌ بأكمله شيّدتْه هنا يوكو أوغاوا قطعةً قطعةً:جزيرة تختفي منها الأشياءُ والمخلوقات، وتتلاشى فيها العواطف. نساء ورجال يتخلّون عن ذكرياتهم أو يحتفظون بها سرًّا. أجهزةٌ وتنظيماتٌ تتعقّب الذكريات وتحرص على اختفائها.
إنّها روايةٌ باهرةٌ نجحتْ في خلق المفارقة: بِناءُ عالمٍ قوامُه الاختفاءُ والامّحاء.

–

أُدرجتْ رواية "شُرطة الذاكرة" ضمن اللائحة القصيرة لجائزة Booker العالميّة للعام 2020.

–

يوكو أوغاوا: روائية يابانية حصدت كلّ الجوائز الأدبيّة اليابانيّة الكبرى.
صدر لها عن دار الآداب: "حوض السباحة"، و "غرفة بيضاء مثاليّة لرجل مريض"، و"حذاءٌ لك